

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

الإطارُ التاريخيّ لشعرِ النابغةِ الذبيانيِّ

The Historical Framework of al-Nabigha al-Dhubyani's Poetry

إعداد:

عبد العزيز فوزي العبد أبو حمد

إشراف :

د. عرسان حسين الراميني

الفصل الدراسي الأول

٢٠١٤/٢٠١٣

الإطارُ التاريخيّ لشعرِ النابغةِ الذبيانيّ

إعداد:

عبد العزيز فوزي أبو حمد

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها تخصص أدب ونقد في جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

وافق عليها

الدكتور عرسان حسين الراميني.. **مشرفًا ورئيسًا**
أستاذ تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، جامعة اليرموك.

الدكتور محمد خالد الأحمد الزعبي..**عضوًا**
أستاذ الشعر الجاهلي، جامعة اليرموك.

الدكتور حمدي محمود ناجي منصور..**عضوًا**
أستاذ الشعر الجاهلي والإسلامي، الجامعة الأردنيّة.

تاريخ مناقشة الرسالة 4/12 /2013م

الإهداء

إلى روح والدتي الطاهرة، التي لم تغادر صورتها مخيّلتي منذ رحيلها، تغمّدها المولى، ، بواسع رحمته، واسكنها فسيح جنانه، وألهمني الصبر على فقدها.

إلى والدي الفاضل، الذي شجّعني على طلب العلم والمعرفة، ولازمني بالدعاء، أمدّه الله بالصحّة والعافية.

إلى شريكة حياتي، ورفيقة دربي، التي ضحّت وصبرت على الكثير من أجلي؛ فساعدتني وساندتني.

إلى فلذات كبدي، فوزي ومحمد الثاني ورؤى وأحمد، الذين تحمّلوا الكثير من أجلي، أقرّ الله بهم عيني.

إلى إخواني وأخواتي وأحبائي وأصدقائي وزملائي، الذين ساندوني وساعدوني لإتمام هذا البحث، جزاهم الله عنّي خيرًا.

إلى هؤلاء جميعًا أهدي هذا الجهد مع خالص تقديري واحترامي.

الباحث

عبد العزيز فوزي أبو حمد

شكر وتقدير

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، سيدنا محمّد، ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

"رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (سورة النّمل: آية ١٩).

ردًّا للفضل لأهله، وعرفانًا بالمعروف وبالجميل، أتقدّم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتور عرسان حسين الراميني، لإشرافه على بحثي هذا، الذي لم يأل جهدًا في تقديم النصح والإرشاد لي لإتمامه ، فقد منحني من وقته وجهده الكثير الكثير، وأفاض عليّ بعلمه، فما بخل عليّ بشاردة ولا واردة، فيما يخصّ هذا البحث، فوهبني من فيض عبقريّته، وغزارة علمه، وصواب منهجه، وشملني بعطفه وتواضعه، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير، أيضًا، إلى الأستاذين الأكرمين، الدكتور محمد خالد الأحمد الزعبي و الدكتور حمدي محمود ناجي منصور، عضوي لجنة المناقشة، اللذين تجشّما عناء قراءة هذا البحث، ومناقشته وإثرائه.

وأخيرًا، أتقدم بالشكر والعرفان إلى كلّ من قدم لي يد العون والمساعدة، وأسهم في إتمام هذا البحث، وإخراجه إلى حيّز الوجود.

الباحث

عبد العزيز فوزي أبو حمد

الملخّص.

أبو حمد، عبد العزيز فوزي العبد، **الإطارُ التاريخيّ لشعرِ النابغةِ الذبيانيِّ**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠١٣ (المشرف: د. عرسان حسين الراميني).

تسعى هذه الدراسة إلى تحديد الإطار التاريخيّ لشعرِ النابغةِ الذبيانيِّ، وذلك من خلال فحص ارتباطاته السياسية والقبلية. ففي الجانب السياسيّ، تتناول الدراسة سير العلاقة بين الشاعر وملوك الغساسنة المتأخرين، وبالتحديد، الحارث الأصغر بن أبي شمر وولديه: النعمان وعمرو. وفي الجانب القبليّ تدقق الدراسة في الأحداث المهمة المتعلقة بتاريخ قبيلة ذبيان، سواء أكانت أحداثًا خارجية تتصل بعلاقات القبيلة مع بني عبس وبني أسد وبني عامر بن صعصعة أم أحداثًا داخلية تتصل بعلاقة بني يربوع بن غيظ، رهط النابغة، بالسادة الأكثر نفوذًا في أوساط ذبيان. فشعر النابغة، من جانب، وسائر الشعر الجاهلي، من جانب آخر، كلاهما يحتوي على معلومات أو إشارات تساعد في تتبع الخط التسلسلي للحدث التاريخي، ومن ثَمّ تزودنا بالأدوات اللازمة لبذل محاولة معقولة في اتجاه ترتيب قصائد الشاعر زمنيًا، وهو ما يتكفل به الفصل الأخير من هذه الدراسة.

الكلمات الدالّة: النابغة الذبيانيّ، الشعر الجاهلي، تاريخ العرب قبل الإسلام، القبائل العربية.

فهرس المحتويات

المقدمة.

يعد الشعر الجاهليّ مصدرًا مهمًّا في التأريخ للحقبة التي سبقت ظهور الإسلام؛ وعليه، يرى بعض من الباحثين المعاصرين[١] أنّه لا يمكن الاطمئنان إلى نتائج الدراسات المتعلّقة بتاريخ ذلك العصر ما لم يتم فيها توظيف الشعر الجاهليّ. من هنا تبرز أهميّة تأكيد العلاقة العضويّة بين الشعر والتاريخ فيما يخصّ ذلك العصر تحديدًا؛ فعلى الرغم من أنّ أسلافنا وصفوا الشعر الجاهليّ بأنّه "ديوان خاصة العرب"[٢]، فإنّ دارسي ذلك العصر من المحدثين لا يتخذونه مصدرًا أساسيًا من مصادر دراساتهم الأدبية أو التأريخيّة[٣].

والدراسة الحالية تحاول فحص شعر النابغة الذبياني في ارتباطاته التاريخية، وبخاصة من حيث السياسة والقبيلة، وذلك في مسعى إلى ترتيب القصائد في ديوان الشاعر ترتيبًا زمنيًّا، وهو ما يفتح المجال أمام دراسات أخرى لفهم هذه القصائد فهما أفضل سواء من الناحية الفنية أو الموضوعية.

وأهم ظاهرة تاريخية سياسية في شعر النابغة الذبياني هي اعتذارياته. وهناك اعتقاد راسخ في أوساط القدماء والمحدثين أن هذه الاعتذاريات قيلت في آخر ملوك الحيرة، النعمان بن المنذر، وأن هذا النعمان يكنى بـ "أبي قابوس"[٤]. لكن هناك دراسة حديثة جدًا نسفت هذا الاعتقاد من أساسه

---

(١) الراميني، عرسان حسين، "الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم،" **دراسات**، مجلد٣٦، عدد٢، ٢٠٠٩، ص٣١٢.

(٢) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي(٣٢٨هـ)، **العقد الفريد**، تحقيق محمد قميحة، القاهرة: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ج٦: ص١١٨.

(٣) يصف نولدكه الأشعار التي يوردها المؤرخون في مؤلفاتهم بأنّها "حلية" يزركشون بها أخبارهم، ويمتعون بها قراءهم (انظر، الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم ، ص٣١٢).

(٤) انظر، مثلًا، الأصفهاني، أبو الفرج(٣٥٦هـ)، **الأغاني**، ط٣، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨، ج١١: ص٨، ١١-١٢،٢٢؛ العشماوي، محمد زكي، **النابغة الذبياني**،

حين توصلت من خلال مناقشة علمية إلى أن أبا قابوس كان ملكًا غسانيًا اسمه الحارث الأصغر ابن أبي شمر، وأن النعمان، ممدوح النابغة، كان ابنًا لـ"أبي قابوس" هذا، ولم يكن هو صاحب اللقب(١). وقد انطلق الراميني في نسف هذا الاعتقاد من شعر للفرزدق يشتمل على معلومات تثير شكًّا حول هوية "أبي قابوس" المتعارف عليها. ففي إحدى نقائضه مع جرير، يفتخر الفرزدق بأنّ قومه، بني دارم، كانوا يحتفظون بـ"ثياب الملك أبي قابوس"، الذي، من جانبه، أَورَثها لابن له من بعده، ومن ثَمَّ خلعها ابنه على سادة من " آل دارم"، حيث يقول الفرزدق(٢):

وإنّ ثِيابَ المُلْكِ في آلِ دارِمٍ هُمُ وَرِثوها لا كُلَيبُ النَواهِقِ
ثِيابُ أَبي قابوسَ أَورَثَها ابْنَهُ وَأَورَثَناها عَن مُلوكِ المَشارِقِ
وَإنّا لَتَجري الخَمرُ بَينَ سَراتِنا وَبَينَ أَبي قابوسَ فَوقَ النَمارِقِ

إلى أن يقول:

وإنّ ثِيابي مِن ثِيابِ مُحَرِّقٍ وَلَم أَستَعِرها مِن مُعاعٍ وَناعِقِ

فمن الواضح أنّ الفرزدق يعرف شيئًا عن "أبي قابوس" يختلف كثيرًا عمّا يعرفه الأخباريون والرواة الذين جاءوا من بعده، فالفرزدق يخبرنا أنّ "أبا قابوس" أورث ثيابًا لابن له حكم من بعده، أي أنّه أعقب ملكًا، ولكن وبالنظر إلى مصادر سريانية وأخرى عربية(٣) فإنّ "النعمان بن المنذر اللخميّ لم يعقّب ملوكًا، وأنّ مملكة الحيرة سقطت بموته"(٤)، وهذا يعني، بالضرورة، أنّ الملك

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤، ص٧٤؛ الشطيّ، عبد الفتاح عبد المحسن، **شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص١٨٩.

(١) الراميني، عرسان حسين، "أبو قابوس في الشعر القديم،" **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، مجلد٨، عدد٤، ٢٠١٢، ص٣٢٩-٣٦٨.

(٢) أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيميّ البصريّ(٢٠٩هـ)، **نقائض جرير والفرزدق**، وضع الحواشي خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ج٢: ص١٧٣.

(٣) انظر: علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط٤، بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١، ج٥: ص٢٠٢؛ شيخو، لويس، **النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهلية**، ط٢، بيروت: دار المشرق، ١٩٨٩، ج١: ٧٣.

(٤) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٢٩.

الذي يتحدث عنه الفرزدق ليس هو النعمان بن المنذر اللخميّ، وإنّما هو ملك آخر ليس له أدنى صلة، لا من قريب ولا من بعيد، بالحيرة وملوكها من آل نصر.

ثم يجري الراميني مناقشة مستفيضة يثبت من خلالها هذا الذي فهمه من شعر الفرزدق. وقد وظّف في مناقشته مصادر تاريخية وجغرافية ومواد قديمة، من نقوش وكتابات سريانية. في الواقع، إنّ هذه النتيجة في حين جعلت الباب مفتوحًا لإعادة النظر في قراءة شعر النابغة الذبيانيّ، خاصة المتعلّق منه بـ"أبي قابوس" و"النعمان"، فإنها تقتصر دراسة الارتباطات السياسية لشعر النابغة على علاقته بملوك الغساسنة، أي دون تناول علاقته باللخميين، إلى جانب دراسة الجانب القبلي في شعره.

أمّا فيما يتعلق بحضور النابغة في المصادر، فقد شغلت أخباره حيّزًا لا يستهان به في كتب الرواة والأخباريين القديمة، مثل كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي(٢٣١هـ)، وكتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة(٢٧٦هـ)، وكتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني(ت٣٦٥هـ)، وغيرها من كتب الأدب والأخبار والتاريخ برواياتها المختلفة، وهي كتب لم تسلم من الخلط والاضطراب، فيما يتصل بحياة النابغة وعلاقاته مع ملوك الحيرة، وملوك غسان.

وفي العصر الحديث اتجهت أغلب الدراسات التي تناولت النابغة الذبيانيّ نحو الحديث عن حياته وشخصيته وشعره، من منظور إنسانيّ وفنيّ من هذه الدراسات دراسة لعمر الدسوقي بعنوان "النابغة الذبياني"، تناول فيها الباحث بيئته الصحراوية وأثرها في شعره، وقبيلته، ذبيان، وحروبها وأيامها، وغاراتها على الغساسنة، ثمّ ينتقل للحديث عن شعر النابغة، وعن رواة ديوانه، ثم الحديث عن حياته، وأهم موضوعات شعره: الاعتذاريات؛ الوصف؛ المدح؛ والرثاء.

وهناك دراسة بعنوان "النابغة الذبياني" لمحمد زكي العشماوي، برزت فيها الجوانب الشخصية والفنية للنابغة، إلى جانب نشاطه الإنساني في مجتمعه؛ إذ إنّه كان سفيرًا لقبيلته لدى اللخميين والغساسنة، مستشفعًا لها تارة، ومحاولًا درء ويلات الحرب عنها تارة أخرى.

ومنها، أيضًا، دراسة لإيليا سليم الحاوي بعنوان "النابغة: سياسته وفنه ونفسيته"، تناول فيها الباحث سياسة النابغة في التعامل مع الحيرة وغسان، ثمّ أورد نماذج من شعره؛ مبرزًا فيها الجانب الفني، من ثَمّ تناول الجانب النفسي في شعره، من خلال الحديث عن عودته إلى النعمان بن المنذر.

ومن هذه الدراسات دراسة لمحمد حمّود بعنوان "النابغة الذبياني"، تناول فيها الباحث مختلف القضايا المتعلقة بالنابغة ونتاجه، فيما يخص شخصيته، وصلته بالنعمان بن المنذر وبحكام الغساسنة، و"أغراض" شعره و"خصائصه العامة"، مذيلًا دراسته بمختارات من شعره، تخدم ما ذهب إليه الباحث من نتائج خلصت إليها دراسته.

وهناك دراسات فسرت علاقة النابغة بكل من اللخميين والغساسنة على أنها علاقة يحكمها الخوف والمدح والاعتذار، فنظرت إلى شعر النابغة من زاوية نفسية، ومن هذه الدراسات: "النابغة الذبياني: شاعر المدح والاعتذار" لعلي نجيب عطوي، وقف فيها الباحث على أصول النابغة، واتصاله بالمناذرة والغساسنة من خلال الحديث عن مدحه لكلا الطرفين، وعن أسباب غضب النعمان بن المنذر منه، وعن أسباب عودة النابغة إلى النعمان بما تحمله من معاني الخوف والرهبة والقلق والتهديد. كما وقف الباحث على شعر النابغة من منظور نقدي، متناولًا أهم الآراء النقدية التي قيلت فيه قديمًا، ولافتًا النظر إلى العناصر الفنية في شعره من خلال دراسة تحليلية لهذه العناصر.

ومن هذه الدراسات، أيضًا، دراسة بعنوان 'قراءة جديدة في شعر النابغة الذبياني" لفوزي محمد أمين، تناول الباحث فيها علاقة النابغة الذبياني مع المناذرة والغساسنة ، من خلال الأحلاف التي عقدتها قبيلته الدنيا "مرة" مع "قضاعة" حليفة غسان في شمال الجزيرة العربية، وعلى الرغم من تحديد الباحث لبعض مراحل شعر النابغة زمنيًّا إلا إنّ الطابع الوجداني الفنيّ غلب على دراسته، فيما يخص طبيعة العلاقة بين النابغة وبني سعد حلفاء ذبيان، وطبيعة علاقته مع النعمان ابن المنذر التي لم تتعد، في نظر الباحث، حدود الاعتذار.

ومنها دراسة بعنوان "صور الخوف في اعتذاريات النابغة الذبياني" لسلامة عبد الله السويدي، كشف فيها الباحث عن البواعث النفسية التي تغلف شعره، خاصة في اعتذارياته، فأخذ الباحث يستجلي صور الخوف عند النابغة كما تمثلت في اعتذارياته، على اعتبار أن الخوف ظهر عند النابغة في صور مختلفة، كما ركز الباحث على عناصر الموقف الاعتذاري داخل قصائد النابغة.

وبالنظر إلى هذه الدراسات، على أهميتها، فأنها ركزت على الجوانب الشخصية للنابغة الذبياني، كما نظرت إلى شعره من زوايا فنية نقدية، وأخرى نفسية، مهملة الأحداث التاريخية التي حددت الارتباطات والخلافات القبلية الداخلية، وما يتبعها من ولاء سياسيّ خارجيّ رسم الخريطة الزمنية في شعر النابغة .

ومن الدراسات التي تناولت النابغة الذبياني دراسة لعرسان الراميني بعنوان "النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة"، وقف فيها الباحث على أسباب الخلاف بين النابغة والنعمان بن المنذر، رادًّا إيّاها إلى منطلقات سياسية. ورأى الباحث، أيضًا، أنّ معظم قصائد النابغة في الغساسنة كانت بعد عهد النعمان بن المنذر، وأنّ هذه القصائد تنمّ عن علاقة متوترة بين الطرفين لا عن علاقة وثيقة، خلافاً لما يُعتقد. وهذه النتائج التي انتهى إليها الباحث تحتاج إلى إعادة تقييم، لكنّها، عمومًا، تساعد على تحديد الإطار الزمني لشعر النابغة.

وبالعودة إلى الغرض من الدراسة الحالية، وهو ترتيب قصائد النابغة الذبياني زمنيًا، فهذا يعني أساسًا مناقشة ما اشتملت عليه من إشارات تاريخية، بالاعتماد على مواد ذات مصداقية، على رأسها الشعر الجاهلي، ممثلًا بما ورد في دواوين كل من: النابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى ، وبشر بن أبي خازم، والأعشى ميمون بن قيس، وغيرهم من الشعراء الجاهليين. ولذلك، سيتم مراقبة هذه الإشارات في كتب التاريخ والأدب على اختلاف رواياتها، والتعامل معها بحذر وحرص شديدين، فأغلب هذه الروايات وضعت على أساس تخيلي لأيام العرب ومغازيهم كما تصورها الرواة أنفسهم. وعلى الرغم من توخي الحذر أثناء التعامل مع كل الروايات ذات الصلة بموضوع الدراسة إلا أن ذلك لا يمنع من استثمار الاختلاف بينها فيما يخدم البحث، وهذا يصدق على شعر النابغة نفسه؛ فما من شكّ أنّ هناك أبياتًا بل قصائد مشكوكًا في صحة نسبتها إليه، لكن ذلك لا يمنع من التعامل معها، إذ إنها تشتمل على الأحداث التاريخية ذاتها التي تناولها النابغة في شعره، وعاصرها. وهذا يتطلب، أيضًا، إهمال روايات الأخباريين والرواة وشرّاح الشعر، إلا التي تستند على دليل قويّ من الأشعار والنقوش والكتابات القديمة، وإجراء مناقشات لا تعبأ بمقولات القدماء والمحدثين، على حدّ سواء، التي اعتبرت من المسلّمات.

أما نشرة الديوان التي سيتم اعتمادها، هنا، فهي النشرة التي حققها محمد أبو الفضل إبراهيم، لأنها من أكثر نشرات الديوان تنظيمًا وترتيبًا، فضلًا عن احتوائه على أغلب ما أنشده النابغة من شعر، تناثر بين طيّات المصنفات القديمة، على اختلاف أنواعها، وهذا لا يعني إهمال النشرات الأخرى للديوان، حرصًا على ما قد يسقط من رواية ويثبت في أخرى.

الفصل الأول.

الشعر السياسيّ (الاتصال بالغساسنة).

لقد كان لجوء النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، في بني عذرة بن سعد، في أعالي الحجاز[١]، يعني دخولهم في ولاء الغساسنة بعد أن كانوا موالين للحيرة، وذلك بعد أن ساءت علاقتهم بقيادة القبيلة الأم (ذبيان)، في أعقاب خرقهم لوثيقة الصلح المبرم بين ذبيان وعبس، لإنهاء الصراع الدائر بين الطرفين. ونقطة التحوّل هذه في الولاء تعني، بالضرورة، إعادة التفكير بالاتصال بملوك الشّام بطريقة تختلف عمّا سبقها من اتصالات؛ لضمان المحافظة على كيان قوم النابغة، من أيّ اعتداء محتمل من قبل الغساسنة، وهي، في الوقت نفسه، تعني المحافظة على التحالف القائم بين أسد وذبيان(غطفان) من أيّ يدٍ معتدية أو طامعة[٢]، وخصوصًا أنّ هؤلاء كانوا في مهبّ غزوات الغساسنة التي يقومون بها في نجد أو شرقيّ الجزيرة؛ لتأديب من يتمرّد عليهم من قبائل هذه المناطق، ولإسكات أيّ صوت يحاول الوقوف في وجه أطماعهم في الجزيرة، وعلى وجه التحديد في الفترة التي بدأت فيها أركان مملكة الحيرة بالانهيار؛ فقد كانت القبائل العربيّة مكشوفة أمام المدّ الغسانيّ، في غياب المرجعيّة السياسيّة المتمثّلة بالحيرة، التي كان لها اليد الطولى في حلّ نزّاعاتهم، والمحافظة على تحالفاتهم، وتثبيت سلطة زعمائهم.

الآن، وقد وجد النابغة قومه في مرمى الأهداف التوسعيّة للغساسنة في المنطقة، سعى الشاعر جاهدًا للاتصال بملوكهم تخفيفًا من وطأة غزواتهم على قومه وحلفهم الوثيق مع بني أسد، وعليه، يعتبر شعر النابغة في الغساسنة تعبيرًا عن حالة سياسيّة صرفة. في الواقع، لا نجد أيّ

---

(١) الراميني، عرسان حسين، "النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة،" **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**(جامعة الكويت)، عدد٨٥، ٢٠٠٤، ص١٣٥.

(٢) العشماوي، **النابغة الذبياني** ، ص٣٣.

اتصال للنابغة بالغساسنة من داخل ديوانه أو من خارجه إلا في هذه الفترة، التي حكم فيها الحارث الأصغر ابن أبي شمر وولداه النعمان وعمرو، وهي تكاد تكون محصورة، كما يشر نولدكه[١]، ما يبن أوائل العقد التاسع من القرن السادس الميلاديّ وأواسط العقد الثاني من القرن السابع الميلاديّ(٥٨٣م-٦١٤م).

إزاء ذلك يتضمّن هذا الفصل محاولة للوقوف على جميع القصائد التي أنشدها النابغة في الغساسنة، بدءًا من قصائده في الحارث الأصغر بن أبي شمر، وانتهاء بقصائده في عمرو بن الحارث الغسانيّ، وبالطبع ستكون قصائده في النعمان بن الجُلاح الكلبيّ ضمن دائرة هذه الدراسة، بوصفه قائدًا عسكريًا للبلاط الغسانيّ، وكذلك الكشف عن حقيقة العلاقة التي كانت تربط النابغة بهؤلاء، كما تسطرها أشعار النابغة نفسه.

أولًا: الحارث الأصغر بن أبي شمر.

إذا كان "أبو قابوس" ممدوح النابغة الذي ظهر في شعره ملكًا غسانيًّا، هو نفسه الحارث الأصغر بن أبي شمر الغسانيّ، خلافًا لما كان ماثلًا في أذهان الرّواة والأخباريين وأكثر الدّارسين المعاصرين، فهذا يعني أنّ الحارث الأصغر بن أبي شمر ظهر في ثماني قصائد للنابغة، هي القصائد ذوات الأرقام: ١؛ ٢؛ ٨؛ ١٨؛ ٣٢؛ ٣٤؛ ٣٧؛ ٥٧.

أمّا القصيدة الأولى، وهي المعلقة، فإنّ النابغة يتوجّه في المقطع الأخير منها بالاعتذار إلى من يدعوه "أبا قابوس"، بعد أن بلغه تهديد هذا الأخير له، حتى أنّه أصبح يعيش في حالة نفسية غير مستقرة؛ إذ إنّ هيبة الملك في نفسه لا تجعله يطمئن ويهدأ[٢]:

أُنبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابوسَ أَوْعَدَني ... ولا قَرارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

---

(١) نولدكه، ثيودور، **أمراء غسان**، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق، بيروت: المطبعة الكاثولوكية، ١٩٣٣ص٧٥.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١: ٤١-٤٣.

مَهـــلًا فِـــدَاءً لَــكَ الأَقْـــوَامُ كُلُّهُـــمُ   وَمـــا أُثَمِّـــرُ مِـــنْ مَـــالٍ وَمِـــنْ وَلَـــدِ
لَا تَقْـــذِفَنِّي بِـــرُكْنٍ لَا كِفَـــاءَ لَـــهُ   وَإِنْ تَأَثَّفَـــكَ الأَعْـــدَاءُ بِالرِفَـــدِ

إلى قوله[1]:

هَـذا الثَّنَـاءُ فَـإِنْ تَـسْمَعْ بِـهِ حَـسَنًا   فَلَـمْ أُعَـرِّضْ، أَبَيـتَ اللَّعْـنَ، بِالـصَّفَدِ
هـــا إِنَّ ذي عِـــذْرَةٌ إِلّا تَكُـــنْ نَفَعَـــتْ   فَـــإِنَّ صَـــاحِبَها مُـــشارِكُ النَّكَـــدِ

من الواضح أنّ تقدير الشاعر واحترامه للملك ينبعان أساسًا من هيّبة استقرت في نفسه لهذا الملك، ولهذا نجده يطلب إلى الملك ألا يركن إلى أقوال مَن يحاول الوشاية به عنده، فمدحه إيّاه ليس تعرّضًا لمعروفه، وإنّما اعتذار إليه وإقرار بفضله. وبغض النظر عمّا أثاره الراميني[2] من شكوك حول صلة هذا المقطع بما سبقه من أبيات، فهو يرى أنّ هذا المقطع من القصيدةِ إنّما أُقحم فيها إقحامًا؛ لعدم استقامتِهِ منطقيًا مع الأبيات السّابقة للقصيدةِ نفسها، فأنّ هذا الشّعرَ يفصحُ عن أنّ هناكَ سببًا قويًّا وراءَ وعيدِ "أبي قابوس" للشاعرِ، وأنّ هذا الوعيد ما كان ليصدرَ عن الملك إلا لعظمِ ما اقترفَهُ الشاعرُ من ذنبٍ في حقِّه، وإن كان النابغةُ يشيرُ إلى أنّ ما بلغَ الملك ما هو، في الحقيقة، إلا أقوال من صنيعِ الوشاة الذين يحاولون الإيقاعَ به عند الملك. والحقّ أنّ أمرَ هذه الوشايةِ ظلَّ الشاغل الوحيد الذي يؤرّق النابغةَ، ويفضُّ مضجعَهُ[3]:

وَقَـــدْ حَـــالَ هَـــمٌّ دُونَ ذَلِـــكَ شـــاغِلٌ   مَكَـــانَ الـــشِّغافِ تَبتَغيـــهِ الأَصـــابِعُ
وَعيـــدُ أَبـــي قـــابوسَ فـــي غَيـــرِ كُنهِـــهِ   أَتَـــاني وَدُونِـــي رَاكِـــسٌ فَالـــضَّواجِعُ
فَبِـــتُّ كَـــأَنّي سَـــاوَرَتني ضَـــئيلَةٌ   مِـــنَ الـــرُّقشِ فـــي أَنيابِهـــا الـــسُّمُّ نـــاقِعُ

---

(١) السابق، ق١: ٤٨-٤٩.

(٢) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٤٩-٣٥٠، وإن كان فوزي أمين يرى غير ذلك (أمين، فوزي محمد، **قراءة جديدة في شعر النابغة الذبياني**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص٥١-٥٢).

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢: ٩-١١.

وإن كان النابغة يشير إلى هويّة من وشى به عند الملك، وهم جماعة كما يسمّيهم "أقارع عوف"، وإلى أنّ أقوالَهُم كلَّها باطلةٌ مزعومةٌ لا أساسَ لصحتِها، لكنّه، في الوقتِ نفسِهِ، لم يفصحْ عن حقيقةِ هذه الخيانةِ، ولا عن طبيعةِ هذه الأقوال المفتراةِ على لسانِهِ[١]:

أَتـــاني أَبَيــتَ اللَعــنَ أَنَّــكَ لُمتَنــي — وَتِلـكَ الَّتـي تَـستَكُّ مِنهـا المَـسامِعُ
مَقالَــةُ أَن قَــد قُلــتَ سَــوفَ أَنالُــهُ — وَذَلِــكَ مِــن تِلقــاءِ مِثلِــكَ رائِــعُ
لَعَمــري وَمــا عَمْــري عَلَــيَّ بِهَــيِّنٍ — لَقَــد نَطَقَــتْ بُطــلًا عَلَــيَّ الأَقــارِعُ
أَقــارِعُ عَــوفٍ لا أُحــاوِلُ غَيرَهــا — وُجــوهُ قُــرودٍ تَبتَغــي مَــن تُجــادِعُ
أَتــاكَ اِمــرُؤٌ مُــستَبطِنٌ لِــيَ بِغــضَةً — لَــهُ مِــن عَــدوٍّ مِثــلَ ذَلِــكَ شــافِعُ
أَتــاكَ بِقَــولٍ هَلهَــلِ النَــسجِ كــاذِبٍ — وَلَــم يَــأتِ بِــالحَقِّ الَّــذي هُــوَ ناصِــعُ
أَتــاكَ بِقَــولٍ لَــم أَكُــن لِأَقولَــهُ — وَلَــو كُبِلَــت فــي ســاعِدَيَّ الجَوامِــعُ

و"أقارع عوف" الذين يذكرهم النابغة، على أنهم دبّروا المكيدة له عند "أبي قابوس"، هم، كما يذكر الشرّاح، بنو قريع بن عوف بن سعد التميميون، وهؤلاء كانوا على اتصال بالغساسنة وموالين لهم، وقد كان لسادتهم مكانة مرموقة في بلاطهم، لا سيّما في عهد الحارث بن أبي شمر وابنه النعمان[٢]. ومن ثَمّ نجد الشاعر يلجأ إلى الحلف، بعد أنّ بيّن للملك هويّة من كان سببًا في المكيدة التي حِيكت ضدّه، حتى لا يترك أيّة ريبة لديه في صدق ولائه له[٣]:

حَلَفــتُ فَلَــم أَتــرُك لِنَفــسِكَ ريبَــةً — وَهَــل يَــأثَمَنْ ذو أُمَّــةٍ وَهــوَ طــائِعُ

---

(١) السابق، ق٢: ١٤-٢٠.

(٢) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٤٩، وهذا، على الأقل، ما يُفهم من شعر للمخبّل السّعديّ:

وَإِذ فَتَــكَ النُّعمــانُ بِالنّــاسِ مُحرِمًــا — فَمُلِّــئَ مِــن عَــوفِ بــنِ كَعــبٍ سَلاسِــلُه
فَكَكنــا حَديــدَ الغِــلِّ عَــنهُم فَــسُرِّحوا — جَميعًــا وَأَحظــى النَّــاسِ بَــالخَيرِ فاعِلُــه
وَقُلنــا لَــهُ لا تَــنسَ صِــهرَكَ عِنــدَنا — وَلا تَــنسَ مِــن أَخلاقِنــا مــا نُجامِلُــه
فَمــا عَيَّرَتنــا بَعــدُ مِــن ســوءِ جَرعَــةٍ — وَلا شــيمَةٍ مــا بَــوَّأَ الخَلــقَ حابِلُــه

(ابن المبارك، محمد بن ميمون(٥٩٧هـ)، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، تحقيق محمد نبيل طريفي، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩. ق٤٨: ٢٦- ٢٩).

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢: ٢١، ٢٥-٢٦، ٢٨-٣٣.

لَكَلَّفتَنــي ذَنــبَ امــرِئٍ وَتَرَكتَــهُ | كَــذي العُــرِّ يُكــوى غَيــرُهُ وَهــوَ راتِــعُ
فَــإِن كُنــتُ لا ذو الــضِغنِ عَنّــي مُكَــذَّبٌ | وَلا حَلِفــي عَلــى البَــراءَةِ نــافِعُ
فَإِنَّــكَ كَاللَيــلِ الَّــذي هُــوَ مُــدرِكي | وَإِن خِلــتُ أَنَّ المُنتَــأى عَنــكَ واسِــعُ
خَطــاطيفُ حُجــنٌ فــي حِبــالٍ مَتينَــةٍ | تَمُــدُّ بِهــا أَيــدٍ إِلَيــكَ نَــوازِعُ
أَتوعِــدُ عَبــدًا لَــم يَخُنــكَ أَمانَــةً | وَتَتــرُكُ عَبــدًا ظالِمًــا وَهــوَ ظَــالِعُ
وَأَنــتَ رَبيــعٌ يُــنعِشُ النّــاسَ سَــيبُهُ | وَسَــيفٌ أُعيرَتــهُ المَنِيَّــةُ قــاطِعُ
أَبــى اللهُ إِلّا عَدلَــهُ وَوَفــاءَهُ | فَــلا النُّكــرُ مَعــروفٌ وَلا العُــرفُ ضَــائِعُ
وَتُــسْقَى إِذا مَــا شِــئتَ غَيــرَ مُــصَرَّدٍ | بِــزَوراءَ فــي حافاتِهــا المِــسكُ كــانِعُ

والظاهر أنّ اعتذار النابغة إلى"أبي قابوس" في هذه القصيدة يشبه اعتذاره إليه في القصيدة السابقة(١)، لكنّه، كما نرى، يأخذ مساحة أكبر من سابقه، وهذا يعني، بالضرورة، أنّ الأمر ليس بهيّن من وجهة نظر الشاعر، وأنّ وشاية "أقارع عوف" كان لها الأثر البالغ في نفس الشاعر؛ حتى يمعن في اعتذاره للملك؛ ليعفو عنه، أو على الأقل، لا يصدّق ما وصل إلى مسامعه كذبًا على لسان النابغة.

واعتذار النابغة إلى الملك الغسانيّ لم ينته عند هذا الحدّ، ففي موطن آخر (ق٨) يؤكّد أنّه يعيش حالة من التّعب والنّصب لمّا بلغه نبأ استياء الملك منه ولومه له، بسبب ما وصله من أقوال كاذبة، تُشكك في إخلاص الشاعر للملك، وهو، في الوقت نفسه، يشير إلى أنّه حلف له الأيمان التي لا تترك في نفس الملك مجالًا للشّك في أمره، ومؤكّدًا كذب الواشي وخيانته(٢):

أَتــاني أَبَيــتَ اللَّعــنَ أَنَّــكَ لُمتَنــي | وَتِلــكَ الَّتــي أُهــتَمُّ مِنهــا وَأَنــصَبُ
فَبِــتُّ كَــأَنَّ العائِــداتِ فَرَشــنَني | هَراسًــا بِــهِ يُعلــى فِراشــي وَيُقــشَبُ
حَلَفــتُ فَلَــم أَتــرُك لِنَفــسِكَ رِيبَــةً | وَلَــيسَ وَراءَ اللهِ لِلمَــرءِ مَــذهَبُ
لَــئِن كُنــتَ قَــد بُلِّغــتَ عَنّــي خِيانَــةً | لَمُبلِغُــكَ الواشــي أَغَــشُّ وَأَكــذَبُ

---

(١) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٤٨-٣٥٠.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٨: ١-٤.

ويؤكّد للملك أنّه ما كان ليأتي أمرًا يريبه، ويشكّك في ولائه بعدما وجد عنده سعة الحال والتّمكين، وهذا وحده مسوغ قويّ؛ لينأى بنفسه عن خيانة الملك، فهو بريء من كلّ ما نسب إليه(١):

وَلَكِنَّني كُنتُ اِمرَءًا لِيَ جانِبٌ ... مِنَ الأَرضِ فيهِ مُستَرادٌ وَمَذهَبُ
مُلوكٌ وَإِخوانٌ إِذا ما أَتَيتُهُم ... أُحَكَّمُ في أَموالِهِم وَأُقَرَّبُ
كَفِعلِكَ في قَومٍ أَراكَ اِصطَنَعتَهُم ... فَلَم تَرَهُم في شُكرِ ذَلِكَ أَذنَبوا
فَلا تَترُكَنّي بِالوَعيدِ كَأَنَّني ... إِلى النَّاسِ مَطلِيٌّ بِهِ القارُ أَجرَبُ
أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ أَعطاكَ سورَةً ... تَرى كُلَّ مَلكٍ دونَها يَتَذَبذَبُ
فَإِنَّكَ شَمسٌ وَالمُلوكُ كَواكِبٌ ... إِذا طَلَعَت لَم يَبدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ
وَلَستَ بِمُستَبقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ ... عَلى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ
فَإِن أَكُ مَظلومًا فَعَبدٌ ظَلَمتَهُ ... وَإِن تَكُ ذا عُتبى فَمِثلُكَ يُعتِبُ

من الواضح أنّ الحالة النفسية للنابغة، في اعتذارياته لـ"أبي قابوس"، تكشف عن شعوره بالخوف والهلع، فالظاهر أنّ "أبا قابوس" صدّق ما جاءه عن النابغة؛ ولهذا أخذ يتوعّده ويتهدده، وهذا ما قد يبرر اضطرار الشاعر لدفع التّهم عن نفسه بحلف الأيمان.

في الواقع، تحتفظ المصادر(٢) وحدها برواية، وإن كان يغلب عليها الطابع القصصيّ؛ سعيًا من أصحابها إلى إثارة السامعين وإمتاعهم، إلى جانب محاولتهم العثور على مبرر يفسّرون به، على ما يبدو، سبب غضب "أبي قابوس" على النابغة، ونعرف من هذه الرواية أنّ مرّة بن ربيعة ابن قريع بن عوف السّعديّ كان قد اتّفق مع عبد القيس بن خفاف البرجميّ التّميميّ؛ على أن

(١) السابق، ق٨: ٥-١٢.

(٢) انظر، مثلًا: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري(٢٧٦هـ)، **الشعر والشعراء**، ط٢، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨، ج١: ص١٦٥؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١١.

ينظم هذا الأخير شعرًا يهجو به النعمان بن المنذر اللخميّ[١]، وينشده على لسان النابغة، فيثير بذلك حفيظة الملك، ويوغر صدره على النابغة.

ويأخذ فوزي أمين[٢] بهذه الرواية، معتبرًا إيّاها سببًا وراء اعتذار النابغة إلى "أبي قابوس"، لكنّ هذه الرواية تبقى بلا سند قويّ، فليس في شعر النابغة، على الأقل، ما يعزّزها، فضلًا عن أنّ بعض الأشعار التي فيها تنسب إلى المتلمس الضبعيّ في هجاء عمرو بن الحارث الغسانيّ[٣]. وحتى تكتمل عناصر القصة من جانب الأخباريين والرواة، تروي المصادر[٤] أنّ صنيع مرّة بن ربيعة القريعيّ من أمر هذا الهجاء كان بسبب "سيف له يقال له "ذو الرِّيقة" من كثرةِ فِرِنده وجوهره، ذكره النابغة للنعمان فأخذه، فأضغن ذلك القريعيّ، حتى وشى به إلى النعمان وحرّضه عليه"، في الواقع، تبقى هذه القصص محل شكّ كبير؛ فهي تفتقر إلى أدنى سند في شعر النابغة نفسه أو في شعر أيّ شاعر جاهليّ آخر.

ولكن بالعودة إلى ديوان النابغة قد نجد في القصيدة السابعة والثلاثين سببًا مقنعًا إلى حدّ كبير لذلك الاعتذار الموجّه من النابغة إلى"أبي قابوس"؛ فالقصيدة تنطوي على تحدٍ للملك ، وذلك على غير عادته في قصائده الأخرى الموجّهة إليه، فالنابغة يخاطبه ملوّحًا له بعزّة قومه، فهم قوم

---

(١) على اعتبار أنّ النعمان بن المنذر هو نفسه "أبو قابوس" كما يعتقد الرواة والدارسون المعاصرون، وحتى عرسان الراميني كان يرى ذلك (انظر، الراميني، النابغة الذبياني، ص١٢٦-١٢٧، لكنه استدرك عليه في بحثه الموسوم بـ"أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٤٤-٣٤٩.

(٢) أمين، **قراءة جديدة في شعر النابغة الذبياني**، ص٣١.

(٣) انظر، مثلاً: ابن السيد البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد (٥٢١هـ)، **كتاب شرح أبيات الجمل**، تحقيق عبد الله الناصير، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٠، ص٦٠؛ البغدادي، عبد القادر بن عمر(١٠٩٣هـ)، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، ط٤، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٧،ج٦: ص٣٥١.

(٤) انظر، مثلًا، الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١١.

يرفضون الظلم ، ويندفعون إلى القتال لاستهانتهم بالموت، فهم متمرّسون بالانتصار، كما أنهم يتفضلون بأموالهم على الناس في أوقات الشدائد[١]:

أَبْلِغْ لَدَيْكَ أَبا قابُوسَ مَأْلَكَةً — الواهِبَ الخَيْلَ والقَيْنَاتِ والنّعَما
نلْوي الرُّؤوسَ إِذا رِيمَت ظُلامتُنا — ونَمنَحُ المَالَ في الإمْحالِ والغنَما
ونُلْبِسُ الدَّهمَ ذا الماذيِّ ضاحيَةً — بالدُّهم ثمَّت نَغْشى الموتَ والقَتَما
ونَقْتُلُ الكَبشَ بعْدَ الكبشِ نَأْسِرُهُ — قِدمًا ونضْربُ في حَوْمَاتِهَا قُدُما

من الواضح أنّ علاقة النابغة بالملك الغسانيّ لم تكن على أية حال قائمة على الودّ، على الأقل، في الفترة التي أعقبت ترك النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، منازلهم في ذبيان، في إثر الخلافات التي دبّت في أوساطها عقب رفض حصين بن ضمضم معاهدة الصلح بين طرفي النزاع في حرب داحس والغبراء، عبس وذبيان، في الواقع، لم يرق للكثير من أحياء ذبيان التحاق أبناء عمومتهم المرّيين ببني عذرة بن سعد في أعالي الحجاز[٢]، حيث يتمتع الغساسنة بنفوذ كبير هناك.

وعلى ما يبدو إنّ النابغة كان يجد نفسه مضطرًا لمدح الملك الغسانيّ من وقت إلى آخر، ليجد لنفسه ولقومه متنفسًا من اعتداءات الغساسنة المتكررة عليهم[٣]:

وَاللهِ وَاللهِ لِنعمَ الفتَى الـ — أَعْرجُ لا النِّكْسُ وَلا الخَامِلُ
الحَارِبُ الوَافِرُ وَالجَابِرُ الـ — مَحْرُوبُ وَالمُرْجِلُ وَالحَامِلُ
والطَاعِنُ الطَعْنَةَ يَومَ الوَغَى — يَنْهَلُ مِنْهَا الأَسَلُ النَّاهِلُ
والقَائِلُ القَولَ الذِي مِثْلُهُ — يَنْبُتُ مِنْهُ الزَّمَنُ المَاحِلُ
والغَافِرُ الذَّنْبَ لِأَهْلِ الحِجَى — والقَاطِعُ الأَقْرَانَ وَالوَاصِلُ

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٧: ١-٤.
(٢) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٦-١٤٢.
(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٤: ١-٥.

و"الفتى الأعرج" الذي يتوجّه النابغة بالمديح إليه هو، من غير شكّ، الحارث الأعرج، وهو نفسه، كما يبدو، الحارث الأصغر بن أبي شمر الغسانيّ، وهذا ما رجّحه نولدكه(١)، مستدلًا على ذلك بشعر للنابغة نفسه(٢):

هَـــذا غُـــلامٌ حَـــسَنٌ وَجهَـــهُ مُـــستَقبِلُ الخَيـــرِ سَـــريعُ التَمـــام
لِلحـــارِثِ الأَكبَـــرِ وَالحـــارِثِ الـــ أَعْـــرَجِ وَالحَـــارِثِ خَيـــرِ الأَنـــام
ثُـــمَّ لِهِنـــدٍ وَلِهِنـــدٍ وَقَـــد أَســـرَعَ فـــي الخَيـــراتِ مِنـــهُ إِمـــام
سِـــتَّةُ آبـــائِهِمُ مـــا هُـــمُ هُـم خَيـرُ مَـن يَـشرَبُ صَـوبَ الغَمـام

وهو نفسه الذي يظهر، أيضًا، في شعر لعبيد بن الأبرص، حين يفتخر هذا الأخير بانتصار قومه، بني سعد بن ثعلبة (من بني أسد)، على من يسمّيه "الحارث الأعرج"(٣):

نَحـنُ قُـدنا مِـن أَهاضِـيبِ المَـلا الـ خَيـلَ فـي الأَرسـانِ أَمثـالَ الـسَّعالي
شُـــزَّبًا يَغـــشَينَ مِـــن مَجهُولَـــةِ الـــ أَرضِ وَعثًـــا مِـــن سُـــهولٍ وَجِبـــالِ
فَانتَجَعنـــا الحـــارِثَ الأَعـــرَجَ فـــي جَحفَـــلٍ كَاللَّيـــلِ خَطّـــارِ العَـــوالي

وعلى ما يبدو فإنّ هذا الانتصار كان 'يوم الفرات"؛ فعبيد بن الأبرص يشير، في البيت الأخير، إلى قتل قومه لمن يسميه "عَديًّا"، وعَديّ هذا، كما تذكر المصادر(٤)، هو ابن أخت للحارث بن أبي شمر الغسانيّ، وقد لقي حتفه، في هذا اليوم، على يدي عمرو وعمير أخوَي ربيعة بن حذار الأسديّ، سيد بني سعد آنذاك. وبالنظر إلى هويّة الحارث الأعرج الغسانية في شعر النابغة السابق، فضلًا عن انتماء النابغة وعبيد إلى حلف أسد وغطفان، وارتباط هذا الحلف بالحيرة

---

(١) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٣٧-٣٨.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٣: ١-٤.

(٣) عبيد بن الأبرص، **الديوان**، شرح أشرف أحمد عدرة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤، ق٣٦: ٦-٨.

(٤) انظر، مثلًا: ابن حبيب، أبو جعفر محمد البغدادي(٢٤٥هـ)، **المحبر**، اعتناء إيلزه ليختين شتيتر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، د.ت، ج١: ص٢٤٧؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١٣٨.

سياسيًا[1]، فإنّه بات من المؤكد أنّ "الحارث الأعرج" في شعر عبيد بن الأبرص هو ملك غسانيّ أيضًا، وليس كما زعم محقق ديوانه أنّه جدّ امرئ القيس[2]، وهذا يعني أنّ عبيد بن الأبرص يشير إلى حدث قريب من زمن البعثة النبويّة، فقد ثبت مؤخرًا أنّ عبيد بن الأبرص ينتمي إلى جيل ما قبل البعثة النبويّة[3]، ويشير ابن الأثير[4]، من جانبه، نقلًا عن أبي عبيدة، إلى أنّ يوم الفرات كان قبيل الإسلام، وهذا دليل قويّ ينضاف إلى الأدلة السابقة، والتي تفيد أنّ الحارث الأصغر/ الأعرج كان يحكم في الشام في أوائل تسعينيات القرن السادس الميلادي[5].

ومع أنّ العلاقة بين النابغة والحارث الأصغر (أبي قابوس) شابها بعض الاضطراب من حين لآخر، للإيقاع به عند الملك الغسانيّ، إلا إنّ الشاعر بقي يحتفظ ببعض الودّ لهذا الملك الغسانيّ، ففي شعر له (ق١٨)، تتضح فيه معالم حالته النفسيّة عندما بلغه خبر مرضه، حتى خُيّل إليه أنّه فارق الحياة، لهذا نراه يستحلف حاجبه "عصام" عن حقيقة الأمر، ويصوّر حال النّاس، وقد تبدّلت أحوالهم، إن كان خبر موته صحيحًا[6]:

أَلَــم أُقــسِم عَلَيكَ لِتُخبِرَنّي	**أَمَحمولٌ عَلى النَعشِ الهُمامُ**
فَإِنّي لا أُلامُ عَلى دُخولٍ	**وَلَكِن ما وَراءَكَ يا عِصامُ**
فَإِن يَهلِك أَبو قابوسَ يَهلِك	**رَبيعُ النَّاسِ وَالشَّهرُ الحَرامُ**
وَنُمسِكُ بَعدَهُ بِذُنابِ عَيشٍ	**أَجَبَّ الظَّهرِ لَيسَ لَهُ سَنامُ**

---

(١) الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٢٩٩.

(٢) انظر، عبيد بن الأبرص، **الديوان**، ص١٠٠، حاشية رقم ٨.

(٣) الراميني، عرسان حسين، "حجر بن أم قطام: قراءة تاريخية في ديوان عبيد بن الأبرص،" **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، مجلد ٧، عدد٤، ٢٠١١، ص١٧٥.

(٤) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن(٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ج١: ص٥١١.

(٥) الراميني، ""محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر،" **مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب**، مجلد٦، عدد٢، ٢٠٠٩، ص٣٥١، قارن: نولدكه، **أمراء غسان**، ص٥٧، حيث يعتبر نولدكه أنّ بداية حكم الحارث بن أبي شمر في ٥٨٣م.

(٦) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٨: ١-٤.

في الواقع، جميع الشرّاح والرواة والباحثين[1] يرون أنّ النابغة أنشد هذه الأبيات عندما بلغه خبر مرض ألمّ بالنعمان بن المنذر اللخميّ، على اعتبار أنّ "أبا قابوس" كنية له، لكن بعدما ثبت أنّ "أبا قابوس" كنية للملك الغسانيّ الحارث الأصغر، يمكن الاطمئنان إلى أنّ النابغة أنشد هذه الأبيات في ملك غسانيّ وليس لخميّاً، أمّا ادعاؤهم بلخميّة أبي قابوس استنادًا إلى ورود اسم "عصام"، في البيت الثاني، والذي عندهم بأنّه حاجب للنعمان بن المنذر، فهذا الأمر يحتاج إلى مراجعة جادّة، فالمصادر[2] نفسها تثبت أنّ عصامًا هذا هو نفسه عصام بن شهبر/ شهر الجَرميّ، وبعضها ينسبه إلى عذرة، وسواء أكان ينتسب إلى جَرم[3] أم إلى عذرة، فهؤلاء جميعًا ينتسبون إلى قضاعة، وقضاعة، كما نفهم من ابن حزم[4] بلادها متصلة بالشام، أي ضمن المناطق الخاضعة لنفوذ الغساسنة؛ فإذا كان الأمر كذلك يصبح من غير المعقول أن يكون عصام هذا حاجبًا للنعمان بن المنذر اللخميّ، فالارتباط السياسيّ لقضاعة يرجّح كونه حاجبًا لملك غسانيّ.

من جهة أخرى، ذهب شوقي ضيف إلى إنكار هذه القصيدة من غير أن يبديَ أيّة أسباب لذلك، وتبعه عبد الفتاح الشطيّ، مع أنّ الشطيّ عزا السبب في إنكارها إلى ضعف مستواها الفنيّ،

---

(١) انظر، مثلًا: النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٨ (المقدمة)؛ البطليوسي، أبو بكر عاصم بن أيوب(٤٩٤هـ)، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، تحقيق ناصيف سليمان عواد، بيروت: مكتبة درغام، ٢٠٠٨، ج١: ص٣٣٥، مقدمة ق١٨؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص٢١؛ الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد(٥١٨هـ)، **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت: دار المعرفة، (د.ت)، ج٢: ص٣٣١؛ الحليّ، هبة الله محمد ابن نما بن علي بن حمدون(ق٦هـ)، **المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسدية**، تحقيق صالح درادكة ومحمد عبد القادر خريسات، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨٤، ج١: ص١٥١؛ العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص١٠٧-١٠٩؛ الشطيّ، **شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي**، ص٢١٥.

(٢) انظر، مثلًا، البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر(٢٧٩هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكّار ورياض زركلي، بيروت: دار الفكر، ١٩٩، ج١١: ص١٠٦.

(٣) بلادهم غزة في الشام، انظر، كحالة، عمر، **معجم القبائل العربية القديمة والحديثة**، ط٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ج١: ص١١١؛ ١٢٤؛ ١٤٦.

(٤) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد(٤٥٦هـ)، **جمهرة أنساب العرب**، ط٦، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، ص٨.

إلا إنّه عاد ليشير إلى إمكانية قول النابغة لهذه القصيدة، فمن وجهة نظره، أنّ النابغة وجد الفرصة مواتية للرجوع إلى النعمان بن المنذر، وإعادة العلاقة معه كما كانت من قبل، فقد شعر الشاعر بالخجل والتأنيب، كما يقول، لمّا بلغه خبر مرضه.

في الحقيقة، لا مبرر لإنكار شعر النابغة هذا، فضعف المستوى الفنيّ المزعوم ليس دليلًا كافيًا لإنكاره، فضلًا عن كونه غير منطقيّ.

بقي الإشارة إلى القصيدتين الوحيدتين، اللتين يحتفظ بهما الديوان، في رثاء أبي قابوس (الحارث الأصغر بن أبي شمر)، وهما القصيدة الثانية والثلاثون والقصيدة السابعة والخمسون، ففي الأولى يرثي النابغة الحارث الأصغر مشيرًا إلى ما كان يجلبه من الخير تارة ومن الشرّ تارة أخرى عند إغارته على النّاس، مشبّهًا إيّاه بالحيّة التي لا تستقر على حال[1]:

قُلْ لِلهُمامِ وخَيرُ القَولِ أصدقُهُ ... وَالدّهرُ يُومِضُ بعدَ الحَالِ بِالحَالِ
ماذا رُزِئْنَا بهِ منْ حَيَّةٍ ذَكَرٍ ... نَضْنَاضَةٍ بِالرَّزايا صِلِّ أَصْلالِ
وَغَّالةٍ في دُجَى الأَهوالِ إنْ نَزَلَتْ ... خَرَّاجَةٍ في ذُرَاها غَيرِ زُمَّالِ
مَاضٍ يكونُ لهُ جِدٌّ إذا نَزَلَتْ ... حَرْبٌ يُوائِلُ مِنها كُلَّ تِنْبَالِ

في الحقيقة، يكشف هذا الشعر عن الوجه الحقيقي لطبيعة العلاقة بين النابغة والغساسنة عمومًا، فعلاقته بالحارث، كما يفهم من شعره السابق فيه، علاقة سادها التّوتر، فالحارث الغسانيّ ظلّ يشكّ في ولاء النابغة للبلاط الغسانيّ؛ لهذا ظلّ يتوعده، ويبدو أنّ هذا الوعيد جعل الشاعر يعيش بحالة نفسية متردية يشوبها القلق وعدم الاستقرار، إلا إنّ موقفه في قصيدة الثانية يختلف تمامًا عن موقفه في القصيدة الأولى، فهو يشير فيها إلى أنّ الخلود أمر لا يمكن تحققه، فـ"أبو

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٢: ١-٤.

قابوس" قضى نحبه، على الرغم من ملكه الواسع،الذي شعر النّاس فيه بالأمن والأمان في عهده[1]:

إنَّ امرءًا يَرجو الخُلُودَ وَقَدْ رَأى سَرِيرَ أَبِي قَابُوسَ يُغْدى بِهِ عَجِزْ
وَكُنْتَ رَبِيعًا لِليَتَامى وعِصْمَةً فَمُلْكُ أَبِي قَابُوسَ أَضْحَى وَقَدْ نَجِزْ

وبالرغم من اضطراب العلاقة بين النابغة والملك الغسانيّ (الحارث الأصغر بن أبي شمر)، كما هو واضح من شعره السابق في اعتذارياته له، إلا إنّ الشاعر مايزال يحتفظ في نفسه ببعض الودّ لهذا الملك، على الأقل، لضمان أنّ علاقته بخَلَفه لن تكون متوترة، كما كانت مع سلفه. هذا يعني أنّ الشاعر كان متمسكًا بهذه العلاقة مع الغساسنة، فقومه مازالوا في أكنافهم وأكناف من يوالونهم ويرزحون تحت نفوذهم.

ثانيًا: النعمان بن الحارث بن أبي شمر.

من الطبيعيّ أن تبدأ علاقة النابغة بالنعمان بن الحارث بن أبي شمر بعد أنّ خلف هذا الأخير أباه في الحكم، في العقد الأول من القرن السابع[2]، والظاهر أنّ سنّة الشاعر في الاعتذار إلى ملوك الغساسنة هي السمة البارزة في شعره الموجّه إلى النعمان بن الحارث الغسانيّ، فعلى الرغم من التّقارب في العلاقة بين الطرفين، إلا إنّ هذه العلاقة شابها بعض الفتور من حين لآخر؛ ويبدو أنّ المتربصين، وهم أنفسهم" أقارع عوف" الذين كادوا للنابغة عند الحارث بن أبي شمر"أبي قابوس"، استمروا بدسّ المكائد والتربّص به وبقومه، بني يربوع بن غيظ، في بلاط ابنه النعمان بن الحارث الغسانيّ، ومن المتوقع أنّ ما فعله الحارث بن ظالم المريّ، من تحديه لسلطة" أبي قابوس" بقتله خالد بن جعفر سيد بني عامر بن صعصعة الموالين له، هيأ الفرصة أمام بني قريع بن

(١) السابق، ق٥٧: ١-٢.
(٢) انظر: نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٣؛ الراميني، حجر بن أم قطام، ص١٨٤.

عوف للنيل من النابغة وقومه في بلاط النعمان، كما فعلوا ذلك من قبل في بلاط أبيه الحارث بن أبي شمر. من هنا يمكن تصور العلاقة بين النابغة والنعمان بن الحارث الغسانيّ بأنّها قائمة على الاعتذار أساسًا؛ لدرء الخطر عن قومه، فالنابغة كغيره من الشعراء الجاهليين لا يمثل نفسه، وإنّما يمثّل قومه، وينطق باسمهم[1].

في الواقع، شعر النابغة في النعمان بن الحارث الغسانيّ يمثل مساحة أوسع في ديوانه من شعره في سلفه الحارث بن أبي شمر، فالنعمان يظهر في عشر قصائد ، وهي تمثل تقريبًا ثلث ما قاله من قصائد في الغساسنة عمومًا، هي القصائد ذوات الأرقام: ١؛ ٤؛ ٧؛ ١٤؛ ١٩؛ ٢٢؛ ٢٧؛ ٣٣؛ ٤٩؛ ٦٠. مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ كثيرًا من هذه القصائد فهمت خطًا على أنّها موجّهة إلى النعمان بن المنذر اللخميّ، فالإشارات فيها إلى هويّة "النعمان" الغسانيّة واضحة جليّة كما سيظهر من خلال ما سيأتي من مناقشة.

يعلن النابغة، في إحدى قصائده، أنّه سيشدّ الرحال إلى من يسمّيه "الملك النعمان"[2]:

فَأَعْمَلْتُهَا وَالكُورُ يُنْبِيهِ تَامِكٌ ... لَهَا قَرَدٌ وَالعَنْسُ كَالرُّجِّ بَادِنُ
إِلَى المَلِكِ النُّعْمَانِ حَتَّى لَقِيتُهُ ... وَقَدْ نُهِكَتْ أَصْلَابُهَا وَالجَنَاجِنُ

والظاهر أنّ هناك سببًا وجيهًا يجعل الشاعر يشدّ رحاله إلى "النعمان"، وقد نجد مثل هذا السبب في موطن آخر من شعره ففي معلقته، وبعد مقدمة طلليّة ووصف للرحلة طويلة نسبيًا، يتوجّه الشاعر بالمديح وبالاعتذار إلى من يسمّيه "النعمان" أيضًا[3]:

فتلكَ تبلغني النعمانَ إنّ لَهُ ... فَضلاً عَلى الناسِ في الأَدنى وَفي البَعَدِ
وَلا أَرى فاعِلاً في النّاسِ يُشبِهُهُ ... وَلا أُحاشي مِنَ الأَقوامِ مِن أَحَدِ
إِلّا سُلَيمانَ إذ قالَ الإِلَهُ لَهُ ... قُم في البَرِيَّةِ فَاحدُدها عَنِ الفَنَدِ

(١) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٤٤.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٦٠: ١-٢.
(٣) السابق، ق١: ٢٠-٢٥.

وخَـيِّسِ الجِـنَّ إنّـي قَـد أَذِنـتُ لَهُـم   يَبنـــونَ تَـــدمُرَ بِالـــصُّفّاحِ وَالعَمَـــدِ
فَمَـــن أَطاعَـــكَ فَانفَعـــهُ بِطاعَتِـــهِ   كَمـــا أَطاعَـــكَ وَادلُلـــهُ عَلـــى الرَّشَـــدِ
وَمَـــن عَـــصاكَ فَعاقِبـــهُ مُعاقَبَـــةً   تَنهَـــى الظَلـــومَ وَلا تَقعُـــد عَلـــى ضَـــمَدِ

ويبدو أنّه ليس بلا مغزى أن يعتذر النابغة إلى النعمان، فهو يقسم له بأغلظ الأيمان أنّ وصله من أقوال هي، في حقيقتها، مفتراة عليه، وإن لم يصدّقه فليعاقبه عقابًا يشفي صدور أعدائه(١):

فَـــلا لَعَمـــرُ الَّـــذي مَـــسَّحتُ كَعبَتَـــهُ   وَمـا هُريـقَ عَلـى الأَنـصابِ مِـن جَـسَدِ
وَالمُـــؤمِنِ العائِـــذاتِ الطَيـــرِ تَمـــسَحُها   رُكبـــانُ مَكَّـــةَ بَـــينَ الغَيـــلِ وَالـــسَّعَدِ
مـــا قُلـــتُ مِـــن سَـــيِّئٍ مِمّـــا أُتَيـــتَ بِـــهِ   إِذًا فَـــلا رَفَعَـــت سَـــوطي إِلَـــيَّ يَـــدي
إِلّا مَقالَـــــةَ أَقـــــوامٍ شَـــــقيتُ بِهـــــا   كانَـــت مَقـــالَتُهُم قَرعًـــا عَلـــى الكَبِـــدِ

وعلى الرغم من وجود اتجاه عام يرى أن هذه القصيدة قيلت في النعمان بن المنذر اللخميّ، إلا إنّه لا يوجد فيها دليل على ذلك، بل على النقيض تمامًا، بل يمكن النظر إلى ذكر "تدمر"، في القصيدة، على أنّه يوحي بأنّ النابغة يخاطب ملكًا في سوريا. من جهة أخرى، يشكّ كثير من الباحثين(٢) في صحة نسبة بعض أبيات هذه القصيدة إلى النابغة، وخاصة البيتين ٢٢ و٢٣، ودعواهم قائمة على أنّ النابغة يذكر سليمان، عليه السّلام، وكأنّه من أهل الكتاب، وهو في حقيقته وثني المذهب، وأنّ نظمها ضعيف المبنى سخيف المعنى، فليس له صلة بشعر النابغة، في الحقيقة، يمكننا إعادة النظر في مثل هذه الآراء إزاء من نجده من امتداح النابغة لدين الغساسنة، واعتباره الدين القويم(٣):

---

(١) السابق، ق١: ٣٧-٤٠.

(٢) حسين، طه ، **في الأدب الجاهلي**، ط٣، القاهرة: مطبعة فاروق، ١٩٣٣، ص٣٢١-٣٢٢؛ ضيف، **العصر الجاهلي**، ط٢٤، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٤، ص٢٧٩؛ العشماوي، **النابغة الذبياني** ، ص٧٧-٧٨؛ الشطيّ، **شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي**، ص٢٢٥- ٢٢٦.

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣: ٢٤؛ ثم إنّنا لا نجد من تمتعوا بصفات الصالحين المؤمنين من الملوك والأمراء عند العرب قبل الإسلام إلا الغساسنة، حيث كانوا من المسيحيين المخلصين، كما تظهر الوثائق

مَحَلّـــــتُهمْ ذاتُ الإلـــــهِ وديـــــنُهمْ قـــويمٌ فمـــا يرجُـــونَ غيـــرَ العواقـــبِ

ثمّ إنّه ليس النابغة وحده من أتى على ذكر سليمان، عليه السلام، فزهير بن جناب الكلبيّ يذكره، عليه السّلام، وقد سُخّرت له الجنّ(١):

أَصَـــبنَ سُــلَيمانَ الَّـــذي سُـــخِّرَت لَـــهُ شَـــياطينُ يَحمِلـــنَ الجِبـــالَ الرَّواسِـــيا

وكذلك يذكره السّموأل إلى جانب أنبياء الله: يحيى؛ يوسف؛ ويعقوب، عليهم السلام،(٢):

وَسُـــــلَيمانَ وَالحَـــــوارِيُّ يَحيـــــى وَمَنَـــسّى يوسُـــف كَـــأَنّي وَليـــتُ
وَبَقايـــا الأَســـباطِ أَســـباطِ يَعقـــو بَ دارِسِ التَــــوراةِ وَالتـــــابوتُ

فلم يقتصر ذكر أنبياء الله، عليهم السلام، على الشعراء الذين عاصروا الإسلام، أو من أتوا فيما بعد، فالنابغة(٣) نفسه يذكر نوحًا، عليه السلام، وكذلك عنترة بن شداد(٤)، وعَديّ بن زيد(٥).

وبالعودة إلى ديوان النابغة، وتحديدًا إلى القصيدة السابعة والعشرين، نجده يعتذر مرة أخرى إلى من يسمّيه "النعمان"، جاعلًا أهله فداء لمن أمن جواره وأغدق عليه من عطاياه، طالبًا منه ألا يسيء الظنّ به، فهو ما يزال على ولائه له، وإلا؛ فليسأل عنه ذبيان التي تعرف أخلاقه وعدم خيانته للعهود(٦):

فِـــداءٌ لِإمـــرِئٍ ســـارَت إِلَيـــهِ بِعِـــذرَةِ رَبِّهـــا عَمّـــي وَخـــالي
وَمَـــن يَغـــرِف مِـــنَ النّعمـــانِ سَـــجلًا فَلَـــيسَ كَمَـــن يُتَيَّـــهُ فـــي الـــضَّلالِ

البيزنطية، انظر، Shahid, Irfan, **Byzantium and the Arabs in the sixth century**, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, Washington, D.C,1989, p.827.

(١) زهير بن جناب الكلبيّ، **الديوان**، تحقيق محمد شفيق البيطار، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩، ق٣١: ٥.

(٢) عروة بن الورد والسموأل، **الديوان**، بيروت: دار صادر، ١٩٧٠، ص٨١.

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٥: ٤٢.

(٤) انظر، ابن المبارك، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، ق٦٦: ٢٢.

(٥) انظر، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري(٢٧٦هـ)، **عيون الأخبار**، شرح يوسف علي الطويل، بيروت: دار الكتب العلمية،(د.ت)، ج٢: ص٣٤١.

(٦) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٧: ١٠-١٣.

فَــإن كُنــتَ اِمــرءًا قَــد سُــؤتَ ظَنًّــا بِعَبــدِكَ وَالخُطــوبُ إِلـــى تَبــالِ
فَأَرسِــل فــي بَنــي ذُبيــانَ فَاِســأَلْ وَلا تَعجَــلْ إِلَـيَّ عَــنِ الـسُّؤالِ

ثمّ ما يلبث النابغة أن يقسم بحياة "النعمان" وبما يقدمه الحجيج من قرابين "إلى إلالِ" وهو جبل بمكة، وبالأحرى بعرفات[1]، ويبيّن له أنّه ما كان يقدم على خيانته، وكيف له أن يفعل ذلك؛ وهو المتفضّل عليه، فأكثر ماله من عطاياه، فليس من طبعه الخيانة، وأنّه لا ينتظر جزاء من أحد إلا من الله، الذي يجازي المعروف بالمعروف[2]:

فَــلا عَمــرُ الَّــذي أُثنــي عَلَيــهِ وَمــا رَفَــعَ الحَجــيجُ إِلــى إِلالِ
لَمــا أَغفَلْــتُ شُــكرَكَ فَانتَــصِحني وَكَيــفَ وَمِــن عَطائِــكَ جُــلُّ مــالي
وَلَــو كَفّــي اليَمــينُ بَغَتْــكَ خَونًــا لَأَفــرَدتُ اليَمــينَ مِــنَ الـشِّمالِ
وَلَكِــن لا تُخــانُ الــدَّهرَ عِنــدي وَعِنــدَ اللهِ تَجزِيَــةُ الرِّجــالِ

والظاهر أنّ الشكّ ملأ قلب النعمان مع كلّ ما قدمه النابغة من أعذار ودلائل على ولائه له، فظلّ يستريب في أمره؛ ودليل ذلك واضح، يمكن التماسه من قسم النابغة له، وهذا له دلالتان، أولاهما أنّ وشاية بني قريع بالنابغة وقومه أخذت مأخذها في نفس "النعمان"، فظلّ الشكّ يساوره في أمر النابغة، وثانيهما، وهو الأهم، أنّ اعتذار النابغة، في هذه القصيدة، وما اشتمل عليه من عناصر، يشبه إلى حدّ كبير اعتذاره إلى "النعمان" في معلقته (ق١)، وهذا من شأنه أن يعزز الرأي بأنّ "النعمان" الذي يتوجّه النابغة إليه بالاعتذار هنا هو نفسه الذي يتوجّه إليه بالاعتذار في المعلقة، أيّ أنهما شخص واحد في القصيدتين، وهو النعمان بن الحارث الغسانيّ، في الواقع، ليس هذا الدليل الوحيد في القصيدة على هويّة "النعمان" الغسانيّة، فالنابغة في مطلعها يقف، كعادة

(١) الحمويّ، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله(٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧، "ألال".
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٧: ١٤-١٧.

الشعراء الجاهليين عمومًا، على الأطلال، ومن بين هذه الأطلال يذكر "الحبيّ" و"وعال" و"أمواه الدّنا" و"عُويرضات"[(١)]:

أَمِـــــن ظَلّامَــــــةَ الــــــدِّمَنُ البَــــوالي ... بِمُــــرفَضِّ الحُبَـــيِّ إلـــى وُعــــالِ

فَـــــأَمواهِ الــــــدَّنا فَعُوَيرِضــــــاتٍ ... دَوارِسَ بَعـــــدَ أَحيــــاءٍ حِــــلالِ

و"الحبيّ" كما يقول ياقوت[(٢)]: "موضع في الشّام"، وهذا ما يؤكده شعر لزهير بن جناب الكلبيّ، سيد بني كلب من قضاعة، المقيمة بالشام[(٣)] والموالية للغساسنة، حين يذكر"الحبيّ"، في معرض حديثه عن انتصار محقق له ولقومه على بني بكر بن وائل وبني تغلب على التوالي[(٤)]:

لَحِقَـــت أَوائِــــلُ خَيلِنــــا سَــــرَعانَهُم ... حَتّــى أَسَــرنَ عَلــى الحُبَــيِّ مُهَلهِــلا

أمّا "وعال"، كما يخبرنا الزمخشري[(٥)]، فهو جبل على طريق دومة إلى الشّام، و"أمواه الدّنا"، بحسب البلدانيين[(٦)]، موضع في أرض كلب، الموالية للغساسنة، ومنهم قائد الغساسنة العسكريّ النعمان بن الجُلاح الكلبيّ، فذكر النابغة لهذه الأمكنة الشاميّة يرجح الهويّة الغسا[نيّة للملك.

وتبقى سنّة النابغة في الاعتذار إلى النعمان بن الحارث الغسانيّ ماضية، ما دام المتربصون به وبقومه لهم حظوة في البلاط الغسانيّ ، ففي موطن آخر(ق٤٩)، يطلب الشاعر إليه التّريّث وألا يتعجل بتصديق مقولة من وشى به[(١)]:

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٧: ١-٢.

(٢) الحموي، **معجم البلدان**،"حبيا".

(٣) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٨.

(٤) زهير بن جناب الكلبيّ، **الديوان**، ق٢٢: ٢؛ وانظر: الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٩: ص١٧؛ ابن الأثير، **الكامل التاريخ**، ج١: ص٣٩٣.

(٥) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(٤٦٧هـ)، **الأمكنة والمياه والجبال**، تحقيق إبراهيم السامرائي، بغداد: مطبعة السعدون، ١٩٦٨، ص٢٢٥؛ ويذكر ياقوت الحموي أنّ "وعال" جبل بسماوة كلب بين الكوفة والشام (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، "وعل").

(٦) انظر، مثلًا، البكريّ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز(٤٨٧هـ)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ط٣، تحقيق مصطفى السقا، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣، "أمواه الدنا".

فَمهـــلًا أَبَيْـــتَ اللَّعـــنَ لا تَأخُـــذَنَّني   بِقِيـلِ امـرئٍ يَومًـا مِـنَ الحِلْـمِ مُـصْرِمِ

لكنّ موقفه في الاعتذار، هذه المرّة، يختلف عنه في الموطنين السابقين؛ فهنا يذكّر النعمان أن قومه كانوا يمدّونه بالرجال وبالخيل، كلّما أراد تعبئة الجيوش للحرب، وأنهم كانوا يحتملون ما يصيبهم في سبيل طاعته(٢):

ولا تَـسنَيَن فينـا نَـصيبَكَ واذْكُـرَنْ   تَـصلّينا فـي العَـارضِ المُتَـضَرّمِ
ورِفْـدَتُناكَ الخيـلَ والرّجـلَ كُلّما   رَفَعْـتَ العُقَـابَ فـي الخمـيسِ المُـسوّمِ
فـلا العبـدُ بِالعَبْـدِ الـذي لَـيْسَ مُعْتِبًـا   ولا أنـت بـالرّبِّ الأَلَـدِّ المُـصمّمِ

ولهذا يطلب إليه، في هذه القصيدة، التّريّث وعدم نسيان ما قدمه قومه من خدمات له، وأن يترك ما قد صمّم عليه من معاقبته ومعاقبة قومه، ويبدو أنّ قسم النابغة، في الموطنين السابقين، لم يُجديا نفعًا في دفع التّهمة، التي ألصقها به بنو قريع، عن نفسه وعن قومه، ولهذا يذكّر النعمان بولائه وولاء قومه له، فمن غير المنطقي أن يشكّ بولائه وبولاء قومه بعد الخدمات التي قدّموها له، ويبدو أنّ تصديق النعمان للنابغة مرهون ، هذه المرّة، بما يقدمه النابغة من أدلة على ولائه للملك.

في الحقيقة، هناك سبب حقيقيّ وراء هذه القصيدة، فالمتربصون بالنابغة وبقومه في بلاط الملك الغسانيّ كانوا يأخذون مما يفعله النابغة ذريعة، يحاولون بها أن يوغروا صدر الملك عليه، كلّما تهيأت لهم الفرصة، ويبدو أنهّم وجدوا ضالتهم في تحالف الفزاريين، وهم من ذبيان قبيلة النابغة، مع بني أسد ذنبًا لا يغتفر، فقد تناهى إلى مسامع النعمان بن الحارث الغسانيّ أنّ حصن بن حذيفة الفزاريّ، سيّد غطفان بأسرها، فضلًا عن فزارة وذبيان(٣)، يجمع الجموع ليصيب غسّان

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٤٩: ٣.

(٢) السابق، ق٤٩: ٤-٦.

(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١٧٤.

مرة أخرى، بعد أن أغار عليها قبل عام(١)، وفي هذا تحدٍ سافر لسلطة النعمان بن الحارث الغسانيّ، وهذا ما يؤكّده حصن نفسه حين يقول(٢):

لا أَرفَعُ الطَّرفَ ذُلًّا عَندَ مُهلِكَةٍ ... أَلقى العَدوَّ بِوَجهِ خَدُّهُ دامي
حتّى اِعتَقَدتُ لِوا قَومي فَقُمتُ بِهِ ... ثُمَّ اِرتَحَلتُ إِلى الجَفنيّ بِالشّامِ
لَما قَضى ما قَضى مِن حَقِّ زائِرِهِ ... عُجتُ المَطِيَّ إِلى النُّعمانِ مِن عامِ

وفي ذات السياق، يشير زهير بن أبي سلمى إلى التفاف أسد وغطفان حول حصن بن حذيفة الفزاريّ، وهو ما أثار حفيظة النعمان الغسانيّ عليه، فسخط عليه(٣):

حُذَيفَةُ يَنْمِيهِ وَبَدرٌ كِلاهُما ... إِلى باذِخٍ يَعلو عَلى مَن يُطاوِلُه
وَمَن مِثلُ حِصنٍ في الحُروبِ وَمِثلُهُ ... لِإِنكارِ ضَيمٍ أَو لِأَمرٍ يُحاوِلُه
أَبى الضَّيمَ وَالنُّعمانُ يَحرِقُ نابُهُ ... عَلَيهِ فَأَفضى وَالسُّيوفُ مَعاقِلُه
عَزيزٌ إِذا حَلَّ الحَليفانِ حَولَهُ ... بِذي لَجَبٍ لَجّاتُهُ وَصَواهِلُه
يُهَدُّ لَهُ ما دونَ رَملَةِ عالِجٍ ... وَمَن أَهلُهُ بِالغَورِ زالَت زَلازِلُه

من الواضح أنّ تأكيد سيادة حصن بن حذيفة على الأراضي الممتدة بين صحراء النفود (رملة عالج) وغور تهامة، في شمال غربي نجد وشماليّ الحجاز، فيه تحدٍ لسلطة الغساسنة. ويبدو أن ذلك تمّ باتفاق بينه وبين حلفائه، بني أسد؛ ولهذا لا يستبعد أن تكون هذه الأحداث مرتبطة بيوم جبلة المشهور(٤). وحاول النابغة، من جهته، أن يثني النعمان بن الحارث عن غزو فزارة وبني

---

(١) انظر: النابغة الذبياني، **الديوان، ق٤**؛ العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٣٥.

(٢) العسكريّ، أبو أحمد الحسن بن عبد الله(٣٨٢هـ)، **المصون في الأدب**، ط٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤، ص١٤٣-١٤٤؛ المرتضى، أبو القاسم علي بن الطاهر(٤٣٦هـ)، **أمالي السّيد المرتضى**، تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٧، ج٢: ص١٦٨..

(٣) ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني(٢٩١هـ)، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ط٣، تحقيق فخر الدين قباوة، دمشق: مكتبة هارون الرشيد للتوزيع، ٢٠٠٨، ق٧: ٤١-٤٥.

(٤) الراميني، النابغة الذبياني ، ص١٥٤ (حاشية٢٨).

أسد، مبيّنًا لـ"النعمان" أنّ ما وصله عن حصن وبني أسد باطل، لا صحة له وذلك كما جاء في قصيدة استشفاع في حضرة "النعمان"[(١)]:

إنّـــي كَـــأَنّي لَـــدى النُّعمـــانِ خَبَّـــرَهُ   بَعـــضُ الأُوُدِّ حَـــديثًا غَيـــرَ مَكـــذوبِ
بِـــأَنَّ حِـــصنًا وَحَيًّـــا مِـــن بَنـــي أَسَـــدٍ   قـــاموا فَقـــالوا حِمانـــا غَيـــرُ مَقـــروبِ

ومحاولًا أن يظهر له جهل الفزاريين وغرورهم بأنفسهم أمام قوة الغساسنة وجبروتهم، ومذكّرًا إياهم بالغزوة التي شنّها "النعمان" قادمًا من الجولان، على بني أسد شرقي الجزيرة[(٢)]:

ضَـــلَّت حُلـــومُهُمُ عَـــنهُم وَغَـــرَّهُمُ   سَـــنُّ المُعَيـــدِيِّ فـــي رَعـــيٍ وَتَعزيـــبِ
قـــادَ الجِيـــادَ مِـــنَ الجَـــولانِ قائِظَـــةً   مِـــن بَـــينِ مُنعَلَـــةٍ تُزجـــى وَمَجنـــوبِ

وبعد وصفه لخيول الغساسنة وشكيمة رجالهم في الحرب، يتوجه النابغة بالنّصح إلى حصن بألا يغترّ بنفسه وبقومه، طالبًا إليه النجاة بقومه، وإلا فسوف يلاقي مصير بني أسد، لمّا غزاهم "النعمان"، فقتل منهم من قتل وسبى نساءهم ، كلّ ذلك نتيجة لحملات العقاب التي نفذّها الغساسنة ضدّهم، وبذلك يكشف النابغة عن علاقة عداء مستحكم بين أسد والغساسنة[(٣)]:

وَمـــا بِحِـــصنٍ نُعـــاسٌ إِذ تُؤَرِّقُـــهُ   أَصـــواتُ حَـــيٍّ عَلـــى الأَمـــرارِ مَحـــروبِ
ظَلَّـــت أَقـــاطيعُ أَنعـــامٍ مُؤَبَّلَـــةٍ   لَـــدى صَـــليبٍ عَلـــى الـــزَّوراءِ مَنـــصوبِ
فَـــإِذ وُقيـــتِ بِحَمـــدِ اللهِ شِـــرَّتَها   فَـــانجي فَـــزارَ إِلـــى الأَطـــوادِ فَـــاللّوبِ
وَلا تُلاقـــي كَمـــا لاقَـــتْ بَنـــو أَسَـــدٍ   فَقَـــد أَصـــابَتهُمُ مِنهـــا بِـــشُؤبوبِ
لَـــم يَبـــقَ غَيـــرُ طَريـــدٍ غَيـــرِ مُنفَلِـــتٍ   وَموثَـــقٍ فـــي حِبـــالِ القِـــدِّ مَـــسلوبِ
أَو حُـــرَّةٍ كَمَهـــاةِ الرَّمـــلِ قَـــد كُبِلَـــت   فَـــوقَ المَعاصِـــمِ مِنهـــا وَالعَراقيـــبِ
تَـــدعو قُعَينًـــا وَقَـــد عَـــضَّ الحَديـــدُ بِهـــا   عَـــضَّ الثِّقـــافِ عَلـــى صُـــمِّ الأَنابيـــبِ
مُستَـــشعِرينَ قَـــدَ الْفَـــوْا فـــي دِيـــارِهِمُ   دُعـــاءَ ســـوعٍ وَدُعمِـــيٍّ وَأَيّـــوبِ

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٤: ١-٢.
(٢) السابق، ق٤: ٣-٤.
(٣) السابق، ق٤: ٩-١٦.

من الواضح أنّ النابغة في قصائده الخاصة بالاستشفاع، التي منها هذه القصيدة، يحاول توجيه اللوم لنفسه، ويحمّلها الخطأ، فضلًا عن تأكيده على قوّة الملك العسكريّة.

من جهة أخرى، يبقى هناك سبب وجيه آخر عمد إليه المتربصون بالنابغة في بلاط النعمان ابن الحارث الغسانيّ، من شأنه أن يتحول بالعلاقة القائمة بين هذا الأخير والنابغة، إلى توتر واضطراب بينهما، ففي شعر له (ق١٤)، يخبرنا النابغة أنّه نهى "النعمان" عن غزو بني حُنّ، وهم من بني عذرة[١]، عندما عزم هذا الأخير على غزوهم في عقر ديارهم (برقة صادر)، مشيرًا إلى أنّ لقاءهم مكروه وشديد، وأخذ يخوّفه بشدة بأسهم في الحرب[٢]:

لَقَد قُلتُ لِلنُعمانِ يَومَ لَقيتُهُ ... يُريدُ بَني حُنٍّ بِبُرقَةِ صادِرِ
تجَنَّب بنَي حُنٍّ فَإِنَّ لِقاءَهُم ... كَريهٌ وَإِن لَم تَلقَ إِلّا بِصابِرِ
عِظامُ اللُّهى أَولادُ عُذرَةَ إِنَّهُم ... لَهاميمُ يَستَلهونَها بِالحَناجِرِ

مذكّرًا إيّاه بعظيم أفعالهم التي لا يقدر عليها إلا الأشداء؛ فهم جمعوا جيشًا عظيمًا، فاستولوا على "وادي القرى" ومنعوا أهله الرعي فيه[٣]:

وَهُم مَنَعوا وادي القُرى مِن عَدوِّهِم ... بِجَمعٍ مُبيرٍ لِلْعَدُوِّ المُكاثِرِ
مِنَ الوارِداتِ الماءَ بِالقاعِ تَستَقي ... بِأَعجازِها قَبلَ اِستِقاءِ الحَناجِرِ
بُزاخِيَّةٍ أَلوَت بِليفٍ كَأَنَّهُ ... عِفاءُ قِلاصٍ طارَ عَنها تَواجِرُ
صِغارِ النَوى مَكنوزَةٍ لَيسَ قِشرُها ... إِذا طارَ قِشرُ التَمرِ عَنها بِطائِرِ

كما أنّهم"طردوا بليًّا"، ومنعوهم عن نخل "وادي القرى"، ونفوهم عنه إلى سهل تهامة، فضلًا عن منعهم قضاعة و"مضر الحمراء" عن هذا الوادي، والأهم من ذلك أنّهم قتلوا "أبا جابر" وسبوا زوجه "أم جابر"[١]:

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٤٤٨.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٤: ١-٣.
(٣) السابق، ق١٤: ٤-٧.

هُمُ طَرَدوا عَنها بَلِيًّا فَأَصبَحَت ... بَلِيٌّ بِوادٍ مِن تِهامَةَ غائِرِ
وَهُم مَنَعوها مِن قُضاعَةَ كُلِّها ... وَمِن مُضَرِ الحَمراءِ عِندَ التَّغاوُرِ
وَهُم قَتَلوا الطائِيَّ بِالحِجْرِ عَنوَةً ... أَبا جابِرٍ وَاستَنكَحوا أُمَّ جابِرِ

على ما يبدو أنّ هذه القصيدة تشير إلى تمرّد جماعة من عذرة على الغساسنة، وهو أمر يعني أن منطقتهم كانت تابعة لنفوذ الغساسنة، فالنابغة، في محاولته لمنع النعمان بن الحارث الغسانيّ من غزو بني حُنّ، كان يسعى، كما يرى ديرنبرج[٢]، للتوفيق بين إظهار إخلاصه للبلاط الغسانيّ وبين ما يمليه عليه واجبه اتجاه قبيلته وحلفائها، ولكنّ محاولته باءت بالفشل[٣]، كما أنّ النابغة، كما يروي البطليوسي[٤] في تقديمه هذه القصيدة، بعث لقومه يخبرهم بغزو النعمان بن الحارث لبني حُنّ، فطلب إليهم أن يمدوهم ويقفوا إلى جانبهم ضدّ "النعمان"، ففعلوا، وهذا ردّ منهم على الجميل، فالمعروف أنّ بني يربوع بن غيظ، عشيرة النابغة، نزلت بعذرة في أعالي الحجاز في وادي القرى تحديدًا عندما ساءت علاقتهم بأبناء عمومتهم من ذبيان في أعقاب رفضهم وثيقة الصلح مع عبس، ومن بين أحياء عذرة التي نزلوا بها بني حُنّ، وهؤلاء أوسعوا لهم في ديارهم وأكرموا منزلهم[٥]، وهذا ما يفسر مدح النابغة، كما جاء في التقديم للقصيدة الثامنة والخمسين، لرجل منهم، يدعى هوذة بن أبي عمرو العذريّ، حين يشير إلى جوده وكرمه[٦]:

وَيلُ امِّ خُلَّةِ ماجِدٍ آخَيْتُهُ ... كَانَ ابنَ أَشْفَةَ غَيْرَ قِيلِ البَاطِلِ
كَانَ ابنُ أَشْفَةَ طَيِّبًا أَثْوَابُهُ ... عَفَا شَمَائِلُهُ غَزِيرَ النَّائِلِ
يَهَبُ الجَوَادَ بِسِرْجِهِ وَلِجَامِهِ ... وَالعَنْسَ تَخْطِرُ بِاليَمَانِي الكَامِلِ

---

(١) السابق، ق١٤: ٨-١٠.
(٢) العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٣٥.
(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٢.
(٤) البطليوسي، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، ج١: ص٣٢٦، مقدمة ق ١٤.
(٥) ضيف، **العصر الجاهلي**، ص٢٧١.
(٦) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥٨: ١-٥.

أُثْنِي عَلَى ذِي آلِ عُذْرَةَ إِنَّهُ   قَدْ كَانَ قِدْمًا قَبْلُ قِيْلِ البَاطِلِ
رَبُّ الحِجَازِ سُهُولَهَا وجِبَالَها   وَأَجَلَّهَا مِنْ إنْسِها والخَابِلِ

يبدو أنّه ليس بلا مغزى أن يصرّ النعمان بن الحارث على غزو بني حُنّ، فهؤلاء، كما يشير النابغة في البيت الأخير، أقدموا على قتل "أبي جابر"، وأخذوا زوجه سبيّة، واستولوا على أرضه (الحِجر) الواقعة في وادي القرى[1]، ويشير الشاعر الإسلامي عَديّ بن الرقاع العامليّ، من جانبه، وهو من قضاعة[2]، إلى حادثة مقتل "أبي جابر"، وذلك في معرض حديثه عن انتصارات حققها قومه[3]:

إِباؤُهُمُ أَن يَشكُروا الفَضلَ إِنَّنا   صَبَحنا الرِّماحَ مِن أَبِي جابِرٍ دَما

ونحن نفهم من المصادر[4] أنّ "أبا جابر" وهو الجلّاس بن وهب بن قيس بن عبيد من طيء، كان ممن اجتمعت عليه بنو جديلة، أحد فرعي طيء، وهؤلاء بحسب دراسة حديثة[5]، كانوا حليفًا قويًّا للغساسنة، في المقابل كان أخوتهم، الفرع الثاني من طيء (بنو الغوث)، حليفًا قويًّا للحيرة. الآن، وفي ضوء ارتباط جديلة بالغساسنة، يمكن فسير إصرار النعمان بن الحارث الغسانيّ على غزو

(١) الحموي، **معجم البلدان**، "حجر".

(٢) الجمحيّ، محمد ابن سلام(٢٣٢هـ)، **طبقات فحول الشعراء**، شرح محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة مدني، ج٢: ص٦٨٢؛ المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران(٣٨٤هـ)، **معجم الشعراء**، ط٢، تصحيح ف. كونكو، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢، ص٢٥٣؛ السمعانيّ، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور(٥٦٢هـ)، **الأنساب**، ط٢، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٩٨٠، ج٨: ص٣٢٨.

(٣) عدي بن الرقاع العامليّ(٩٥هـ)، **الديوان**، تحقيق نوري حمود القيسي وحاتم صالح الضامن، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧، ق٢٠: ٤٥.

(٤) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب(٢٠٤هـ)، **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب/ مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٨، ج١: ص٢٢٢؛ الحموي، **معجم البلدان**، "قرى".

(٥) الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٢٢٩-٣٠٣.

بني حُنّ العذريين على أنّه تأديب لهم؛ لمّا وجد الملك الغسانيّ بفعلهم ذاك استفزازًا له ولسلطته في المنطقة.

في الواقع، ليس هذا هو الدافع الوحيد لغزو النعمان بن الحارث الغسانيّ لبني حُنّ العذريين؛ فهؤلاء، كما يفهم من شعر النابغة السابق، قاموا بتهديد مصالح إستراتيجية للغساسنة في المنطقة؛ باستيلائهم على أرض "وادي القرى" و"الحجر"، وهي، كما يفهم من البلدانيين(١)، أراض واقعة تحت النفوذ الغسانيّ، وأنّ طرد أهلها(من بليّ وقضاعة ومعد الحمراء) منها، وهم حلفاء غسّان التي ارتضت لهم إدارة المنطقة بالنيابة عنهم، فيه تحدٍ سافر لسلطة الملك الغسانيّ.

الآن، وفي ضوء نتائج غارة النعمان بن الحارث الغسانيّ على بني حُنّ، يمكن إعادة النظر في المكائد التي دبّرها المتربصون بالنابغة وقومه في البلاط الغسانيّ، فهم وجدوا في وقوف أحياء من ذبيان، ومن بينهم، بنو يربوع بن غيظ، إلى جانب بني حُنّ، بعد أن أرسل النابغة إليهم بخبر غارة "النعمان" عليهم، ذريعة ليشكّكوا في ولاء النابغة للملك الغسانيّ.

ومع كلّ الدسائس والمكائد التي سعى بها المتربصون ليوغروا بها صدر النعمان بن الحارث الغسانيّ على النابغة وقومه، إلا إنّهم، على أغلب الظنّ، لم يفلحوا، إذ أنّ الشاعر جاهد لتبقى علاقته وثيقة بالبلاط الغسانيّ؛ فمصلحة القبيلة تتطلّب ذلك، ولهذا نراه يظهر حسن علاقته، من حين إلى آخر، بالغساسنة عمومًا، وبالنعمان بن الحارث الغسانيَ خصوصًا، ففي شعر للنابغة يمدح فيه النعمان بن الحارث الغسانيّ وآباءه، ويشير فيه إلى كرمه وجوده، وأنّه وآباءه الأفضل بين النّاس، فهم لا يمنعون الخير عن النّاس إذا ما طلبوه منهم، نراه يقول(٢):

هَــــذا غُــــلامٌ حَــــسَنٌ وَجهَــــهُ مُــــستَقبِلُ الخَيْــــرِ سَــــرِيعُ التَّمَــــامِ
لِلحَــــارِثِ الأَصْــــغَرِ وَالحَــــارِثِ الــــ أَعــــرَجِ والحَــــارِثِ خَيْــــرِ الأَنَــــامِ

(١) الحموي، **معجم البلدان**، "وادي القرى".
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٣: ١-٤.

ثُـــمَّ لِهِنْـــدٍ وَلِهِنْـــدٍ وَقَـــد   أَســـرَعَ فـــي الخَيـــراتِ مِنْـــهُ إِمَـــامِ
سِـــتَّةُ آبـــائِهِمُ مَـــا هُـــمُ   هُـم خَيـرُ مَـن يَـشْرَبُ صَـوْبَ الغَمَـام

في الواقع، وقف نولدكه كثيرًا عند هذه الأبيات، كونها مصدرًا مهمًّا في حفظ نسب آل جفنة، بعد انقطاع الكتبة السوريين والبيزنطيين عن رواية أخبارهم، في أعقاب المحنة التي أصابتهم[1]، وسعى جاهدًا لتحديد هويّة الغلام (الأمير) الغسانيّ[2] الذي يتوجّه النابغة إليه بها، مشيرًا إلى اختلاف في الروايات فيها، وبالأخص البيت الثاني[3]. هل كان هذا الأمير هو النعمان بن الحارث

---

(١) فمن الثابت أنّ الغساسنة كانوا على خلاف مع روما في مذهبهم الدينيّ، فقد كانوا يدافعون مذهب الطبيعة الواحدة، المنوفستيّة، ضد ما كانوا يعتبرونه هرطقات دينيّة، فعملت روما على أسر المنذر بن الحارث الأكبر ابن جبلة في عهد القيصر طيباريوس، سنة ٥٨١م، مما أغضب الغساسنة فثاروا على روما وخاصة أنّ المنذر ابن الحارث توفي في صقلية بعد نفيه إليها، فتصدعت عرى الدولة الغسانيّة في الشام، واختارت كلّ قبيلة رئيسًا لها، فأخذت القبائل العربية تتنازع فيما بينها (انظر: نولدكه، **أمراء غسان**، ص٣١–٣٥؛ علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٦: ص١٠٤–١٠٦).

(٢) مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ كلمة "غلام" قد تطلق على السيد أو الأمير أو القائد.

(٣) انظر بعض الاختلاف في الروايات لهذا الشعر في: الخزاعيّ، أبو علي دعبل بن علي بن رزين(٢٤٦هـ)، **وصايا الملوك**، تحقيق نزار أباظة، بيروت، دار صادر، ١٩٩٧، ص٥٩؛ ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ج١: ص١٥٨؛ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(٣٥٥هـ)، **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٠، ص١٧٣–١٧٤؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١٥–١٦؛ الخزرجي، علي بن الحسين(٨١٢هـ)، **العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة**، اعتناء محمد بسيوني عسل، الفجالة (مصر): مطبعة الهلال، ١٩١١، ج١: ص٢٨؛ **التوضيح والبيان–عن شعر نابغة ذبيان**، القاهرة: مطبعة الجمالية، ١٩١٠، ق٤٦ (القسم الثاني). ويرى نولدكه أنّ الرواية الصحيحة التي تجري عليها الأبيات كالآتي:

هَـــذا غُـــلامٌ حَـــسَنٌ وَجهَـــهُ   مُـــستَقبِلُ الخَيـــرِ سَـــرِيعُ التَّمَـــامِ
لِلحَـــارِثِ الأَكْبَـــرِ وَالحَـــارِثِ الـــ   أَصْـــغَرِ والأَعـــرَجِ خَيـــرِ الأَنَـــامِ
ثُـــمَّ لِهِنـــدٍ وَلِهِنـــدٍ وَقَـــد   أَســـرَعَ فـــي الخَيـــراتِ مِنـــهُ إِمـــامِ
خَمـــسَةُ آبـــاءٍ هُمُـــو مـــا هُـــمُ   هُـم خَيـرُ مَـن يَـشرَبُ صَـوبَ الغَمـام

الغسانيّ أو أخوه عمرو؟ ويبدو أنّ هذا الاختلاف نابع أساسًا من اختلاف الرواة والأخباريين في تحديد اسم الأمير الذي خَلَف أباه (الحارث الأصغر)[1]، يؤكد أنّ كلًّا من النعمان وعمرو حكما بعد أبيهما على التوالي في نهاية القرن السادس للميلاد. وعليه، بات من المرجّح، أن الأمير الغسانيّ الذي يتوجّه إليه النابغة بالشعر السابق هو النعمان بن الحارث، وليس أميرًا آخر.

أمّا قصائد النابغة في رثاء النعمان بن الحارث الغسانيّ فهي ثلاث قصائد، وتمثّل أقلّ من ثلث قصائده فيه، وهي القصائد: ٧؛ ١٩؛ ٢٢. ففي القصيدة السابعة، نجد النابغة يرثي" النعمان" وقد حمله النّاس على أكتافهم يسيرون بنعشه، كما جرت العادة، وفيها يصف أحوال النّاس وقد تبدّلت بعد موته، فهم يتمنون عودته إليه ليعود لهم الرخاء كما كان في سالف عهده[2]:

أَلَم تَرَ خَيرَ النَّاسِ أَصبَحَ نَعشُهُ ... عَلى فِتيَةٍ قَد جاوَزَ الحَيَّ سائِرَا
وَنَحنُ لَدَيهِ نَسأَلُ اللهَ خُلدَهُ ... يَرُدَّ لَنا مُلكًا وَلِلأَرضِ عامِرَا
وَنَحنُ نُرَجّي الخُلدَ إن فازَ قِدحُنا ... وَنَرهَبُ قِدحَ المَوتِ إن جاءَ قامِرَا
لَكَ الخَيرُ إن وارَت بِكَ الأَرضُ واحِدًا ... وَأَصبَحَ جَدُّ النَّاسِ يَظلَعُ عاثِرَا

(١) انظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة**، ج١: ص٢٨؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١٥، وهناك رواية غريبة انفرد بها دعبل الخزاعيّ، ومفادها أنّ الغلام الغسانيّ هو الأيهم بن عمرو، وهذا أمر مستبعد، لأنّ هذا الأخير، إن صحّ اسمه (لم يرد هذا الاسم في قوائم كلّ من ابن الكلبيّ و حمزة الأصفهانيّ ونولدكه ، وإنمّا المذكور هو جبلة بن الأيهم (نولدكه، **أمراء غسان**، ٥٧–٦٥)، عاش إلى فترة متأخرة من الإسلام، حتى زمن عمر بن الخطاب، (انظر: مثلًا: الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير(٣١٠هـ)، **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، ط٤، حقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢،ج٣: ص٥٧٠؛ الحليّ،**المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة**، ج٢: ص٥٢٦؛ الذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(٧٤٨هـ)، **سير أعلام النّبلاء**، ط١١، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦، ج٣: ص٥٣٢؛ القلقشنديّ، أبو العباس أحمد بن علي(٨٢١هـ)، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزّمان**، ط٢، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٨٢، ص٩٥).

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧: ٤–٧.

ثمّ يذكر النابغة بعضًا من صفاته، فقد عونًا ونصيرًا لهؤلاء النّاس، لهذا فهو يتضرّع إلى الله أن يرسل الغيث على قبره؛ جزاء لمعروفه مع النّاس[1]:

أَلِكني إلى النُعمانِ حَيثُ لَقيتَهُ ... فَأَهدى لَهُ اللَهُ الغُيوثَ البَواكِرا
وَصَبَّحَهُ فُلجٌ وَلا زالَ كَعبُهُ ... عَلى كُلِّ مَن عادى مِنَ الناسِ ظاهِرا
وَرَبَّ عَلَيهِ اللهُ أَحسَنَ صُنعِهِ ... وَكانَ لَهُ عَلى البَرِيَّةِ ناصِرا

ومن صفاته، أيضًا، كرمه وجوده، وشجاعته؛ فقد خاض حروبًا كثيرة، وقد انتصر فيها[2]:

فَأَلفَيتُهُ يَومًا يُبيرُ عَدوَّهُ ... وَبَحرَ عَطاءٍ يَستَخِفُّ المَعابِرا

من الواضح أنّ النابغة يرثي فيها "النعمان" من موقع المعاين لموته، كما يفهم من شعره السابق، فهر يصف كيف حمل النّاس نعشه على أكتافهم؛ وهذا يعني، بالضرورة، أنّه لا يمكن أن يكون هذا "النعمان" هو النعمان بن المنذر اللخميّ، إذ من المعروف أن هذا الأخير اختفى بعد أن أودع عياله وسلاحه وأمواله هانئ بن قصيبة الشيبانيّ، وذهب إلى المدائن تلبية لطلب خسرو أبرويز[3]، ونحن نعرف أنّ الرواة وشرّاح الشعر، حاولوا الخروج من هذا المأزق[4]، بأن جعلوا النعمان بن المنذر اللخميّ، حين أنشد النابغة قصيدته فيه، مريضًا، ثم شفاه الله من ذلك المرض[5]، معتمدين على دعاء النابغة بأن يردّ الله "النعمان" لعمارة الأرض؛ فيفوز "قدح" الدعاء له بالخلود، لكنّ محاولتهم تصطدم بإسقاطهم احتمال "التمني" في دعاء النابغة، فضلًا عن أنّ

(١) السابق، ق٧: ١٨-٢٠.

(٢) السابق، ق٧: ٢١.

(٣) كما أنّ الأعشى يذكر موت النعمان بن المنذر اللخميّ في "ساباط " قرب المدائن (الأعشى، مميمون بن قيس ابن جندل، **كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير**، نبانة(برلين): مطبعة آذلف هلز هوستن، ١٩٢٧، ق٣٣: ١٨.

(٤) هناك تناقض بين تصوّرهم لهوية النعمان والحقيقة التاريخيّة التي أشار إليها الأعشى.

(٥) انظر، مثلًا، أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل(٣٦٥هـ)، **كتاب جمهرة الأمثال**، ضبط أحمد عبد السلام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، ج٢: ص٢٥٥.

النابغة في مرثيّة أخرى (ق١٩) يستخدم نفس الأسلوب في الدعاء، وفيها يصرّح بهويّة "النعمان" الغسانيّة، إلى جانب اعتباره عودة "النعمان" باتت من الأماني التي لا سبيل إلى تحقيقها[١]:

وَإن يَرجِعِ النُّعمانُ نَفرَح وَنَبتَهِج وَيَأتِ مَعَدًّا مُلكُها وَرَبيعُها
وَيَرجِع إِلى غَسّانَ مُلكٌ وَسُؤدُدٌ وَتِلكَ المُنى لَو أَنَّنا نَستَطيعُها
وَإِن يَهلِكِ النُّعمانُ تُعْرَ مَطِيَّةُ وَيُلقَ إِلى جَنبِ الفِناءِ قُطُوعُها

وقد تمّ الإشارة إلى موقف شوقي ضيف[٢] المشكّك بصحة نسبة الأبيات السابقة(ق٧: ٤-٨) إلى النابغة، وهو يرى، أيضًا، أنّ هذه الأبيات، التي قالها النابغة في مرض"النعمان"، مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعي، والظاهر أنّ موقفه هذا يفسر محاولته للخروج من المأزق السابق، الذي سبقه إليه شرّاح الشعر. وما يسترعي الانتباه في هذه القصيدة، أنّ النابغة ما زال يؤكد لـ"النعمان" أنّ ما وصله من أقوال ما هي إلا دسائس ومكائد من صنع الوشاة والمتربصين به عنده، ولهذا يشير إلى أنّ "النعمان" وضعه تحت المراقبة للتأكّد من صحة ما وصله إليه عنه[٣]:

رَأَيتُكَ تَرعاني بِعَينٍ بَصيرَةٍ وَتَبعَثُ حُرّاسًا عَلَيَّ وَناظِرا
وَذَلِكَ مِن قَولٍ أَتاكَ أَقولُهُ وَمِن دَسِّ أَعدائي إِلَيكَ المَآبِرا

ولا غرابة في ذلك، فقصائد النابغة في الاعتذار إلى النعمان بن الحارث الغسانيّ (ق١؛ ق٤؛ ق٢٧؛ ق٤٩) تحمل في طيّاتها هذا المضمون، وهو بذلك يحاول نفي التّهم عن نفسه حتى في اللّحظات الأخيرة، مستثمرًا ذلك عند من سيخلف النعمان فيما بعد، ليؤكد على ولائه للغساسنة؛ فيحظى عنده بما حظي عند "النعمان" من قبل.

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٩: ١-٣.
(٢) ضيف، **العصر الجاهلي**، ص٢٧٦-٢٧٨.
(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧: ٩-١٠.

في الحقيقة، لا يختلف رثاء النابغة للنعمان بن الحارث الغسانيّ في القصيدة السابقة عنه في القصيدة التاسعة عشرة، بل إنّ هويّة "النعمان" فيها كان دليلًا قويًّا على هويته الغسانيّة في القصيدة السابقة؛ نظرًا للتشابه الكبير بين القصيدتين مضمونًا وأسلوبًا، فالنابغة يصوّر الخير العميم والأمن والدّعة التي نَعِم بها النّاس في عهد النعمان بن الحارث، فملكوا الأرض وسادوا من عليها، لكنّهم بفقده فقدوا كلّ ذلك، وهو في الوقت نفسه يدعو الله أن يعيد لهم "النعمان" لتعود إليهم البهجة والسّرور، كما كانت في سالف عهده، مع ذلك فهو يبيّن أن هذا الأمر من الأمنيات المستحيلة[١]:

وَإن يَرجِعِ النُّعمانُ نَفرَح وَنَبتَهِج ... وَيَأتِ مَعَدًّا مُلكُها وَرَبيعُها
وَيَرجِع إِلى غَسّانَ مُلكٌ وَسُؤدُدٌ ... وَتِلكَ المُنى لَو أَنَّنا نَستَطيعُها
وَإِن يَهلِكِ النُّعمانُ تُعْرَ مَطِيَّةٌ ... وَيُلقَ إِلى جَنبِ الفِناءِ قُطُوعُها
وَتَنحَط حَصَانٌ آخِرَ اللَّيلِ نَحطَةً ... تَقَضْقَضُ مِنهَا أَو تَكَادُ ضُلُوعُها
عَلى إِثْرِ خَيْرِ النَّاسِ إِنْ كَانَ هَالِكًا ... وَإِن كَانَ فِي جَنْبِ الفِرَاشِ ضَجيعُها

وما يثير الدّهشة، هنا، ادعاء الشرّاح وبعض الباحثين أنّ النابغة قال هذه القصيدة في النعمان بن الحارث عندما خرج هذا الأخير إلى بعض متنزهاته[٢]، وزاد البعض[٣]: "إنّ خروج النعمان إلى غزوة من غزواته جعل الشائعات تنتشر في البلاد بأنّه قضى نحبه"، وذهب البعض الآخر[٤] إلى أنّها قيلت في مرض ألمّ بالنعمان بن الحارث عندما كان غائبًا عن بلاده، وقد تعرّض لخطر الموت، وهم بذلك يرون أن النعمان لم يمت، أي أنّ القصيدة لا رثاء فيها أصلًا، في الواقع، هذا الاحتمال وارد لو كان بالإمكان استثناء عبارة "وَتِلكَ المُنى لَو أَنَّنا نَستَطيعُها" من القصيدة؛ فمن

---

(١) السابق، ق١٩: ١-٥.

(٢) انظر: النابغة الذبياني، **الديوان**، ص١٠٧ (مقدمة ق١٩)؛ البطليوسي، **شرح الأشعار الستة**،ج١: ٣٣٦(مقدمة ق١٩).

(٣) العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٤٦.

(٤) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٢.

الواضح أنّ الشاعر جعل عودة "النعمان" من الأماني التي يستحيل تحققها، ومن ثَمّ لا خيار أمامنا إلا القول بموته، إذ كيف لملك دانت له قبائل كثيرة، في شمال الجزيرة وفي وسطها، بل وامتدّ نفوذه ليصل شرقيّ الجزيرة(١)، أن يفقد النّاس الأمل برجوعه إليهم إلا إذا كان قد مات فعلًا.

إلى جانب ذلك، هناك إشارة في البيتين الأول والثاني لا يمكن تجاهلها، ولا يمكن فهمها إلا على أساس موت "النعمان"، فالنابغة يشير فيهما إلى أنّ "معد" فقدت ملكها ومكانتها، التي كانت تنعم بهما في عهد "النعمان"، ولهذا تبدّلت أحوالها، وأنّ غسان نفسها فقدت ملكها وسؤددها، أي أنّها بدأت تفقد هيبتها بين القبائل، فلم تَعُد كما كانت عليه في عهد "النعمان"، في الواقع، لا خيار أمامنا لفهم مثل هذه المعاني إلا من خلال موت الملك الذي كان يؤمّن لها المكانة والهيبة بين القبائل وأعدائهم (الحيرة)، وعليه لا يمكن فهم هذه القصيدة إلا من خلال معنى الرثاء ولا معنى آخر غير الرثاء.

من جهة أخرى، يشير نولدكه(٢) إلى احتمال أنّ النعمان المذكور في البيت الأول هو النعمان الأكبر بن المنذر بن الحارث بن جبلة، الذي تزامن حكمه مع بداية حكم النعمان بن المنذر اللخميّ، أي في سنة ٥٨٢م–٥٨٣م، وإلى أنّ المقصود برجوعه هو رجوعه من الأسر في العاصمة الرومانيّة، لكنّه في الوقت نفسه ينسف هذا الاحتمال بقوله: "غير أننا نجد أنّ الأبيات لا تنطبق على هذا الأمير، لا بسبب الصعوبة التاريخيّة فحسب بل لأنّ المقصود فيها هو الرجوع من الموت إلى الحياة".

---

(١) انظر، الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص١٤، في حديثه عن مساعي الغساسنة إلى فرض سيطرتهم على العراق والبحرين في عهد الحارث الأصغر وولديه النعمان وعمرو؛ كما أنّ النابغة يشير، في شعر له، إلى غزوات النعمان بن الحارث السنويّة ضد قبائل من شيبان وقيس وتميم ، وهذه القبائل، تقطن شرقيّ الجزيرة (النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٢: ١١–١٥)؛ قارن: نولدكه، **أمراء غسان**، ص٣٩.

(٢) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٣٣، ٤٢، ٥٧.

ومن جملة ما رثى النابغة به النعمان بن الحارث الغسانيّ ما جاء في القصيدة الثانية والعشرين، وهي قصيدة طويلة نسبيًّا، فبعد وقوفه على أطلال الديار، كعادة أكثر الشعراء الجاهليين، يشير النابغة إلى الفرح الذي عمّ قبائل ذهل وقيس وشيبان، وهم من بني بكر بن وائل[1]، وكذلك تميم، لمّا أتاهم خبر موت النعمان بن الحارث الغسانيّ، لأنّهم تخلّصوا من شرّ غزواته ضدّهم، مصوّرًا استهجانه من فعلهم، وهو يطلب إلى هذه القبائل ألا تهنأ بموت ملكها "النعمان"[2]:

وَرَبِّ بَنِي البَرْشَاءِ ذُهْلٍ وَقَيْسِهَا   وَشَيْبانَ حَيْثُ اِسْتَبهَلَتها المَنَاهِلُ
لَقَدْ عَالَنِي مَا سَرَّها وَتَقَطَّعَتْ   لِرَوعاتِهَا مِنِّي القُوَى وَالوَسَائِلُ
فَلا يَهنَئِ الأَعداءَ مَصرَعُ مَلْكِهِم   وَمَا عَتَقَتْ مِنهُ تَمِيمٌ وَوائِلُ

وكان النعمان بن الحارث يخرج إلى هذه القبائل في غزوة ، على ما يبدو، كانت سنويّة في موسم الربيع، لتأديب الخارجين منها عن طاعته، في جيش يقوده بنفسه، وقد أشرف على تعبئته لمثل هذه الغزوات[3]:

وَكانَتْ لَهُم رِبعِيَّةٌ يَحْذَرُونَهَا   إِذا خَضخَضَتْ مَاءَ السَّماءِ القَبَائِلُ
يَسِيرُ بِهَا النُّعمَانُ تَغْلِي قُدُورُهُ   تَجِيشُ بِأَسْبابِ المَنَايا المَراجِلُ
يَحُثُّ الحُدَاةَ جَالِزًا بِرِدَائِهِ   يَقِي حَاجِبَيهِ مَا تُثِيرُ القَنَابِلُ

والظاهر أنّ الغساسنة في إخضاعهم لهذه القبائل قسرًا، كما يفهم من شعر النابغة هذا، كانوا يسعون لبسط نفوذهم على مناطق واسعة من أراضي الجزيرة العربية، فهذه القبائل تقطن الجزء

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٣١٤.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٢: ١١-١٣.
(٣) السابق، ق٢٢: ١٤-١٦.

الشرقيّ منها[١]، ومن الجدير ذكره، أنّ حملات النعمان بن الحارث الغسانيّ العسكريّة ضد القبائل العربية من ربيعة في العراق والبحرين، والتي يستذكرهاِ النابغة في مقام رثائه له في هذه القصيدة، هي التي دفعت بسيد من عبد القيس (الممزّق العبديّ) للارتحال إلى ملك من آل جفنة في الشّام مقدمًا له الولاء والطاعة، وفي نفس الوقت يسترحمه في قومه، الذين ينفي عنهم الممزّق، في هذا المقام، أيّة صلة بإساءات ارتكبت في حقه من قِبَلهم؛ ولهذا يستهجن الممزق تلويح قائد من أعوان الملك يدعى "ابن فرتنا" بغزو قومه من غير جرم اقترفوه، طالبًا إلى الملك أن يتولى عقاب قومه بنفسه، وألا يترك الأمر لـ"ابن فرتنا" ، إن كان لا بدّ من ذلك[٢]:

تَروحُ وَتَغدو ما يُحَلُّ وَضِينُها	إِلَيكَ ابنَ ماءِ المُزنِ وَابنَ مُحَرِّقِ
عَلَوتُم مُلوكَ النَّاسِ في المَجدِ وَالتُّقى	وَغَربِ نَدىً مِن عُروَةِ العِزِّ يَستَقي
وَأَنتَ عَمودُ الدِّينِ مَهما تَقُل يُقَل	وَمَهما تَضَع مِن باطِلٍ لا يُلَحَّقِ
وَإِن يَجبُنُوا تَشجُعْ وَإِن يَبخَلوا تَجُدْ	وَإِن يَخرُقوا بِالأَمرِ تَفصِل وَتَفرُقِ
أَحَقًّاأَبَيتَ اللعَّنَ أَنّ ابنَ فَرتَنا	عَلى غَيرِ إِجرامٍ بِرِيقِي مُشَرِّقي
فَإِن كُنتُ مَأْكولًا فَكُن خَيرَ آكِلٍ	وَإِلَّا فَأَدرِكني وَلَمّا أُمَزِّقِ
أَكَلَّفتَنِي أَدواءَ قَومٍ تَرَكتُهُمْ	وَإِلّا تَدارَكْنِي مِنَ البَحرِ أَغرَقِ
فَإِن يُتهِموا أُنجِدْ خِلافًا عَلَيهِمُ	وَإِن يُعْمِنُوا مُستَحقِبي الحَربِ أُعرِقِ
فَلا أَنا مَولاهُمْ وَلا في صَحيفَةٍ	كَفَلتُ عَلَيهِم وَالكَفالَةُ تَعتَقي
وَظَنّي بِهِ أَن لا يُكَدِّرَ نِعمَةً	وَلا يَقلِبَ الأَعداءَ مِنهُ بِمَعبَقِ

من الواضح أنّ "ابن محرّق" الذي يتوجّه إليه الممزّق العبديّ هو نفسه النعمان بن الحارث الغسانيّ الذي يرثيه النابغة في شعره السابق، فبالنظر إلى المخاطب في شعر النابغة وفي شعر

(١) بلادهم تقع بين اليمامة إلى البحرين، وتدخل في أطراف سواد العراق إلى هيت، ولهم ديار بكر في العراق تعرف باسمهم إلى اليوم (انظر، كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، ج١: ص٩٤).

(٢) الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب(٢١٦هـ)، **ديوان الأصمعيّات**، ط٢، تحقيق محمد نبيل الطريفي، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٥، ق٢: ١١-٢٠ (من الزيادات في الكتابين).

الممزق العبديّ نجد أنهما واحد ، وهذا يعني أن كلا الشاعرين يخاطب ملكًا غسانيًا واحدًا، وهو "ابن محرق"، وأنّ "محرقًا" في شعريهما هو الحارث الأصغر بن أبي شمر.

وبالعودة إلى القصيدة نفسها، يكشف النابغة عن حزنه العميق لفراق النعمان بن الحارث، مشيرًا إلى عطاياه التي أغدق عليه بها، وأنّ هذا الملك حظي بمكانة في قلبه، لكنّه فارق المُلك الذي ورثه عن آبائه[1]:

يَقُولُ رِجالٌ يُنكِرونَ خَليقَتي ... لَعَلَّ زِيادًا لا أَبا لَكَ غافِلُ
أَبى غَفلَتي أَنّي إِذا ما ذَكَرتُهُ ... تَحَرَّكَ داءٌ في فُؤادِيَ داخِلُ
وَإِنَّ تِلادي إِن ذَكَرتُ وَشِكَّتي ... وَمُهري وَما ضَمَّت لَدَيَّ الأَنامِلُ
حِباؤُكَ وَالعيسُ العِتاقُ كَأَنَّها ... هِجانُ المَها تُحدى عَلَيها الرَّحائِلُ
فَإِن تَكُ قَد وَدَّعتَ غَيرَ مُذَمَّمٍ ... أَواهِيَ مُلكٍ ثَبَّتَتها الأَوائِلُ

ويبدو أنّ النابغة كان صادقًا، هذه المرّة، في مشاعره اتجاه "النعمان" الذي يكنيه، هنا، "أبا حجر"، فهو يتمنى عودته سالمًا إلى الحياة، ليهنأ النّاس، ويعمّهم الخير، مع أنّه على يقين باستحالة رجوعه إلى الحياة، إلا إنّه يؤمل النفس بذلك[2]:

فَلا تبْعَدَنْ إنَّ المَنِيَّةَ مَوعِدٌ ... وَكُلُّ امرِئٍ يَومًا بِهِ الحالُ زائِلُ
فَما كانَ بَينَ الخَيرِ لَو جاءَ سالِمًا ... أَبو حُجُرٍ إِلّا لَيالٍ قَلائِلُ
فَإِن تَحيَ لا أَملَل حَياتي وَإِن تَمُت ... فَما في حَياتي بَعدَ مَوتِكَ طائِلُ

ثمّ يشير إلى مكان دفنه في الجولان، التي لا يختلف عليها اثنان في كونها أرضًا شاميّة، بين بصرى وجاسم، طالبًا السقيا لهذا القبر، الذي ضمّ رجلًا بَكَته غسان إلى جانب العرب والعجم، فأصبحت ديارهم موحشة لا يطاق العيش بها، لهذا فهم يتمنون رجوعه إليهم[3]:

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٢: ١٧-٢١.

(٢) السابق، ق٢٢: ٢٢-٢٤.

(٣) السابق، ق٢٢: ٢٦-٣٠.

سَقى الغَيثُ قَبرًا بَينَ بُصرى وَجاسِمٍ بِغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قَطرٌ وَوابِلُ
ولا زالَ رَيحانٌ وَمِسكٌ وَعَنبَرٌ عَلى مُنتَهاهُ ديمَةٌ ثُمَّ هاطِلُ
وَيُنبِتُ حَوذانًا وَعَوفًا مُنَوِّرًا سَأُتبِعُهُ مِن خَيرِ ما قالَ قائِلُ
بَكى حارِثُ الجَولانِ مِن فَقدِ رَبِّهِ وَحَورانُ مِنهُ مُوحِشٌ مُتَضائِلُ
قُعودًا لَهُ غَسّانُ يَرجونَ أَوبَهُ وَتُركٌ وَرَهطُ الأَعجَمينَ وَكابُل

من جهة أخرى، ومن خلال القراءة المتأنية للبيتين الأخيرين يمكن التماس رغبة الشاعر بالعودة إلى دياره، فهو يرى أنّ أرض حوران أصبحت موحشة، ولا يطاق العيش فيها، ويبدو أنّ هذه الرغبة بالرحيل عن الشام مرتبطة بتوتر العلاقة بين النابغة وعمرو بن الحارث، الذي خلف أخاه (النعمان) على الحكم، ويمكن استشعار ذلك من خلال إشارة النابغة في الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القصيدة إلى تقدّمه في السنّ، وأنّه وقف على الديار بعدما غاب عنها سبعة أعوام[1]:

دَعاكَ الهَوى وَاِستَجهَلَتكَ المَنازِلُ وَكَيفَ تَصابي المَرءَ وَالشَّيبُ شامِلُ
وَقَفتُ بِرَبعِ الدّارِ قَد غَيَّرَ البِلى مَعارِفَها وَالسّارِياتُ الهَواطِلُ
أُسائِلُ عَن سُعدى وَقَد مَرَّ بَعدَنا عَلى عَرَصاتِ الدّارِ سَبعٌ كَوامِلُ

وإشارة النابغة هذه يفهم منها أنّ هذه الأعوام السبعة هي المدّة التي قضاها وقومه في أكناف الغساسنة، مع أنّ العشماوي يستبعد هذا[2].

في الواقع، ليست هذه المرّة الأولى التي يشير فيها الشاعر إلى ما يبدو أنّها المدّة التي قضاها وقومه بعيدًا عن ديارهم، ففي قصيدته العينيّة، المشار إليها آنفًا، يذكر النابغة أماكن بقي

(١) السابق، ق٢٢: ١-٣.
(٢) انظر: العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٤٨.

يتوهّمها (تمر بخياله) طوال سبعة أعوام، وهذه الأماكن (ذو حسا؛ أريك)، كما يفهم من البلدانيين[1]، تقع في نجد، ضمن ديار ذبيان[2]:

عَفا ذو حُسًا مِن فَرتَنى فَالفَوارِعُ فَجَنبا أَريكٍ فَالتِلاعُ الدَّوافِعُ
فَمُجتَمَعُ الأَشراجِ غَيَّرَ رَسمَها مَصايِفُ مَرَّت بَعدَنا وَمَرابِعُ
تَوَهَّمتُ آياتٍ لَها فَعَرَفتُها لِسِتَّةِ أَعوامٍ وَذا العامُ سابِعُ

الآن، وقد انتهت قصائد النابغة في النعمان بن الحارث الغسانيّ يمكن القول إنّ شعر النابغة فيه يكشف لنا عن الوجه الحقيقي لطبيعة العلاقة بين الطرفين، فهذا الشعر يشفّ عن ملامح الجفاء بينهما، والتي كانت تظهر حينًا وتتوارى حينًا آخر، صحيح أنّ النابغة رثى النعمان الغسانيّ بشعر صادق المشاعر (ق٢٢) لكنّه في الوقت نفسه عبّر عمّا يجول في خاطره اتجاهه واتجاه الغساسنة عمومًا من توتر وقلق في شعر آخر[3]، وهذا ما يمكن إسقاطه على علاقة الذيبانيين المتردية معهم، والتي ساءت إلى أبعد حدّ في عهد خلفه عمرو بن الحارث الغسانيّ.

ثالثًا: عمرو بن الحارث بن أبي شمر.

يظهر عمرو بن الحارث الغسانيّ في تسع قصائد للنابغة الذبيانيّ، وهي القصائد ذوات الأرقام: ٣؛ ٩؛ ٢٤؛ ٢٦؛ ٣٥؛ ٤٦؛ ٥٩؛ ٦٧؛ ٧٥. مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ عمرو بن هند هو نفسه عمرو بن الحارث الغسانيّ خلافًا لما كان يعتقد[4]. وشعر النابغة فيه يعكس طبيعة العلاقة الحقيقيّة التي كانت بين الطرفين، وهي علاقة متوترة ومضطربة، فصفو الحياة التي كان

(١) انظر، الحموي، **معجم البلدان**، "أريك"؛ "ذو حسا".

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢: ١-٣.

(٣) السابق، ق١، ق٤، ق٧، ق١٨، ق١٩، ق٢٧، ق٣٣، ق٤٩، ق٦٠.

(٤) الراميني، عرسان حسين، "عمرو بن هند في الشعر الجاهلي،" **أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات**، مجلد ١٧، عدد٢، ١٩٩٩، ص١٣٠-١٧٣.

ينعم فيها النابغة في البلاط الغسانيّ آن لها أن تتهدد؛ في ظلّ كثرة المتربصين والوشاة، الذين لم يألوا جهدًا في تشويه صورة النابغة وقومه لدى الملك الغسانيّ عمرو بن الحارث. ولهذا جميع قصائد النابغة فيه تعبر عن قلق وخوف ليس على نفسه فحسب بل على قومه، وخصوصًا أنّ هذه المرحلة كانت حاسمة لدى النابغة وقومه، فقد قرّروا العودة إلى القبيلة الأم، ذبيان، بعد أن سوّوا خلافاتهم السابقة معهم، وهو ما يعني أنّ النابغة وقومه تركوا ولاءهم السياسيّ للغساسنة .

ففي القصيدة الثالثة، يشير النابغة إلى ما أصابه من نعمة من وليّ نعمته، عمرو بن الحارث الغسانيّ، كما منّ عليه والده من قبل بنعمة خالصة لا أذى فيها(١):

عَلَـــيَّ لِعَمْـــروٍ نِعمَـــةٌ بَعْـــدَ نِعمَـــةٍ   لِوالِـــدِهِ لَيْـــسَت بِـــذاتِ عَقـــارِبِ

ثمّ يقسم له بيمين صادقة، أنّه ما أساء الظنّ بالملك، كما لم يسئ الظنّ بوالده وأخيه (النعمان) اللذين سبقاه في الحكم، مشيرًا إلى مكان دفنهما، في جلّق وفي صيداء القريبة من حارب(٢):

حَلَفْـــتُ يَمينًـــا غَيْـــرَ ذي مَثْنَوِيَّـــةٍ   وَلا عِلْـــمَ إِلّا حُـــسنُ ظَـــنٍّ بِـــصاحِبِ

لَـــئِن كـــانَ لِلقَبْـــرَينِ قَبْـــرٍ بِجِلَّـــقٍ   وَقَبْـــرٍ بِـــصَيْداءَ الَّـــذي عِنْـــدَ حـــارِبِ

وشرّاح الشعر(٣) ينسبون القبرين إلى والد عمرو وجدّه، أمّا نسبة أحد القبرين إلى والده يبدو أن لا شكّ فيه، فالشاعر، كما سبق، كان قد اتصل بالحارث الأصغر والد عمرو، ومن الطبيعي أن يشير إلى مكان دفنه في مقام كهذا، لكنّ نسبة القبر الثاني إلى جدّه أمر فيه نظر، فعلى الرغم من أنّ النابغة كان يشير، فعلًا، إلى قبر أشهر ملك جفنيّ على الإطلاق؛ فهناك احتمال كبير أنّه يشير إلى قبر أخيه (النعمان بن الحارث الغسانيّ) في صيداء القريبة من "حارب"، وهما من

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣: ٤.

(٢) السابق، ق٣: ٥-٦.

(٣) انظر، مثلًا، البطليوسي، **شرح الأشعار الستة**، ج١: ٢٥١(شعر النابغة، ق٣: ٦).

أعمال دمشق[1]، في الحقيقة، ينبغي ألا تتأثر هذه النتيجة بإشارة النابغة السابقة إلى مكان دفن النعمان بن الحارث الغسانيّ في الجولان بين بصرى وجاسم[2]:

سَقى الغَيثُ قَبرًا بَينَ بُصرى وَجاسِمٍ   بِغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قَطرٌ وَوابِلُ

فنحن نعرف من البلدانيين[3] ، أنّ هناك موضعين يعرفان بصيداء، أحدهما على الساحل، ويعرف بصيداء صور، والآخر بحوران، ويعرف بصيداء حوران، ويعرف اليوم بصيدا، الواقعة في محافظة درعا، وهي تقع ما بين بصرى وجاسم[4]، وعلى ما يبدو أنّها المقصودة في شعر النابغة السابق.

وإذا ما عدنا إلى القصيدة نجد النابغة يشيد بعمرو بن الحارث الغسانيّ كقوة ضاربة في الغزو، وأنّه سيبلغ ما بلغه آباؤه من المجد، فهو يغزو بجيشه، الذي جهّزه من الغسانيين غير مستعين بأحد لأنّه لا يحتاج إلى النصرة من أحد، كلّ من يحاول عصيانه والخروج عن طاعته[5]:

وَلِلحارِثِ الجَفنِيِّ سَيِّدِ قَومِهِ   لَيَلتَمِسَن بِالجَيشِ دارَ المُحارِبِ

وَثِقتُ لَهُ بِالنَّصرِ إِذ قيلَ قَد غَزَت   كَتائِبُ مِن غَسّانَ غَيرُ أَشائِبِ

ثمّ يشير النابغة إلى القوة التعبويّة لهذا الجيش الغسانيّ بقيادة عمرو بن الحارث عدّة وعتادًا، مشيرًا، في الوقت نفسه، إلى قوة بأسهم وشكيمته في الحرب، حتى إنّه يصف في مشهد مثيرّ كيف أنّ أسراب الطير الكاسرة كانت تزحف معهم إلى أرض المعركة تنتظر نصيبها من جثث القتلى، في إشارة إلى قوّتهم، وضعف من يلاقونهم في ساحة القتال[6]:

---

(١) الحموي، **معجم البلدان**، "صيداء"؛ "حارب".

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٢: ٢٦.

(٣) الحموي، **معجم البلدان**، "صيداء".

(٤) انظر، خريطة سوريا التفصيلية عبر الموقع الإلكتروني:
http://www.sfari.com/photo/data/3/7667.jpg

(٥) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣: ٧-٨.

(٦) السابق، ق٣: ١٠-٢٣.

إذا مـا غَزوا بِـالجَيشِ حَلَّـقَ فَـوقَهُم	عَـصائِبُ طَيـرٍ تَهتَـدي بِعَـصائِبِ
يُـصاحِبنَهُم حَتّـى يُغِـرْنَ مُغـارَهُم	مِـنَ الـضّارِياتِ بِالـدِّماءِ الـدَّوارِبِ
تَـراهُنَّ خَلـفَ القَـومِ خُـزرًا عُيونُهـا	جُلـوسَ الـشُّيوخِ فـي ثِيـابِ المَرانِـبِ
جَـوانِحَ قَـد أَيقَـنَّ أَنَّ قَبيلَـهُ	إذا مـا اِلتَقـى الجَمعـانِ أَوَّلُ غالِـبِ
لَهُـنَّ عَلَـيهِم عـادَةٌ قَـد عَرَفنَهـا	إذا عُـرِّضَ الخَطِّـيُّ فَـوقَ الكَواثِـبِ
عَلـى عارِفـاتٍ لِلطِّعـانِ عَـوابِسٍ	بِهِـنَّ كُلـومٌ بَـينَ دامٍ وَجالِـبِ
إذا اِسـتُنزِلوا عَـنهُنَّ لِلطَّعـنِ أَرقَلـوا	إِلـى المَـوتِ إِرقـالَ الجِمـالِ المَـصاعِبِ
فَهُـم يَتَـساقَونَ المَنِيَّـةَ بَيـنَهُم	بِأَيـديهِمُ بـيضٌ رِقـاقُ المَـضارِبِ
يَطيـرُ فُـضاضًا بَينَهـا كُـلُّ قَـونَسٍ	وَيَتبَعَهـا مِـنهُم فَـراشُ الحَواجِـبِ
ولا عيـبَ فـيهِم غيـرَ أَنَّ سُـيوفَهُم	بِهِـنَّ فُلـولٌ مِـن قِـراعِ الكَتائِـبِ
تُـوُرِّثنَ مِـن أَزمـانِ يَـومِ حَليمَـةٍ	إِلـى اليَـومِ قَـد جُـرِّبنَ كُـلَّ التَجـارِبِ
تَقُـدُّ الـسَّلوقِيَّ المُـضاعَفَ نَـسجُهُ	وَتوقِـدُ بِالـصُّفّاحِ نـارَ الحُباحِـبِ
بِـضَربٍ يُزيـلُ الهـامَ عَـن سَـكِناتِهِ	وَطَعـنٍ كَـإيزاغِ المَخـاضِ الـضَّوارِبِ

والظاهر أنّ النابغة يفاخر في هذا المقام بقوة الغساسنة في يوم من أيامهم المشهورة على الحيرة، وهو يوم حليمة، وهذا اليوم، كما يرجح نولدكه[(١)]، وقع سنة ٥٥٤م، وهو نفس اليوم الذي وقع بالقرب من "الحيار/ ذات الحيار"، الذي ذكره الحارث بن حلزة في معلقته بيوم الحيارين[(٢)]:

فَمَلَكنـا بِـذَلِكَ النّـاسَ حَتّـى	مَلَـكَ المُنـذِرُ بِـنُ مـاءِ الـسَّماءِ
وَهُـوَ الـرَّبُّ وَالـشَّهيدُ عَلـى يَـو	مِ الحَيـارَينِ وَالـبَلاءُ بَـلاءُ

ويستند نولدكه إلى هذين البيتين في أنّ الملك اللخميّ الذي قُتل في هذه المعركة هو المنذر بن ماء السماء، وهو يوافق ما نقله ابن الأثير[(١)] وما ذكره المؤرخ "بروكوبيوس"، مشيرًا إلى خلط الرواة العرب بين هذه الموقعة وموقعة "عين أباغ".

(١) نولدكه، **أمراء غسان**، ص١٩.

(٢) الحارث بن حلزة، **الديوان**، جمع وتحقيق إميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١، ق١: ٤٠-٤١.

وبالرجوع مرة أخرى إلى القصيدة، نجد النابغة يمتدح الغساسنة في صفاتهم ودينهم[٢]:

لَهُم شيمَةٌ لَم يُعطِها اللهُ غَيرَهُم ... مِنَ الجودِ وَالأَحلامُ غَيرُ عَوازِبِ
مَحَلَّتُهُم ذاتُ الإِلَهِ وَدينُهُم ... قَويمٌ فَما يَرجونَ غَيرَ العَواقِبِ
رِقاقُ النِعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُم ... يُحَيّونَ بِالرَّيحانِ يَومَ السَّباسِبِ
تُحَيّهِمُ بيضُ الوَلائِدِ بَينَهُم ... وَأَكسِيَةُ الإِضريجِ فَوقَ المَشاجِبِ
يَصونونَ أَجسادًا قَديمًا نَعيمُها ... بِخالِصَةِ الأَردانِ خُضرِ المَناكِبِ
وَلا يَحسَبونَ الخَيرَ لا شَرَّ بَعدَهُ ... وَلا يَحسِبونَ الشَّرَّ ضَربَةَ لازِبِ
حَبَوتُ بِها غَسّانَ إِذ كُنتُ لاحِقًا ... بِقَومي وَإِذ أَعيَت عَلَيَّ مَذاهِبي

الآن، واستنادًا إلى البيت الأخير من هذه القصيدة يمكن الترجيح بأنّ النابغة قرر الرحيل عن الغساسنة، ومن ثَمّ العودة إلى قبيلته ذبيان، لكنّ ذلك لا يعني، بالضرورة، انقطاعه نهائيًا عن الغساسنة؛ فمصلحة قبيلته تتطلب منه التردّد على البلاط الغسانيّ من حين لآخر، وما يؤيّد هذا القول ما نراه من تصريح له بترك أرض الغساسنة في قصيدته الخامسة عشرة، حين يصفهم، بوجه عام، بأنّهم مصابيح في الظّلام، وبأنّهم صابرون على الشّدائد، وبالتّكرم على النّاس، وبالحِلم الواسع، وبالتّطهّر من الخطايا والذنوب، إذ يقول[٣]:

لا يُبعِدُ اللهُ جِيرانًا تَرَكتُهُمُ ... مِثلَ المَصابيحِ تَجلو لَيلَةَ الظُّلَمِ
لا يَبرَمونَ إِذا ما الأُفْقُ جَلَّلَهُ ... بَردُ الشِّتاءِ مِنَ الأَمْحَالِ كَالأَدَمِ
هُمُ المُلُوكُ وَأَبناءُ المُلوكِ لَهُم ... فَضْلٌ عَلى النَّاسِ فِي اللَّأْواءِ وَالنِّعَمِ
أَحلامُ عادٍ وَأَجْسادٌ مُطَهَّرَةٌ ... مِنَ المَعَقَّةِ وَالآفاتِ وَالإِثَمِ

صحيح أنّ النابغة لا يشير في هذه القصيدة، كعادته في القصائد الأخرى، إلى جبروت الغساسنة، وشدّة قهرهم، ولا يتحدّث عن حرب ولا عن غزو، كما أنّها لا تجري على نمط قصائده في عمرو

---

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٣١-٤٣٢.
(٢) السابق، ق٣: ٢٣-٢٩.
(٣) السابق، ق١٥: ١-٤.

ابن الحارث، إلا إنّ هذا لا يمنع من القول بإنّ هذه القصيدة أُنشئت في زمن عمرو بن الحارث؛ إذ إنّ قراره بالرحيل مرتبط بتوتر علاقته مع عمرو بن الحارث؛ فهذه القصيدة وسابقتها، وإن كانتا في ظاهرهما تكشفان عن علاقة حميمة بين النابغة وعمرو بن الحارث الغسانيّ، إلا إنّهما على النقيض تمامًا، فالنابغة، فيمها وفي غيرهما من القصائد، يقف موقف المستشفع، فالراميني[١] يرى أنّ ما تناقله الأخباريون من أنّ قصائد النابغة في عمرو بن الحارث تمثل قصائد مديح لابدّ من النّظر إليه من زاوية المفهوم الواسع للكلمة؛ فالنابغة، من وجهة نظره، لا يختلف، في موقفه هذا، عن كثير من الشعراء الجاهليين، فهو لا يختلف عن علقمة بن عبدة في بائيته التي أنشدها في حضرة الملك الغساني الحارث بن شمر لإطلاق سراح أخيه شأس ، الذي كان من بين أسرى تميم الذين وقعوا في أيدي الغساسنة في معركة عين أباغ ، ومطلعها[٢]:

طَحا بِكَ قَلبٌ في الحِسانِ طَروبُ　　بُعَيدَ الشَّبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ

وهو لا يختلف، كذلك، عن المثقّب العبديّ في داليته التي أنشدها في حضرة "أبي قابوس"، الحارث بن أبي شمر الغسانيّ، لإطلاق أسرى من عبد القيس، ومطلعها[٣]:

إلا إنّ هِندًا أَمسِ رَثَّ جَديدُها　　وَضَنَّت وَما كانَ المَتاعُ يَؤودُها

وهولا يختلف، أيضًا، عن الأعشى في لاميته التي أنشدها في حضرة الأسود بن المنذر اللخميّ، أخي النعمان بن المنذر، ومطلعها[٤]:

ما بُكاءُ الكَبيرِ بِالأَطلالِ　　وَسُؤالي فَهَل تَرُدُّ سُؤالِي

---

(١) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٤٦.

(٢) الشنتمري، الأعلم(٤٧٦هـ)، **شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل** ، تقديم حنّا نصر الحتّي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣، ق١:١.

(٣) المثقب العبديّ، **الديوان**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية (جامعة الدول العربية)، ١٩٧١، ق٣: ١.

(٤) الأعشى، **كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير**، ق١: ١.

حيث يُظهر كل شاعر في قصيدته قدرات من يخاطبه وشدة بأسه ، فيتغنون بانتصاراته المتكرّرة على خصومه، الذين أصابهم القتل والسبي والتشريد؛ بسبب تحديهم لسلطاته، كل ذلك قبل أن يتقدموا إليه بطلب الصفح والعفو، وفكاك وثاق الأسرى والسبي، والاستشفاع إلى أقوامهم، فالنابغة يفعل نفس الشيء في قصائده في عمرو بن الحارث، وبالتأكيد يدخل في هذا الباب قوله(١):

عَلَـــيَّ لِعَمــــرو نِعمَــــةٌ بَعــــدَ نِعمَــــةٍ   لِوالِــــدِهِ لَيــــسَت بِــــذاتِ عَقــــارِبِ

فالاستشفاع للأسرى وإطلاق سراحهم لوساطة الشاعر يعدّ نعمة من الملك عليه وعلى قومه.

والنابغة ينهج نهجًا مميزًا، حين يؤكد للملك الغسانيّ، في موطن آخر (ق٩)، أنه لم يألُ قومه نصحًا لمنعهم من عصيان أوامره، وألا يقوموا بأعمال من شأنها أن تجرّ عليهم نقمة الملك وغضبه، إلا أنهم آثروا عدم الاستماع لنصحه؛ لذا وقعوا في شرّ أعمالهم، فهو يبيّن لعمرو بن الحارث أنّه توجّه إلى قومه، ذبيان، ينهاهم عن تربعهم في وادي ذي أُقُر، الذي كان من بين ما حماه النعمان بن الحارث، فأصبح تحت النفوذ الغسانيّ، فحذّرهم بطش الغساسنة، مشيرًا إلى ما ستؤول له حالهم إن هم عصوه، وصمّموا على رأيهم(٢):

لَقَــد نَهَيــتُ بَنــي ذُبيــانَ عَــن أُقُــرٍ   وَعَــن تَــرَبُّعِهِم فــي كُــلِّ أَصــفارِ
وقلُــتُ يــا قَــومُ إِنَّ اللَّيــثَ مُنقَــبِضٌ   عَلــى بَراثِنِــهِ لِوَثبَــةِ الــضَّاري
لا أَعــرِفَن رَبرَبًــا حــورًا مَــدامِعُها   كَــأَنَّ أَبكارَهــا نِعــاجُ دُوّارِ
يَنظُــرنَ شَــزرًا إِلــى مَــن جــاءَ عَــن عُــرُضٍ   بِأَوجُــهٍ مُنكِــراتِ الــرِّقِّ أَحــرارِ
خَلــفَ العَــضاريطِ لا يــوقَينَ فاحِــشَةً   مُستَمــسِكاتٍ بِأَقتــابٍ وَأَكــوارِ
يُــذرينَ دَمعًــا عَلــى الأَشــفارِ مُنحَــدِرًا   يَــأمُلنَ رِحلَــةَ حِــصنٍ وَابــنِ سَــيّارِ
إِمّــا عُــصيتُ فَــإِنّي غَيــرُ مُنفَلِــتٍ   مِنــي اللِّــصابُ فَجَنبــا حَــرَّةِ النّــارِ
أَو أَضَــعُ البَيــتَ فــي سَــوداءِ مُظلِمَــةٍ   تُقَيِّــدُ العَيْــرَ لا يَــسري بِهــا الــسّاري
تُــدافِعُ النّــاسَ عَنّــا حــينَ نَركَبُهــا   مِــنَ المَظــالِمِ تُــدعى أُمَّ صَــبّارِ

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣: ٤.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٩: ١-٩.

ولكنهّم لم يستمعوا لنصحه، وقد عيّروه بخوفه من الملك الغسانيّ[١]:

وَعَيَّرَتْنِي بَنُو ذُبيانَ خَشيَتَهُ وَهَل عَلَيَّ بِأَن أَخشاكَ مِن عارِ

ويرى فوزي أمين[٢]، من جانبه، أنّ هذه القصيدة تكشف عن محاولات بني أسد وذبيان المتكرّرة لاحتماء بعض المناطق الغسانيّة، والتربّع فيها، وهذا يعني أنّهم كانوا يحاولون التمرّد على البلاط الغسانيّ، دون التفكير بعواقب الأمور، وليس بلا مغزى أن يتوجّه النابغة إلى قومه يصدّهم عن عصيانهم هذا، فهو يعرف حقّ المعرفة معنى التصدّي للغساسنة، وهم من هم من القوّة والبطش، وقد التفت حولهم قبائل قضاعة تمدّهم بالرجال لغزو من يتمرد عليهم[٣]:

ساقَ الرُّفَيداتِ مِن جَوشٍ وَمِن عِظَمٍ وَماشَ مِن رَهطِ رِبعِيٍّ وَحَجّارِ
قَرمَى قُضاعَةَ حَلّا حَولَ حُجرَتِهِ مَدّا عَلَيهِ بِسُلّافٍ وَأَنفارِ
حَتّى اِستَقَلَّ بِجَمعٍ لا كِفاءَ لَهُ يَنفي الوُحوشَ عَنِ الصَحراءِ جَرّارِ
لا يَخفِضُ الرِزَّ عَن أَرضٍ أَلَمَّ بِها وَلا يَضِلُّ عَلى مِصباحِهِ السّاري

في الحقيقة، يكشف موقف النابغة هذا عن خوفه الشديد على قومه، فهو حريص كلّ الحرص على أن يبقى هذا الحلف قائمًا لمواجهة أي غزو خارجيّ، سواء أكان من جانب الغساسنة أم من جانب القبائل الموالية لهم، فضلًا عن حرصه الشّديد على مصلحة القبيلة التي تحتّم عليه المحافظة على صداقته مع الغساسنة ومهادنتهم[٤] كلّما تطلب الأمر؛ ولهذا ينبغي ألا يفهم، من هذا الشعر، أن النابغة ينأى بنفسه عن قومه، وأنه يقف على الحياد، وإنما هي طريقته ونهجه

---

(١) السابق، ق٩: ١٤.
(٢) أمين، **قراءة جديدة في شعر النابغة الذبيانيّ**، ص١٥.
(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٩: ١٠-١٣.
(٤) العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٣٩.

المتميز في استدرار عطف الملك، ومناشدته ألا يعيده إلى قومه خائبًا حين يطلب شفاعته في قومه(١).

كما أنَّ الشاعر الإسلاميّ عمر بن لجأ التميميّ يشير، من جانبه، في معرض هجائه لجرير، إلى سبي نساء بني كليب بن يربوع على يد بني تميم، ويؤكّد أنّ هذا حدث في يومي "سلمان" و"أُقُر"(٢):

يا لُؤمَ رَهطِ كُلَيبٍ في نِسائِهِم ما قاتَلوا القَومَ إذ تُسبى وَلا شَكَروا
فاِستَردَفوا النِسوَةَ اللاتي وَلَدنَهُمُ خَلفَ العَضاريطِ في أَعناقِها الخمُرُ
لَم يُدرِكوها وَأَلهَتهُمُ أَناتُهُم حَتّى أَتى دونَها سَلمانُ أَو أُقَرُ

من الواضح أنّ عمر بن لجأ يؤكّد ما جاء في شعر النابغة السابق، إلا إنّه يضيف معلومة أخرى، وهي أنّ التميميين استطاعوا سبي نساء لبني كليب في يوم" سلمان"، وسلمان، بحسب البلدانيين(٣)، جبل يبعد عشرين فرسخًا عن وادي"أُقُر"، وهما ما بين الكوفة والبصرة.

الآن، ومن خلال هذه القصيدة، يمكن فهم علاقة النابغة وقومه بالغساسنة عمومًا وبعمرو بن الحارث الغسانيّ خصوصًا، على أنّها علاقة تقوم على توتر وعداوة، وليس على قرب وتودّد، كما يُفهم من تعليق فوزي أمين(٤).

فغزوات عمرو بن الحارث المتكرّرة على القبائل التي تدين بولائها للحيرة من شأنها أن توتر هذه العلاقة، خصوصًا وأنّ هذه القبائل تدخل في أحلاف ومواثيق فيما بينها، ومن بين هذه

---

(١) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٤٦.

(٢) عمر بن لجأ التميميّ، **الديوان**، ط٣، تحقيق يحيى الجبوري، الكويت: دار القلم، ١٩٨٣، ق٦: ٩٠-٩٢.

(٣) يشير ياقوت الحمويّ إلى أنّ الغلبة في يوم سلمان كانت لبكر بن وائل على بني تميم مستشهدًا ببيت لجرير يتغنى فيه بهذا اليوم:

بِئسَ الحُماةُ لِتَميم يَومَ سَلمانِ يَومَ تَشدُّ عَلَيكمُ كَفُّ عِمْرانِ

(الحموي، **معجم البلدان**، "سلمان")

(٤) أمين، **قراءة جديدة في شعر النابغة الذبيانيّ**، ص٩-١٠.

الغزوات غزوة شنّها على العراق تأديبًا لأهلها، ويبدو أنّ مثل هذا الأمر ما كان ليتم لولا شعور الغساسنة بأنّ الفرصة مهيّأة لذلك، أي عندما بدأت مملكة الحيرة تلفظ أنفاسها الأخيرة في أواسط العقد الأول من القرن السابع الميلادي. ففي موطن آخر من شعره (ق٢٤)، يشير النابغة، بعد مقدمة طلليّة، إلى حزم من يسمّيه "ابن هند" وإلى تمام أمره، لاسيّما إذا تعلّق الأمر بالغزو، فهو رجل المهمّات الشريفة الذي لا يهدأ ولا يسكن إلا إذا حقّق مراده، ولهذا كان يجهّز الجيوش بالرجال والسلاح للغزو[١]:

وَلَكِن ما أَتاكَ عَنِ ابنِ هِندٍ مِنَ الحَزمِ المُبَيَّنِ وَالتَمامِ
فِداءٌ ما تُقِلُّ النَعلُ مِنّي إِلى أَعلى الذُؤابَةِ لِلهُمامِ
وَمَغزاهُ قَبائِلَ غائِظاتٍ عَلى الذِهيَوطِ في لَجِبٍ لَهامِ
يُقَدنَ مَعَ اِمرِئٍ يَدَعُ الهُوَينا وَيَعمِدُ لِلمُهِمّاتِ العِظامِ
أُعينَ عَلى العَدوِّ بِكُلِّ طِرفٍ وَسَلهَبَةٍ تُجَلَّلُ في السِمامِ
وَأَسمَرَ مارِنٍ يَلتاحُ فيهِ سِنانٌ مِثلُ نِبراسِ النِهامي

كما يشير إلى غزو "ابن هند" لبني حرام بن جذام؛ بعد أن أظهروا عصيانهم له، فغزاهم بالخيل السريعة، بعد أن أرسل الأدلة يتقصّون أمرهم، ومن ثَمّ أرسل إليهم طلائع الجيوش، حتى أنّ أعداءهم لم يعلموا بمسيره إليهم، فصبّحهم بالقتل والتشريد والسبي، فهم كالسكارى من شدّة ما بهم من قتل وحيرة[٢]:

وأنبَأَهُ المنبّئُ أَنَّ حَيًّا حُلولًا مِن حِزامٍ أَو جُذامِ
وأَنَّ القَومَ نَصرُهُمُ جَميعٌ فِئامٌ مُجْلِبُونَ إِلى فِئامِ
فَأَوردَهُنَّ بَطْنَ الأَتمِ شُعثًا يَصُنَّ المَشيَ كَالحِدَءِ التُؤامِ
عَلى إِثْرِ الأَدِلَّةِ وَالبَغايا وَخَفْقِ النَاجِيَاتِ مِنَ الشَآمِ
فَباتُوا سَاكِنِينَ وَباتَ يَسْرِي يُقَرِّبُهُم لَهُ لَيلُ التِّمَامِ

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٤: ١٦-٢١.
(٢) السابق، ق٢٤: ٢٢-٣٠.

فَــصَبَّحَهُم بِهــا صَـــهْبَاءَ صِـــرفًا كَـــأَنَّ رُؤوسَـــهُم بَـــيضُ النَّعَـــامِ
فَـــذَاقَ المَـــوتُ مَـــن بَرَكَـــتْ عَلَيـــهِ وَبِالنّـــــــــاجِينَ أَظفــــــــارٌ دَوَامِ
وهَـــُـــنَّ كَـــأَنَهُنَّ نِعَـــاجُ رَمْـــلٍ يُـــسَوّينَ الـــذُّيولَ عَلـــى الخِـــدَامِ
يُوَصِّــــينَ الـــــرُواةَ إذا أَلَمُّـــوا بِـــشُعْثٍ مُكـــرَهِينَ عَلـــى الفِطَـــامِ

ويصف وقائع المعركة بين "ابن هند" وأعدائه، في إشارة منه إلى أنّ أعداءه لم يحقّقوا ما كانوا يؤمّلونه، بل منوا بهزيمة نكراء، على يد رجل كان المجد سيرته كما كان سيرة آبائهم من قبل(١):

فَهَـــــمَّ الطَّـــــالِبونَ لِيَطْلُبُـــــوهُ وَمَـــا رامُـــوا بِـــذَلِكَ مِـــن مَـــرامِ
إلـــى صَـــعبِ المَقَـــادَةِ ذي شَـــريسٍ نَمـــاهُ فـــي فُـــروعِ المَجـــدِ نـــامِ
أَبـــــوهُ قَبلَـــــهُ وَأَبـــــو أَبيـــــهِ بَنَـــوا مَجـــدَ الحَيـــاةِ عَلـــى إِمـــامِ

والأهم من هذا أنّ "ابن هند" استطاع أن يقهر أهل العراق وأن يُذلّ أهلها، حتى أصبح لخيله أرض هناك ترعى بها من دون أن يعترضها أحد؛ لعلمهم بقوّة صاحبها وجبروته(٢):

فَـــدَوَّختَ العِـــراقَ فَكُـــلُّ قَـــصرٍ يُجَلَّـــلُ خَنـــدَقٌ مِنـــهُ وَحـــامِ
وَمـــا تَنفَـــكُّ مَحلـــولًا عُراهـــا عَلَـــى مُتَنـــاذِرِ الأَكْـــلاءِ طـــامِ

وعلى الرغم من اختلاف الرواة في هويّة "ابن هند"، الذي يذكره النابغة في هذه القصيدة، أهو لخميّ أم غسانيّ؟ إنّ هذا الاختلاف نابع أساسًا من تشابه الأسماء في سلاسل النسب لدى آل جفنة وآل نصر، والراجح أنّ "ابن هند" في شعر النابغة السابق ملك غسانيّ، ويبدو أنّ الرّواة، اعتمدوا على كنية "ابن هند" الواردة في البيت السادس عشر للقول بلخميّة "ابن هند"، وبما أنّ عمرو بن هند، وهو عمرو بن المنذر بن ماء السماء، أكثر ملوك الحيرة شهرة، فقد قرّروا أنّ هذه القصيدة قيلت فيه(٣)، وقد لاحظ ابن الكلبيّ الصعوبة التاريخيّة التي تنتج عن هذا الاستنتاج، فهو

(١) السابق، ق٢٤: ٣٢-٣٤.
(٢) السابق، ق٢٤: ٣٥-٣٦.
(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٣٩-٤٠.

يرى أنّ عمرو بن المنذر اللخميّ حكم قبل نصف قرن من الإسلام[١]، إلا إنّه قرّر أنّ هذا الملك هو المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخميّ[٢]، لكنّ أبا عبيدة اعترض على كلّ هذا، مشيرًا إلى أنّ "ابن هند" هنا لا يعقل أن يكون ملكًا لخميًّا، وإنّما هو من أعدائهم؛ آخذًا من غزوه للعراق دليلًا على ذلك[٣]، كما يشير النابغة[٤]:

فَدَوَّخْتَ العِراقَ فَكُلُّ قَصرٍ   يُجَلَّلُ خَنْدَقٌ مِنهُ وَحامِ

ثمّ إنّ أبا عبيدة هو وحده من أشار إلى أنّ" ابن هند" الذي يمدحه النابغة هو عمرو بن الحارث الغسانيّ، إلا إنّ إشارته هذه لم تلق آذانًا صاغية لدى الباحثين والمحقّقين لديوانه[٥]، حتى جاء نولدكه ونبّه إلى صحة رواية أبي عبيدة، مشيرًا إلى اتفاقها مع مجموعة من الحقائق التي تتضمّنها القصيدة نفسها[٦]، وأكّد العشماوي، من جانبه، على غسانيّة "ابن هند" في هذه القصيدة[٧]، إلا إنّه لم يشر إلى حقيقة كونه عمرو بن الحارث الغسانيّ كما يرى أبو عبيدة.

في الحقيقة، من جملة ما يؤيّد رواية أبي عبيدة، التي مفادها أنّ هذا الملك غسانيّ وليس لخميًّا، أنّ النابغة يشير في مقدمة القصيدة، إلى "بصرى" و"بيت رأس"، وقد كان الخمر يصنع بهما، ويرسل على جمال البخت إلى رجل خمّار يسمّيه"لقمان" ليبيعه هذا الأخير في الأسواق[٨]:

كَأَنَّ مُشَعشَعًا مِن خَمرِ بُصرى   نَمَتهُ البُختُ مَشدودَ الخِتامِ
نَمَينَ قِلالَهُ مِن بَيتِ راسٍ   إِلى لُقمانَ في سوقٍ مُقامِ

---

(١) الراميني، عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، ص١٤٥.
(٢) البكريّ، **معجم ما استعجم**، ج٢: ص٦١٨.
(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٠.
(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٤: ٣٥.
(٥) يشير العشماوي إلى أنّ النشرات المختلفة لديوان النابغة ما تزال تصرّ على أنّ هذه القصيدة قيلت في عمرو ابن هند اللخميّ، وأنّ ديرنبرج الذي نشر الديوان وقع في نفس الخطأ (العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٤٥).
(٦) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٠ .
(٧) العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٥٤-٥٧.
(٨) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٤: ٩-١٠.

وبصرى وبيت رأس[١] موضعان في الشام، وهما تحت النّفوذ الغسانيّ. كما أنّه يشير إلى أنّ هذا الملك وجّه إحدى غزواته إلى "الأتم" قادمًا من الشام[٢]:

فـأ وْرَدَهُـنّ بَطـنَ الأَتْـمِ شُـعثًا   يَـصُنّ المَـشيَ كَالحِـدَءِ التُّـؤامِ

عَلـى إثـرِ الأَدِلَّـةِ وَالبَغايـا   وَخَفـقِ النَّاجِيـاتِ مِـنَ الـشَّآمِ

و"الأتم"، بحسب البلدانيين[٣]، موضع لبني سُليم[٤] على بعد تسعة أميال من "المسلح"، وهو من منازل الحاجّ بالكوفة، فهو موضع بالعراق، ويذكر النابغة، أيضًا، "حِسمى" حين غزا عمرو بن الحارث الغسانيّ بني حرام بن جذام[٥]:

وَأَضـحى سـاطِعًا بِجِبـالِ حِـسمى   دُقـاقُ التُّـربِ مُختَـزِمُ القَتـامِ

ونحن نفهم من البلدانيين[٦]، أيضًا، أنّ "حِسمى" بلد جُذام، وهو ببادية الشام، وهذا يعني، بالضرورة، أنّها واقعة تحت النّفوذ الغسانيّ، ويذكر النابغة "الذهيوط"[٧]، وهو موضع بالعراق[٨]:

وَمَغـزاهُ قَبائِـلَ غائِظـاتٍ   عَلى الـذِهيَوطِ فـي لَجِـبٍ لَهـامِ

من جهة أخرى، تكشف لنا المواضع والأماكن التي يذكرها النابغة (الأتم؛ حِسمى؛ الذهيوط) عن امتداد رقعة الأراضي التي نزلت بها جذام، وهي ما بين مشارف الكوفة و بين أيلة حتى تصل

---

(١) الحموي، **معجم البلدان**، " بيت".

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٤: ٢٤-٢٥.

(٣) انظر، مثلًا، الحموي، **معجم البلدان**، "الأتم".

(٤) وهم بطن من جذام (انظر: كحالة، **معجم قبائل العرب**، ج٢: ص٥٤٣).

(٥) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٤: ٣١.

(٦) انظر، مثلًا، الحمويّ، **معجم البلدان**، "حِسمى".

(٧) البكري، **معجم ما استعجم**، "الذهيوط".

(٨) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٤: ١٨.

إلى ينبع[1]، وهذا يتفق مع ما يقوله الشاعر الإسلاميّ جميل بثينة، في معرض مدحه لأخواله من جُذام[2]:

جُذامٌ سُيوفُ اللهِ في كُلِّ مَوطِنٍ إذا أَزَمَت يَومَ اللِّقاءِ أُزامِ
هُمُ مَنَعوا ما بَينَ مِصرٍ فَذي القُرى إلى الشَّامِ مِن حِلٍّ بِهِ وَحَرامِ

وهذه الرقعة الواسعة كانت تحت النّفوذ الغسانيّ، كما يفهم من البكريّ[3]، ومن المرجّح أنّ بعضًا من بطون جُذام، لاسيّما القريبة من العراق، خرجت عن طاعة آل جفنة وجاهرت بعصيانهم، ولهذا أغار عليهم "ابن هند" لتأديبهم، وإخضاعهم لنفوذه من جديد. من كلّ ما سبق نستطيع القول، باطمئنان كبير، إنّ "ابن هند" الذي يذكره النابغة في هذه القصيدة، ما هو إلا ملك غسانيّ، وهو، بحسب دراسة حديثة[4]، عمرو بن الحارث الأصغر، الذي حكم في نهاية القرن السادس الميلادي.

مرّة أخرى، يكشف النابغة عن شرّ أعمال عمرو بن الحارث في غزوه للقبائل العربية، وعن سعيه للتوسّط عنده مستشفعًا لفكاك الأسرى وردّ السبايا والأموال المغتصبة، ففي القصيدة السادسة والعشرين، يشير النابغة إلى غزو عمرو بن الحارث الغسانيّ لأبناء عمومته، بني مرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان، بعدما أعلنوا تحديهم للملك الغسانيّ وعصيان أمره، لهذا نراه يعد الملك

(١) انظر، مثلًا، الهمداني، أبو محمد الحسن بن يعقوب(٣٣٤هـ)، **صفة جزيرة العرب**، ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٤، ص١٣٩.

(٢) جميل بثينة، ابن عبد الله بن معمر العذري(٨٣هـ)، **الديوان**، جمع بشير يموت، بيروت: المكتبة الأهلية، ١٩٣٤، ص٦٠.

(٣) ابن البكريّ، **معجم ما استعجم**، ج١: ص٧٥ (المقدمة).

(٤) الراميني، عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، ص١٤٤-١٤٦.

الغسانيّ أنّه سيتوجّه إليهم بالنصح، فيعودوا عمّا صمموا عليه، ولكنّه لم يفلح، فلم يستمعوا لاستصراخه ولا لنصائحه، ولهذا لم يستطع لقاء الملك، فهو منشغل بردّ القوم إلى رشدهم(١):

وَإِنّي عَداني عَن لِقائِكَ حادِثٌ   وَهَمٌّ أَتى مِن دونِ هَمِّكَ شاغِلُ
نَصَحتُ بَني عَوفٍ فَلَم يَتَقَبَّلوا   وَصاتي وَلَم تَنجَح لَدَيهِم وَسائِلي

وهو مشفق عليهم ممّا سيحلّ بهم من قتل وتشريد وسبيّ فهو يعرف قوّة الغساسنة وشكيمتهم في الحرب(٢):

فقَلُتُ لهُم لا أَعرِفَنَّ عَقائِلًا   رَعابيبَ مِن جَنبَي أَريكٍ وَعاقِلِ
ضَوارِبَ بِالأَيدي وَراءَ بَراغِزٍ   حِسانٍ كَآرامِ الصَّريمِ الخَواذِلِ
خِلالَ المَطايا يَتَّصِلنَ وَقَد أَتَت   قِنانُ أَبيرٍ دونَها وَالكَوائِلِ

ولهذا يطلب إليهم ناصحًا أن يتركوا ما بين الجناب وعالج للملك ويرحلوا عنه، خوفًا عليهم من تسلّطه وبطشه(٣):

وَخَلّوا لَهُ بَينَ الجِنابِ وَعالِجٍ   فِراقَ الخَليطِ ذي الأَذاةِ المُزايِلِ

فهو يعرف كيف يردّ لهم سباياهم وأموالهم المغتصبة(٤):

وَلا أَعرِفَنّي بَعدَما قَد نَهَيتُكُم   أُجادِلُ يومًا في شَوِيٍّ وَجامِلِ

ويشير إلى تخويفهم بعمرو وجيشه، الذي جهّزه بالعتاد وبالجياد القويّة وبالإبل السريعة وبالرجال الذين يلبسون الدروع الصلبة، فهو يشفق عليهم(٥) :

وَقَد خِفتُ حَتّى ما تَزيدُ مَخافَتي   عَلى وَعِلٍ في ذي المَطارَةِ عاقِلِ

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٦: ١٠-١١.
(٢) السابق، ق٢٦: ١٢-١٤.
(٣) السابق، ق٢٦: ١٥.
(٤) السابق، ق٢٦: ١٦-١٧.
(٥) السابق، ق٢٦: ١٨-٢٠، ٢٥-٢٧.

مَخافَــةَ عَمــرٍو أَن تَكــونَ جِيــادُهُ يُقَــدنَ إِلَينــا بَــينَ حــافٍ وَناعِــلِ
إِذا اِســتَعجَلوها عَــن سَــجِيَّةِ مَــشيها تَبلَّــغُ فــي أَعناقِهــا بِالجَحافِــلِ
مُقَرَّنَـــةً بِـــالعيسِ وَالأُدمِ كَالقَنـــا عَلَيهــا الخُبــورُ مُحقَبــاتُ المَراجِــلِ
وَكُـــلُّ صَـــموتٍ نَثلَـــةٍ تُبَّعِيَّـــةٍ وَنَـــسجُ سُـــلَيمٍ كُـــلَّ قَـــضّاءَ ذائِـــلِ
عَلَـــينَ بِكِـــديَونٍ وَأُبطِـــنَّ كَـــرَّةً فَهُـــنَّ وِضـــاءٌ صـــافِياتُ الغَلائِـــلِ

فعمرو هذا الذي يعرفه، لا يتراجع عن أمر همّ به، ولا يمنعه مانع عن تحقيق ما صمّم عليه؛ لقوّته وجَلَده، فهو كالموت لأعدائه، وكالغيث لأوليائه، يحوّل الأرض السعيدة إلى كئيبة من كثرة القتل والتشريد لأعدائه، يغزوها بجيش جرار كأنّه حرة راجل لكثرته واسوداده[١]:

عَتــادُ اِمــرُئٍ لا يَــنقُضُ البُعــدُ هَمَّــهُ طَلــوبُ الأَعــادي واضِــحٌ غَيــرُ خامِــلِ
تَحـــينُ بِكَفَّيـــهِ المَنايـــا وَتـــارَةً تَـــسُحّانِ سَـــحًّا مِـــن عَطـــاءٍ وَنائِـــلِ
إِذا حَـــلَّ بِـــالأَرضِ البَرِيَّـــةِ أَصـــبَحَت كَئيبَـــةَ وَجـــهٍ غِبُّهـــا غَيـــرُ طائِـــلِ
يَـــؤُمُّ بِرِبعِـــيٍّ كَـــأَنَّ زُهـــاءَهُ إِذا هَـــبَطَ الـــصَّحراءَ حَـــرَّةُ راجِـــلِ

من الواضح أنّ النابغة يفصح عن خوفه على بني جلدته، ولهذا يطلب إلى عمرو بن الحارث الغسانيّ أن يعطيه الفرصة؛ ليتوجّه إليهم بالنصح لعلّهم ينثنوا عمّا صمّموا عليه من عصيان أمر الملك الغسانيّ، ولكنّهم لم ينتصحوا، فلحقهم الأذى من جانب الملك وجيشه، وليس بلا مغزى أنّ الملك الغسانيّ كان عازمًا، هذه المرّة، على غزو بني مرة بن عوف، فمن المؤكّد أن عزمه هذا كان بسبب اعتداء المريين على أراض لبني عذرة ما بين الجِناب ورمل عالج، فبعض أراضي هذه المنطقة الواقعة في صحراء الدهناء/ النفود مشتركة بين فزارة، وعذرة[٢]، وبما أنّ فزارة أبناء عمومة لبني مرة بن عوف[٣]، فقد أنزلوهم بعض هذه الأراضي، في أعقاب عودة هؤلاء إلى القبيلة الأم

(١) السابق، ق٢٦: ٢٨-٣١.
(٢) الحمويّ، **معجم البلدان**، "الجناب".
(٣) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٤٨١.

(ذبيان)، بعد أن سوّوا خلافاتهم معهم، ويبدو أنّ هذه الأراضي كانت تابعة لبني عذرة، التي تدين بولائها لغسان، ولهذا نرى النابغة يلحّ على بني مرّة أن يتركوا ما بين الجناب وعالج[1] :

وَخَلّوا لَهُ بَينَ الجِنابِ وَعالِجٍ   فِراقَ الخَليطِ ذي الأَذاةِ المُزايِلِ

والظاهر أنّ النابغة كان متوجسًا على بني مرةِ بن عوف من بطش عمرو بن الحارث الغسانيّ، ولهذا نراه يستشفع لهم عند الملك ليعيد لهم سباياهم وأسراهم وأموالهم.

لم ينفك عمرو بن الحارث عن مقاتلة قوم النابغة، فالنابغة، من جديد، يكشف عن تردي العلاقة بين الطرفين، ففي القصيدة التاسعة والخمسين يحذّر النابغة، كعادته، قومه بطش من يسمّيه "ابن هند"، إذ إنّه عازم على غزوهم بجيش قويّ، ويشير إليهم أنّ "ابن هند" هذا، كعادته، ما إن تنتهي الحرب حتى يسعرها من جديد، فهو مستعدّ للقاء أعدائه[2]:

إنِّي أَظُنّ ابنَ هِندٍ غَيرُ تارِكِكُم   بِالقُرْنَتَيْنِ وَلَمّا تَفْزَعِ النَّعَمُ
حتّى تَراءَوْهُ مَعْصُوبًا بِلمَّتِهِ   نَقْعُ القَنَابِلِ في عِرنِينِهِ شَمَمُ
قَدْ خَلَّتِ الحَربُ عَنْهُ فَهو يُسْعِرُها   كَالهُندُوانِيِّ حلَّى حَدَّهُ الأَدَمُ
شِهَابُ حَربٍ يَدينُ الظَّالِمون لهُ   في كُلِّ حَيٍّ لَهُ البَأسَاءُ والنِّعَمُ

فالنابغة حين يحذّر قومه من غزو "ابن هند" يفصح عن سبب غزو هذا الأخير لهم، وهو كما يقول: "إنِّي أَظُنُّ ابنَ هِندٍ غَيْرَ تَارِكِكُمْ بِالقُرْنَتَيْنِ"، أي بسبب "القرنتين"، وهو يوم لغطفان على بني عامر بن صعصعة[3]، ونحن نعرف من شعر للبيد بن ربيعة العامريّ[4] أنّ غطفان لم تكن وحدها في هذا اليوم، بل جمعت أحلافها من أسد وضبّة وبعض طيء لملاقاة بني عامر بن صعصعة:

وَغَداةَ قاعِ القُرنَتَينِ أَتَينَهُم   رَهوًا يَلوحُ خِلالَها التَّسويمُ

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٦: ١٥.

(٢) السابق، ق٥٩: ١-٤.

(٣) الحموي، **معجم البلدان**، " قرن"، قارن: الزمخشري، الأمكنة والمياه والجبال، ص١٨٧.

(٤) لبيد بن ربيعة العامريّ، **الديوان** (شرح الطيوسي)، تقديم حنا نصر الحتي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣، ق٧٣: ٤١-٤٥.

بِكَتائِـــــبٍ تَـــــردي تَعَـــــوَّدَ كَبـــــشُها نطَـــــحَ الكِبـــــاشِ كَـــــأَنَّهُنَّ نُجـــــومُ
نَمــضي بِهـــا حَتّـــى تُـــصيبَ عَـــدُوَّنا وَتُـــــرَدَّ مِنهـــــا غـــــانِمٌ وَكَلـــــيمُ
وَتَـــرى المُـــسَوَّمَ فـــي القِيـــادِ كَأَنَّـــهُ صَـــعِلٌ إِذا فَقَـــدَ الـــسِّباقَ يَـــصومُ
وَكَتيبَـــــةُ الأَحـــــلافِ قَـــــد لاقَيـــــتُهُم حَيـــــثُ اِســـــتَفاضَ دَكـــــادِكٌ وَقَـــــصيمُ

ومع أنّ شعر لبيد يوحي بأنّ الغلبة كانت لبني عامر في ذلك اليوم، إلا إنّ أوس بن حجر التميميّ يكشف لنا خلاف ذلك، ففي شعر له يذكّر قومه بالعار الذي لحق بهم عندما افتدى الأقرعان (الأقرع بن حابس وأخوه فراس التميميّان) نفسيهما حين وقعا في أسر بسطام بن قيس الشيبانيّ، فطلبا منه فكاك أسرهما مقابل فدية يرسلانها له، وقد عاهداه على ذلك(١)، ومنكرًا عليهما هذه المعاهدة؛ لما لحق بهم القتل في ذلك اليوم(٢):

وَصَـــــبَّحَنا عـــــارٌ طَويـــــلٌ بِنـــــاؤُهُ نُـــسَبُّ بِـــهِ مـــا لاحَ فـــي الأُفْـــقِ كَوكَـــبُ
فَلَـــم أَرَ يَومًـــا كـــانَ أَكثَـــرَ باكِيًـــا وَوَجهًـــا تُـــرى فيـــهِ الكَآبَـــةُ تَجنَـــبُ
أَصـــابوا البَـــروكَ وَابـــنَ حـــابِسٍ عَنـــوَةً فَظَـــلَّ لَهُـــم بِالقـــاعِ يَـــومٌ عَصَبـــصَبُ
وإِنَّ أَبـــا الـــصَهباءِ فـــي حَومَـــةِ الـــوَغى إِذا اِزوَرَّتِ الأَبطـــالُ لَيـــثٌ مُحَـــرَّبُ
وَمِثـــلَ اِبـــنَ غَـــنمٍ إِن ذُحـــولٌ تُـــذُكِّرَت وَقَتلـــى تَيـــاسٍ عَـــن صَـــلاحٍ تُعَـــرِّبُ
وَقَتلـــى بِجَنـــبِ القُـــرنَتَينِ كَأَنَّهـــا نُـــسورٌ سَـــقاها بِالـــدِّماءِ مُقَـــشِّبُ

في الحقيقة، شعر أوس بن حجر هذا يتفق مع ورد في البيت الأول من شعر النابغة السابق، فالنابغة يؤكد لقومه (غطفان) أنّ "ابن هند" لن يتركهم على ما فعلوه بالقرنتين، وهو اعتداؤهم على بني عامر، كما أخبر لبيد، وقتلهم مع أحلافهم لتميم، كما يشير أوس، والآن ومن خلال إعادة تركيب صورة يوم القرنتين في مساره التاريخي الصحيح، نجد أنّ غطفان، ومن معها من القبائل الموالية للحيرة، قامت باعتداء على بني عامر ومن حالفهم من تميم، وبما أنّ بني عامر بن

---

(١) للاستزادة انظر، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٧٦-٤٧٤.

(٢) أوس بن حجر التميميّ، **الديوان**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠، ق٢: ٥-١٠، أبو الصهباء بسطام بن قيس الشيبانيّ.

صعصعة، كما تشير بعض الدراسات الحديثة(١)، كانوا موالين للغساسنة؛ فمن المؤكد أنّ "ابن هند"، الذي يشير النابغة إلى عزمه لغزو غطفان، هو ملك غسانيّ، وأنّه ما كان ليغزو غطفان لولا شعوره بأنّ ما فعلته غطفان، ومن حالفها، بالقرنتين هو، بحدّ ذاته، تحد سافر لسلطته.

وعلى ما يبدو تجاهلت غطفان تحذير النابغة لهم من عمرو بن الحارث (ابن هند)؛ فهو، في نظرهم، يتخوّف من الغساسنة، ولهذا أخذوا يعيّرونه بذلك(٢):

وَعَيَّرَتني بَنو ذُبيانَ خَشيَتَهُ وَهَل عَلَيَّ بِأَن أَخشاكَ مِن عارِ

ولكنّ النابغة لا يعبأ بأقوالهم، فهو يعرف الغساسنة حق المعرفة، ويعرف تصميم ملكهم عمرو بن الحارث إذا عزم على الحرب لا ينفك أبدًا عن البطش بأعدائه(٣)، ولهذا يلقّبه بـ" الحارث الحرّاب"(٤)، ويقترح الراميني(٥)، من جانبه، أن يكون الحارث الحرّاب ابنًا لعمرو بن الحارث الغسانيّ، ثم ما يلبث أن يستدرك بقوله(٦): "فربّما كان "ابن هند" في قصيدة "أتاركة تدللها قطام" هو نفسه الحارث الحراب المذكور هنا"، وهو يشير إلى القصيدة السابعة والستين من ديوان النابغة، فالنابغة يحذرّ قومه من مغبة الاستمرار في معصيته، مذكّرًا إيّاهم بغزوات الغساسنة المظفرة على اللخميين في يومي حليمة وعين أباغ، ويدعوهم إلى مهادنته والكفّ عن مخالفة أمر(٧):

إِنْ يَسْلَمِ الحَارِثُ الحَرَّابُ تَعْتَرِفُوا جَيْشًا مُغِيرًا عَلَى ثَهْلَانَ أَو خَطَرا

---

(١) انظر، الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٣٠٣-٣٠٦.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٩: ١٤.

(٣) السابق، ق٥٩: ٢-٤.

(٤) لم يكن النابغة وحده من يستخدم هذا اللقب عند مخاطبته لابن هند؛ فلبيد يذكر الحارث الحرّاب بوصفه أحد العظام الفانين الذين ينبغي الاعتبار بهم (لبيد بن ربيعة العامريّ، **الديوان**، ق٦٦: ٢٠)، وكذلك يذكره حاتم الطائيّ حين يفصح عن عداوة بين الغساسنة وطيّء (حاتم الطائي، **الديوان** (شرح أبي صالح بن مدرك الطائي)، تقديم حنا نصر الحتي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤، ص٥٢).

(٥) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٤٧.

(٦) الراميني، عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، ص١٤٦.

(٧) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٦٧: ١-٦.

قَادَ الجِيَادَ مِن الغَرْبِيِّ مُنْعَلَةً حَتّى هَبَطْنَ بِلادًا تُنْبِتُ العُشْرا
قُبَّ البُطُونِ طَوَاها القَومُ فَانْدَمَجَتْ قَضَّيْنَ بِاللَّوْذِ مِمَّا حُمِّلَتْ وَطَرا
يَوما حَليمَةَ كانا مِن قَديمِهِمُ وَعَينُ باغٍ فَكانَ الأَمرُ ما اِئتَمَرا
يَا قَومِ إنَّ اِبنَ هِندٍ غَيرُ تارِكِكُم فَلا تَكونوا لِأَدنى وَقعَةٍ جَزَرا
إِنِّي أَخَافُ عَلَيهِم صَوْلَ ذِي لِبَدٍ في عَارِضٍ لِابنِ هِنْدٍ يُمطِرُ الشَّرَرا

من الواضح أنّ "ابن هند" في هذه القصيدة هو نفسه في القصيدة السابقة (ق ٥٩)، ويعزّز هذا القول أنّ صورة "ابن هند" في القصيدتين واحدة، فضلًا عن أنّ موقف الشاعر فيهما واحد، والأهم من هذا أنّ النابغة يكشف لنا عن الهويّة الغسانيّة لـ"ابن هند"، فهو يشير إلى الجهة التي يقود منها "ابن هند" جيشه باتجاه جبل ثهلان، ومن المعروف أن ديار الغساسنة كانت في الجهة الغربيّة لغطفان ومن جاورها من قبائل شمال الجزيرة العربيّة[1]، وما دام "ابن هند" قادمًا بجيشه من الغرب فهذا يعني، بالضرورة، أنّه ملك غسانيّ، والظاهر من شعر النابغة أنّ "ابن هند" كان عازمًا على غزو قومه (غطفان)، ولكن بعد أن يفرغ من غزوة شنّها على ثهلان، وهو ما يؤكد ذلك عبارة "إن يسلم الحارث الحرّاب تعترفوا جيشًا مغيرًا على ثهلان"، ولكن الأمر المحيّر: كيف يشنّ "ابن هند" غزوة على ثهلان وهو، كما يخبرنا البلدانيون[2]، جبل لبني نمير بن عامر بن صعصعة، وهؤلاء، كما نعرف، دخلوا في حلف مع الغساسنة؟، بعبارة أخرى ما الذي يجعل ملكًا غسانيًّا يغزو ديار قوم لهم حلف وثيق معهم؟ ومع أنّ النابغة لم يفصح عن أيّة تفاصيل حول الغزوة التي شنّها "ابن هند" على ثهلان، فإنّ شعر بشر بن أبي خازم، لحس الحظ، يحتوي على معلومات مهمّة من شأنها أن تكشف عن سبب هذه الغزوة، فبشر يشير إلى غزوة شنّها قومه، بنو أسد، على بني نمير

---

(١) انظر، خريطة القبائل العربيّة في:
Rabin, Chaim, **Ancient West-Arabian**, London, Taylor's Foreign Press,1951, p6.
أو خريطة الدول العربية الشماليّة قبل الإسلام في: حتّى، فيلب، أدرود جرجي، جبرائيل حبور، **تاريخ العرب**، ط٧، بيروت، دار تمندر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦، ص١٠٦.
(٢) الحمويّ، **معجم البلدان**، "ثهلان".

بن عامر بن صعصعة في ثهلان؛ انتقامًا لما أصابهم في يوم شطب، حين غنمت منهم بنو عامر، ومنهم بنو نمير، غنائم كثيرة، لكنّهم انتقموا منهم في ثهلان، حتّى أنّ سيوفهم نالت من دماء بني نمير؛ حين حاولوا الفرار للاحتماء ببني بدر، كما أنّهم فجعوهم بأولادهم وأموالهم، حتّى أنّ طفيل بن مالك، أحد سادة بني عامر، فرّ من ساحة المعركة[١]:

وَسَلْ نُمَيرًا غَداةَ النَعفِ مِن شَطِبٍ … إذ فُضَّتِ الخَيلُ مِن ثَهلانَ ما ازدَهَفوا
لَمّا رَأَيتُم رِماحَ القَومِ حَطَّ بِكُم … إلى مَرابِطِها المُقْوَرَّةُ الخُنُفُ
إذ يَتَّقي بِبَني بَدرٍ وَأَردَفَهُم … خَلفَ المَناطِقِ مِنّا عانِدٌ يَكِفُ
فَأَصبَحوا بَعدَ نُعماهُم بِمَبأَسَةٍ … وَالدَّهرُ يَخدَعُ أَحيانًا وَيَنصَرِفُ
تَبكي لَهُم أَعيُنٌ مِن شَجوِ غَيرِهِمُ … فَإِن بَكى مِنهُمُ باكٍ فَقَد لُهِفوا
أَمّا طُفَيلٌ فَنَجّاهُ أُخو ثِقَةٍ … مِن آلِ أَعوَجَ يَعدو وَهوَ مُشتَرِفُ

في الواقع، يعدّ غزو بني أسد لبني نمير بن عامر في حدّ ذاته تحدّيًا لسلطة الملك الغسانيّ، كيف لا، وبنو عامر حلفاؤهم التقليديون؟ وبناء على ذلك، لم يعد غزو "ابن هند" (عمر بن الحارث الغسانيّ) لثهلان ملغزًا، ويبدو أنّ تخوّف النابغة من غزو "ابن هند" لغطفان ينطلق أساسًا من خوفه على حلف أسد وغطفان؛ فتأديب "ابن هند" لبني أسد في ثهلان، ومن ثَمّ عزمه على غزو غطفان يحتمل أن يكون للقضاء على هذا الحلف، أو على أقل تقدير تقويضه، فالغساسنة، من جانبهم، رأوا الفرصة مهيأة أمامهم ليلعبوا دورًا أكبر في نجد، بعد أن أخذت مملكة الحيرة بالانهيار؛ وحينئذ أصبحت الساحة خالية من أي منافس لهم، ومن ثَمّ شعروا أنّ القبائل العربية خصوصًا في شمال الجزيرة باتت مكشوفة أمامهم، ولهذا عملوا على إذعانها لهم قسرًا، وهذا ما يفهم من شعر لعامر بن الطفيل[٢].

---

(١) بشر بن أبي خازم الأسدي، **الديوان**، تقديم مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤، ق ٢٨: ٦-١١.
(٢) عامر بن الطفيل، **الديوان**، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩، ص٨٩-٩٠.

الآن، ومن خلال المناقشة السابقة، لا يمكن أن يفهم شعر النابغة السابق على أنّه مدح خالص لعمرو بن الحارث؛ حين يشير إلى إقدامه في الحرب وإلى قوّة جيشه، بل إنّ هذا يدخل في باب الاستشفاع أكثر منه في باب المدح، كما هو حاله في قصائده السابقة.

وما يعزز الرأي السابق أنّ النابغة يكشف في القصيدة الخامسة والثلاثين عن اضطراب العلاقة بينه وبين عمرو بن الحارث الغسانيّ، الذي يسمّيه هذه المرة عمرو بن هند، ولعلّنا نلمس، فيها، مجاهرة النابغة بعداوته للغساسنة، حتى أنّه لينذرهم من مغبة الاعتداء على ذبيان، لأنهم لو فعلوا ذلك سيجدون ذبيان قد توحدت مستعدة للقائهم[1]:

مَنْ مَبلِغٌ عَمرَو بنَ هِندٍ آيَةً ... وَمِنَ النَّصِيحةِ كَثْرةُ الإعْذَارِ
لا أَعرِفَنَّكَ عَارِضًا لِرِمَاحِنَا ... فِي جُفِّ تَغْلِبَ وَارِدَ الأَمْرَارِ
وَمُعَلِّقُونَ عَلَى الجِيَادِ حُلِيَّهَا ... حَتَّى تَصُوبَ سَمَاؤُهمْ بِقطَارِ
إنَّ العُرَيْمَةَ مَانِعٌ أَرْمَاحَنَا ... مَا كَانَ مِن سَحَمٍ بِهَا وَصُفَارِ
زَيدُ بنُ بَدْرٍ حَاضِرٌ بِعُراعِرٍ ... وَعَلَى كُنَيْبٍ مَالِكُ بنُ حِمَارِ
وَعَلَى الرُّمَيْثَةِ مِن سُكَيْنٍ حَاضِرٌ ... وَعَلَى الدَّفِيْنَةِ مِن بَنِي سَيَّارِ

والظاهر أنّ النابغة ما كان لتجرأ على مثل هذا التمرّد والمجاهرة بعصيانه لعمرو بن الحارث الغسانيّ، لولا وثوقه بمساندة قبيلته، ذبيان، وسادتها ومنهم زيد بن بدر الذي منع بني عبس عن "عُراعر"، وهي ماء لبني كلب[2]، وفيه يوم من أيام داحس والغبراء بين عبس وذبيان، يعرف بيوم

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٥: ١-٦، بعض أبيات هذه القصيدة (الخامس والسادس) يرد في القصيدة الخامسة في الديوان، فالقصيدتان على نفس الوزن (الكامل) والقافية والرويّ، فضلًا عن اشتراكهما في المضمون، (انظر: النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥: ٢٢-٢٣؛ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري(٢٧٦هـ)، **المعاني الكبير في أبيات المعاني**، تصحيح سالم الكرنكوي، بيروت: دار النهضة الحديثة، (د.ت)، ج٦: ص٩١٧-٩٢٠؛ البغدادي، **خزانة الأدب** ، ج٦: ص٣١٢-٣١٦(الشاهد ٤٦٦)؛ ٣٣٢-٣٣٨ (الشاهد ٤٦٨)).

(٢) وقيل: هي ماء بين كلب وذبيان (انظر، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص١٢٩؛ ١٣١؛ الحمويّ، **معجم البلدان**، "عراعر").

"عُراعر"[١]، ومنهم مالك بن حِمار سيّد فزارة[٢] الذي منع "كنيب"، وهي ماء لفزارة[٣]، ومنهم، أيضًا، سُكين بن خديج بن بغيض بن فزارة[٤]، الذي منع "الرُميثة"، وهي ماء لبني مرّة[٥]، ومنهم، كذلك، سيّار بن عمرو من فزارة[٦]، الذي منع "الدّفينة" (الدّثينة)، وهي ماء كانت لبني سليم، فأصبحت لبني سيّار بعد يوم كانت الغلبة فيه لبني مازن بن فزارة على بني سُليم[٧]. من الواضح أنّ النابغة يتحدّى عمرو بن الحارث الغسانيّ أن يستطيع التقدّم إلى هذه المواضع (العُريمة؛ كُنيب؛ عُراعر؛ الرميثة؛ الدفينة/ الدثينة)، وهي كلّها لفزارة[٨].

ويبدو أنّ شعر النابغة السابق (ق٣٥) كان سببًا كافيًا للمتربصين به في البلاط الغسانيّ ليوغروا صدر الملك عليه، ولهذا أخذ عمرو بن هند/ الحارث الغسانيّ يتوعده، كما يروي عبد القادر البغداديّ[٩]، بقوله:

أَبْلِغْ زِيَادًا لِ ّ قَوْمَكَ حَارَبُوا فَانْهَضْ إليْنَا إنْ قَدَرْتَ بِجَارِ
نَجْزِيكَ إنْذَارًا بِمَا أَنْذَرْتَنَا وَذَكَرْتَ عَطفَ الودِّ وَالإِصْهَارِ

ولهذا يكشف لنا النابغة في القصيدة السادسة والأربعين عن حنق الملك عليه بسبب سعاية بعضهم، وعن محاولته سلّ السخيمة التي يكنها له عمرو بن الحارث في صدره[١٠]:

---

(١) انظر، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٥٧-٤٦١.
(٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١٣٦.
(٣) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص١٨٠.
(٤) ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨، ج٦: ص٣١٣.
(٥) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص١٨٠.
(٦) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٥٨.
(٧) الحمويّ، **معجم البلدان**، "دثين"؛ "الدفينة".
(٨) ابن البكريّ، **معجم ما استعجم**، "عدنة".
(٩) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٥ (حاشية٦)؛ البغدادي، **خزانة الأدب**، ج٦: ص٣١٤-٣١٥.
(١٠) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٤٦: ١-٧.

لَقَد تلَفَّفَ لي عَمرٌو عَلَى حَنَقٍ … عن قول عَرْجَلَةٍ لَيْسُوا بِأَخْيَارِ
فَجِئْتُ عَمْرًا عَلَى مَا كَانَ مِن أَضَمٍ … وَمَا اسْتَجَرتُ بِغَيرِ اللهِ مِن جَارِ
أَثْوَى فَأكرَمَ في المَثْوى وَمَتَّعَنِي … بِجِلَّةٍ مِائَةٍ لَيستْ بِأَبْكَارِ
كَمْ قَدْ أَحلَّ بِدارِ الفَقْرِ بَعدَ غِنَىً … عَمرٌو وَكَمْ رَاشَ عَمْرٌو بَعد إقْتَارِ
يَرِيشُ قَومًا ويَبْرِي آخَرينَ بِهِمْ … للهِ مِنْ رَائِشٍ عَمْرٌو وَمِن بَارِ
وَكَم جَزَانَا بِأَيدٍ غَيرِ ظَالِمَةٍ … عُرْفًا بِعُرْفٍ وَإِنْكَارًا بِإِنْكَارِ
فَشِيمَتَاهُ : ذُعَافُ السُّمِّ وَاحِدَةٌ … وَشِيمَةٌ لِلْمَوَاتِى شُهْدُ مُشْتَارِ

على الرغم من إشارة النابغة إلى إغداق عمرو بن الحارث عليه، بمائة من الإبل، وهذا ما قد يوحي بمحاولة النابغة التقرّب منه، إلا إنّه، في الوقت ذاته، يشير إلى الانقطاع الذي وقعَ بين الطرفين في فترة عودة النابغة إلى قبيلته الأم (ذبيان)، فهو يشير، في البيت الرابع، إلى عطايا عمرو له بعدَ انقطاعها عنه، وهذا في حدّ ذاته يفسر اضطرابَ العلاقةِ بينهما، فضلًا عن إشارتِهِ في البيتينِ الأخيرين إلى ذلك، فعمرو، كما يصوّره النابغةُ، يقابل المعروفَ بالمعروف، والإنكارَ بالإنكارِ، ولهذا يجعلُ إحدى شيمتيه "الذعاف"، السّمُّ القاتل[١].

مرة أخرى، يحاول النابغة استدرار عطف الملك الغسانيّ، فهو يشير إليه، بعد أن يقسم له بأغلظ الأيمان، أنّه لم يخنه، وأنّ ما وصله عنه كان كذبًا، ولهذا جاءه مسرعًا طائعًا، فليس له من يجيره ويحميه من غضبه[٢]:

تَأَوَّبَنِي بِيَعْمَلَةَ اللَّوَاتِي … مَنَعْنَ النَّوْمَ إذْ هَدَأَتْ عُيُونُ
حَلَفْتُ بِمَا تُسَاقُ لَهُ الهَدَايَا … عَلَى التَّأْوِيبِ يَعْصِمُهَا الدَّرِينُ
أَتَانِي أنّ دَاهِيَةً نَادَى … عَلَى شَحَطٍ أَتَاكَ بِهَا مَيُونُ
أَغَيْرَكَ مَعْقِلًا أَبْغِي وَحِصْنًا … فَأَعْيَتْنِي المَعَاقِلُ والحُصُونُ
فَجِئْتُكَ عَارِيًا خَلَقًا ثِيَابِي … عَلَى خَوفٍ تظَنّ بِيَ الظُّنُونُ

---

(١) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(٧١١هـ)، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي ، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٨، "ذعف".
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٥: ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٣٩-٤٠، ٤٢.

فَأَلفيــــتَ الأَمَانـــــةَ لَـــمْ تَخُنْهَـــا كَـــذَلِكَ كَـــانَ نُـــوحٌ لا يَخُـــونُ

ثمّ يشير إليه مادحًا بأنّه الذي دانت له النّاس؛ فهو سيّدها، حتى أنّهم أتوه طائعين له ما دام حيًّا، وأنّهم سيصبحون عرضة للنهب والسلب من بعده[1]:

بُعِثْـــتَ عَلَـــى البَرِيَّـــةِ خَيْـــرَ رَاعٍ فَأَنْـــتَ إِمَامُهَـــا وَالنَّـــاسُ دِيـــنُ
نَكُـــونُ رَعِيَّـــةً مَـــا دُمْـــتَ حَيًّـــا وَنَهْبًـــا بَعْـــدَ مَوْتِـــكَ مَـــا نَكُـــونُ

بداية ينبغي الإشارة إلى أنّ البيت الأول في رواية نقلها أبو الفرج الأصفهاني[2] عن المدائنيّ تجري على النحو الآتي:

إِلَـــى ابْـــنِ مُحَـــرِّقٍ أَعْمَلْـــتُ نَفْـــسِي وَرَاحِلَتِـــي وَقَـــدْ هَـــدَتِ العُيُـــونُ

ويبدو أنّ لغتها أكثر إقناعًا، وصلتها بما بعدها أقوى ممّا ورد في الديوان[3]، من ناحية أخرى، "ابن محرّق" الذي يتوجه النابغة إليه بالخطاب، ويحاول استدرار عطفه، هو، بحسب دراسة حديثة[4]، ابن الحارث الأصغر الغسانيّ، عمرو بن الحارث الغسانيّ؛ فالمزاج السائد في هذه القصيدة يجعلها أقرب إلى قصائده في عمرو منه في أخيه النعمان بن الحارث، وما يعزّز هذا الاتجاه أنّ هذه القصيدة، كغيرها من قصائد النابغة في عمرو بن الحارث الغسانيّ، تنطوي على استعطاف الشاعر للملك، ويبدو أنّ هذا النهج، الذي يسير عليه الشاعر، بدأ عندما شعر هذا الأخير بأنّ جبروت الغساسنة أخذ بالازدياد نحو غطفان وحلفائهم، بني أسد، في أعقاب انهيار مملكة الحيرة؛ فالنابغة، في البيتين الأخيرين، يشير إلى اتساع نفوذ "ابن محرّق"، إلى حدّ جعل القبائل تدين له بالولاء، ويبدو أنّ حلف أسد وغطفان لم يكن بمقدوره الصمود بوجه الهجمات المتكررة للغساسنة

---

(١) السابق، ق٧٥: ٤٦-٤٧.

(٢) الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١٧.

(٣) الراميني، عرسان حسين، ""محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر،" **مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب**، مجلد٦، عدد٢، ٢٠٠٩، ص٣٦٣ (حاشية ١٤٢).

(٤) السابق، ص٣٥١-٣٥٥.

عليهم، فالمدّ الغسانيّ أقوى من أيّ تحالف على ما يبدو، فأيّ تحالف قبليّ كان بحاجة ماسّة إلى مرجعيّة سياسية لحمايته من أيّ اعتداء، أو على الأقل تمنعه من التفكّك، ومن ثَمّ تثبت سلطة زعمائه[1]، فمن شعر عامر بن الطفيل[2]، المشار إليه سابقًا، نفهم أنّ غطفان أصبحوا مكشوفين أمام جبروت الغساسنة، وبالطبع هذا يصدق على حلفائهم، بني أسد، فسقوط الحيرة، على ما يبدو، آذن بانقلاب حظوظهما، وحظوظ سائر حلفاء الحيرة، في نجد، وهذا، بالضبط، ما يفسر تذبذب العلاقة بين النابغة و الملك الغسانيّ عمرو بن الحارث (ابن هند/ ابن محرّق/ الحارث الحرّاب). من هنا لا يمكن أن يكون شعر النابغة هذا من باب المدح الخالص، وإنّما يفهم من الإطار الواسع للكلمة.

رابعًا: النعمان بن وائل بن الحُلاج الكلبيّ.

برز النعمان بن وائل بن الحلاج الكلبيّ على ساحة الأحداث في نجد بوصفه أحد القادة العسكريين للغساسنة، وعلى وجه الخصوص، في زمن عمرو بن الحارث الغسانيّ، مع أنّه قد يفهم من بعض الروايات أنّه كان قائدًا للغساسنة من زمن الحارث الأكبر بن أبي شمر[3]. في الواقع، ينبغي أن تحمل هذه الروايات على أنّها تشير إلى الحارث الأصغر أو ابنه عمرو، الذي يذكره النابغة[4]؛ فالجواليقي وياقوت الحموي[5] يذكرانه على أنّه كان قائد حملات النعمان بن الحارث على ذي أقر، وهذا يعني أنّه كان قائدًا للغساسنة من زمن الحارث الأصغر إلى زمن ولديه

---

(١) الراميني، حجر بن أم قطام، ص١٩٣.

(٢) عامر بن الطفيل، **الديوان**، ص٨٩–٩٠.

(٣) انظر، مثلًا : ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن(٣٢١هـ)، **الاشتقاق**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١، ص٥٤١؛ علي، **المفصل في تاريخ العرب**، ج٦: ص١٢٤؛ ج٧: ص٢٣٩.

(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٦٧: ١.

(٥) الجواليقي، موهوب(٥٤٠هـ)، **شرح أدب الكاتب**، تحقيق طيبة حمد بودي، الكويت: جامعة الكويت، ١٩٩٥، ص٢٥١؛ الحموي، **معجم البلدان**، "أقر".

النعمان وعمرو؛ إلا إنّ قصائد النابغة فيه تتفق في مضمونها مع قصائده في عمرو بن الحارث، من حيث اضطراب العلاقة بين الطرفين، فضلًا عن سوء العلاقة بين عمرو بن الحارث والقبائل العربيّة في نجد، ولاسيّما الحليفين أسد وغطفان، على وجه ما تبيّن آنفًا.

يظهر النعمان بن الجُلاح الكلبيّ في شعر النابغة في ثلاث قصائد ذوات الأرقام: ٢٥؛ ٤٠؛ ٧٣، وعلى الرغم من أنّها جميعًا تظهر قوّة هذا القائد العسكريّ في خوض المعارك، وهو ما يعزز فكرة القول بأنّها تدخل في باب المدح، إلا إنّها، في حقيقتها، تكشف عن طبيعة العلاقة بين النابغة وهذا القائد، الذي يعكس الوجه الحقيقي لطبيعة علاقة النابغة وقومه بالغساسنة، وعلى وجه الخصوص، في الفترة التي عاد فيها النابغة وقومه إلى قبيلتهم الأم، ذبيان.

ففي القصيدة الثالثة والسبعين يشير النابغة إلى غارة مظفرّة لابن الجُلاح وجيشه على قومه، ذبيان، فأصابهم هذا الأخير بالتّشريد والسبي وأرغمهم على أن يكونوا عبيدًا له(١):

وَنَاجيــةٍ عــدَّيْتُ فِــي مَــتْنِ صَحْـصَحٍ ... إلـــى ابــنِ الجُــلاحِ مَـــا تَــرُوحُ وَتَغْتَــدِي
إلـــى مَاجِــدٍ مَــا يَــنْقُضُ البُعْــدُ هَمَّـــهُ ... خَــــرُوجٍ تَـــرُوكٍ لِلْفِــــراشِ المُمَهَّــــدِ
وَأَرْعَـــنَ مِثْـــلِ اللَّيْـــلِ يَـــسْتَلِبُ القَطَـــا ... أَفَاحِيـــصَهُ بِـــالجَوِّ مِـــنْ كُـــلِّ مَهْجَـــدِ
مَطَـــوْتُ بِــــهِ حَتَّـــى تَـــصُونَ جِيَـــادُهُ ... وَيَـــرْفَضَّ مِـــنْ أَعْلَاقِـــهِ كَـــلُّ مِرْفِـــدِ
صَـــبَحْتَ بَنِـــي ذُبْيَـــانَ مِنْـــهُ بِغَـــارَةٍ ... جَـــرَتْ لَـــكَ فِيهَـــا الـــسَّانِحَاتُ بِأَسْـــعَدِ
أَصَـــابَهُمُ قَـــسْرًا فَأَضْـــحَوا عِبَـــادَهُ ... فَجَلَّلَهَـــــا نُعْمَـــــى وَلَـــــمْ يَتَـــــشَدَّدِ

من المؤكّد أنّ غزوة ابن الجُلاح على ذبيان كانت متزامنة مع قرار الملك الغسانيّ عمرو بن الحارث بغزو ذبيان في وادي أُقر، التي سبق الإشارة إليها، فمن الطبيعيّ أن يوعز الملك إلى قائده العسكريّ بغزو قوم بالنيابة عنه، ويبدو أنّ نتائج هذه الغزوة كانت وخيمة على الذبيانيين، كما هو واضح من البيتين الأخيرين، وهو ما يؤكّده النابغة، أيضًا، في القصيدة الخامسة والعشرين، التي

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٣: ٥-١٠.

يشير فيها إلى غزو النعمان بن الجُلاح لبني يربوع بن غيظ، عشيرة النابغة الأقربين، فأوقع فيهم ما أوقع من الأسر والسبيّ(١):

لَعَمري لَنِعمَ الحَيِّ صَبَّحَ سِربَنا	وَأَبياتَنا يَومًا بِذاتِ المَراوِدِ
يَقودُهُمُ النُّعمانُ مِنهُ بِمُحصَفٍ	وَكَيدٍ يَغُمُّ الخارِجِيَّ مُناجِدِ
وَشيمَةِ لا وانٍ وَلا واهِنِ القُوى	وَجَدٍّ إِذا خابَ المُفيدونَ صاعِدِ
فَآبَ بِأَبكارٍ وَعونٍ عَقائِلٍ	أَوانِسَ يَحميها اِمرُؤٌ غَيرُ زاهِدِ
غَرائِرُ لَم يَلقَينَ بَأساءَ قَبلَها	لَدى اِبنِ الجُلاحِ ما يَثِقنَ بِوافِدِ
أَصابَ بَني غَيظٍ فَأَضحَوا عِبادَهُ	وَجَلَّلَها نُعمى عَلى غَيرِ واحِدِ

ولكنّ ابن الجلاح، في نهاية الأمر، منّ عليه بأن أطلق الأسرى، ومن بينهم عقرب بنت النابغة، كما تروي المصادر(٢)، وكذلك ابنة عمه "عنجدة"(٣)، إكرامًا للنابغة ، ولهذا ركب إليه يشكره على منّه وكرمه؛ لذلك فهو يستحقّ المدح(٤):

فَلا بُدَّ مِن عَوجاءَ تَهوي بِراكِبٍ	إِلى اِبنِ الجُلاحِ سَيرُها اللَيلَ قاصِدِ
تَخُبُّ إِلى النُعمانِ حَتّى تَنالَهُ	فِدىً لَكَ مِن رَبٍّ طَريفي وَتالِدي
فَسَكَّنتَ نَفسي بَعدَما طارَ روحُها	وَأَلبَستَني نُعمى وَلَستُ بِشاهِدِ
وَكُنتُ اِمرَءًا لا أَمدَحُ الدَهرَ سوقَةً	فَلَستُ عَلى خَيرٍ أَتاكَ بِحاسِدِ
سَبَقتَ الرِجالَ الباهِشينَ إِلى العُلى	كَسَبقِ الجَوادِ اِصطادَ قَبلَ الطَوارِدِ
عَلَوتَ مَعَدًّا نائِلًا وَنِكايَةً	فَأَنتَ لِغَيثِ الحَمدِ أَوَّلُ رائِدِ

ثمّ يتبع النابغة هذه القصيدة بقصيدة أخرى؛ يثني فيها على ابن الجُلاح لإطلاقه سراح أسرى قومه وسباياهم، فلولاه لبقي هؤلاء الأسرى والسبايا عبيدًا يخدمون في بني عامر(١):

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٥: ٥–٨؛ ١١–١٢.

(٢) انظر، مثلًا: ابن دريد، **الاشتقاق**، ص٥٤١؛ علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٦: ص١٢٤؛ ج٧: ص٢٤٠.

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥٦: ١–٢.

(٤) السابق، ق٢٥: ١٣–١٨.

شَـــكَرْتُ لَـــكَ النُّعْمَـــى فَأَثْنَيــتُ جَاهِــدًا وَعَطَّلْــتُ أَعْــرَاضَ العُبَيــدِ بــنِ عَــامِرِ
وَلَـــولاَ أَبُـــو الـــشَّقْرَاءِ مَـــازَالَ مَـــاتِحٌ يُعَـــالِجُ خُطَّافًـــا بِإِحْـــدَى الجَرائِـــرِ
بِخالَــــةَ أَو مــــاءِ الذُنابَــــةِ أَو سِــــوى مَظِنَّــــةِ كَلْــــبٍ أَو مِيــــاهِ المَنَــــاظِرِ
لَــــهُ بِفَنَــــاءِ البَيــــتِ دَهْمَــــاءُ جَونَــــةٌ تُلَقَّــــمُ أَوصــــالَ الجَــــزورِ العُراعِــــرِ
بَقِيَّــــةُ قِــــدرٍ مِــــن قُــــدورٍ تُوُرِّثَــــت لِآلِ الجُــــلاحِ كــــابِرًا بَعــــدَ كــــابِرِ
يَظَـــلُّ الإِمـــاءُ يَبتَـــدِرنَ قَـــديمَها كَمَـــا ابتَـــدَرَت كَلْـــبٌ مِيـــاهَ قُراقِـــرِ

في الواقع، هذه القصيدة، كسابقتيها، تنطوي على علاقة مضطربة بين النابغة وابن الجُلاح وقومه بني كلب، وعلى وجه الخصوص بني العُبيد بن عامر منهم. صحيح أنّ الشاعر يبدو مادحًا لابن الجُلاح، مشيرًا إليه أنّه ورث سيادة قومه "كابرًا بعد كابر"، إلا إنّه لا يتورع عن ذمّ قومه، لما ألحقوه من أذى بأسرى قومه، وفي ذات السياق، يمكن الإشارة إلى بيتين آخرين لم يثبتهما محقّق الديوان هنا، واكتفى بالإشارة إليهما في ذيل الديوان(٢)، في حين أنّ صاحب كتاب التوضيح والبيان(٣) في شعر نابغة ذبيان أثبتهما في هذه القصيدة، وكذلك فعل حمدو طمّاس حين اعتنى بالديوان وقام بشرحه، وهما يجريان على النحو الآتي:

وَهُــم ضَــرَبوا أَنــفَ الفَــزارِيِّ بَعــدَما أَتــاهُم بِمَعقــودٍ مِــنَ الأَمــرِ قــاهِرِ
أَتَطمَــعُ فــي وادي القُــرى وَجِنابِــهِ وَقَــد مَنَعــوا مِنــهُ جَميــعَ المَعاشِــرِ

وفيهما يذكّر النابغة ابن الجُلاح بما قدّمه قومه، بنو العُبيد بن عامر، لبني عقيل بن عامر بن صعصعة من مساندة؛ حين "ضربوا أنف الفزاريّ"، في إشارة منه إلى قتل حصن بن حذيفة بن بدر سيّد فزارة، فالمصادر(٤) تذكر أنّ رجلًا من بني عقيل بن عامر بن صعصعة يدعى كُرْز بن عامر

---

(١) السابق، ق٤٠: ١-٦.

(٢) السابق، ص٢٣٠.

(٣) **التوضيح والبيان في شعر نابغة ذبيان**، ق٢٩ (القسم الثاني)؛ النابغة الذبياني، **الديوان**، ط٥، اعتناء وشرح حمدو طماس، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥، ص٦٦-٦٧.

(٤) انظر، مثلًا، البغداديّ، **خزانة الأدب**، ج١٠: ص٢٨٣-٢٩١.

كان قد أقدم على طعن حصن بن حذيفة الفزاريّ في يوم حاجر، وهذا ما يؤكّده أبو أسماء بن الضّريبة[1] واصفًا ما أقدم عليه كُرز بالأمر العظيم:

يَـا كُـرْزُ إنَّـكَ قَـدْ فَتَكْـتَ بِفَـارِسٍ بَطَـلٍ إذَا هَـبَّ الكُمَـاةُ مُجَـرِّبُ
وَلَقَـد طَعَنْـتَ أَبَـا عُيَيْنَـةَ طَعْنَـةً جَرَمَـتْ فُـزَارَةَ بَعْـدَهَا أَنْ يَغْـضَبُوا

وهذا ما تؤكّده، أيضًا، هند بنت حذيفة الفزاريّ، في معرض رثائها لأخيها حصن، حين كانت تحثّ ذبيان على الثأر لأخيها من كُرز بن عامر، وإلحاق أشد الأذى ببني عقيل بن عامر[2]:

تَطَـاوَلَ لَيلِـي لِلهُمُـومِ الحَواضِـرِ وَشَـيَّبَ رَأسـي يَـومُ وَقعَـةِ حـاجِرِ
لَعَمـري وَمـا عَمـري عَلَـيَّ بِهَـيِّنٍ وَلا حـالِفٌ بَـرٌّ كَـآخَرَ فـاجِرِ
لَقَـد نـالَ كُـرزٌ يَـومَ حـاجِرَ وَقعَـةً كَفَـت قَومَـهُ أُخـرى اللَيـالي الغَـوابِرِ
فَلِلَّـهِ عَينـا مَـن رَأى مِثلَـهُ فَتـىً تَنَاوَلَـهُ بِـالرُمحِ كُـرزُ بـنُ عـامِرِ
فَيـا لَبَنـي ذُبيـانَ بَكّـوا عَميـدَكُم بِكُـلِّ رَقيـقِ الحَـدِّ أَبـيَضَ بـاتِرِ

في الواقع، زاد مقتل حصن بن حذيفة الفزاريّ، في ديار بني عامر، حنق ذبيان عليهم، وخاصة أنّ بني عامر أجاروا بني عبس ومنعوهم من ذبيان في أعقاب قتلهم لسيّد فزارة، حذيفة بن بدر الفزاريّ في يوم الهباءة، حيث كان لمقتله أثر عظيم في تسعير نار حرب داحس والغبراء، كما سيأتي لاحقًا.

الآن، وفي ضوء فهم موقف النابغة من بني العبيد بن عامر، لا يمكن أن نفهم شعر النابغة، في القصيدتين السابقتين، على أنّه مدح خالص لابن الجُلاح، وإنّما هو في المفهوم الأوسع للكلمة، ويمكن أن نلحظ هذا من قوله[3]:

---

(١) السابق، وقيل أنّ صاحب الأبيات هو عطية بن عوف.

(٢) أبو الفضل، أحمد بن أبي طاهر(٢٨٠هـ)، **بلاغات النساء –طرائف كلامهن وملح نوادرهنّ وأخبار ذوات الرأي منهنّ وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام**، شرح أحمد الألفي، القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، ١٩٠٨، ص١٧٣-١٧٤.

(٣) **التوضيح والبيان في شعر نابغة ذبيان**، ق٢٩ (القسم الثاني).

أَتَطمَعُ فِي وادي القُرى وَجِنابِهِ وَقَد مَنَعوا مِنهُ جَميعَ المَعاشِرِ

ففيه تحدّ واضح لسلطة ابن الجُلاح، وإظهار لعجز هذا الأخير أمام قوّة قومه، وخاصة أنّهم منعوا وادي القرى من أيّ اعتداء، على نحو ما رأيناه في قصيدته الخامسة والثلاثين؛ حين جاهر بعداوته لعمرو بن الحارث الغسانيّ، ويبدو أنّ هذا هو نهج النابغة حين يمدح الغساسنة وقادتهم؛ ففي الوقت الذي يظهر فيه قوّة ممدوحه وشكيمته في لقاء أعدائه، نراه لا يتورّع عن امتداح قومه بإظهار بعض من أفعالهم وقدراتهم، وهذا ما يعزز القول بأنّ مدح النابغة للغساسنة لا يدخل في باب المدح الخالص، وإنما هو نهج النابغة الخاص في الاستشفاع لقومه ونيل الرضا من الممدوح باستدرار عطفه.

الآن، وقد انتهت قصائد النابغة في الغساسنة، نجد أنّها تحتلّ مساحة أوسع مما كان يعتقد(١)، فعددها يزيد على الثلاثين(٢)، وأنّ نسبة أبياتها تزيد عن نصف ما قاله النابغة عمومًا(٣)، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار أنّ كثيرًا منها فُهم خطأ أنّها أنشدت في النعمان بن المنذر اللخميّ، الذي كان يعتقد أنّه نفسه "أبو قابوس"(٤)، أو تلك التي فهم خطأ أنّها أنشدت في عمرو بن المنذر ابن ماء السماء اللخميّ؛ لمجرّد ورود لفظ "ابن هند" أو"عمرو" أو"عمرو بن هند"، من غير التثبّت من الهويّة الحقيقيّة لصاحبها(٥)، لكن بعد أن ثبت، من خلال منظومة الأدلة أثناء المناقشة، خلاف ما كان يُعتقد حول هوية هاتين الشخصيتين ينبغي التعامل مع هذه القصائد جميعًا على

---

(١) بالنسبة إلى العشماوي كان يرى أنّ للنابغة عشر قصائد في الغساسنة (العشماوي، **النابغة الذبياني** ، ص٣٣)، في حين أنّ الراميني كان يراها تسع عشرة قصيدة (الراميني، النابغة الذبياني ، ص١٤٧).

(٢) على اعتبار أنّ القصيدة الأولى (المعلقة) هي قصيدتان؛ فجزؤها الأخير (الأبيات٤١– ٤٩) ليس من القصيدة الأولى نفسها.

(٣) عدد أبيات شعره كلّه ٨٦٢ بيتًا، وعدد الأبيات التي قالها في الغساسنة ٤٤٤ بيتًا.

(٤) وهي القصائد: ق١، ق٢، ق٤، ق٧، ق١٤، ق١٨، ق١٩، ق٢٢، ق٢٧، ق٣٢، ق٣٧، ق٤٩، ق٥٧،ق٦٠.

(٥) وهي القصائد: ق٢٢، ق٢٦، ق٣٥، ق٤٦، ق٥٩، ق٦٧، ق٧٥.

أنّها ذات ارتباط غسانيّ، وأن ليس للخميين أي ظهور فيها، فمقولة أنّ النعمان بن المنذر اللخميّ كان ممدوح النابغة مقولة تحتاج إلى إعادة نظر، وهذا من شأنه أن يعيد النظر في كثير من الأحكام والنتائج التي استنبطت، التي غيّرت مسار كثير من الارتباطات القبليّة والسياسيّة للقبائل العربيّة، وهو ما جعلها تمتدّ على رقعة زمنيّة لا يقبلها العقل ولا المنطق.

الفصل الثاني.

الشعر القبليّ.

لقد وثّق النابغة بشعره الأحداث التاريخيّة المرتبطة بقبيلته، ذبيان، على المستويين الداخليّ والخارجيّ، فغدا شعره سجلًّا تاريخيًا، يمكن من خلاله الوقوف على كثير من الحقائق التاريخيّة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بقبيلته وحلفائها، فضلًا عن تقديمه فهمًا أوضح لكثير من الصراعات الداخليّة في أوساط قبيلة غطفان، بوصفها الكيان القبليّ الأعظم في منطقة نجد، الذي يأتلف، تحت لوائه إلى جانب ذبيان، كلٌّ من بني عبس، وبني أنمار، وبني أشجع، وبني عبد الله بن غطفان(١).

وفي ضوء المعلومات التاريخية والقبليّة التي يقدمها شعر النابغة، يسعى الباحث، هنا، للوقوف على أهم الأحداث والوقائع، وهي ثلاثة أحداث، شكّلت منظومة الصراعات الداخليّة والخارجيّة في غطفان، والتي مثلت منعطفًا خطيرًا، في منطقة نجد، على المستويين القبليّ والسياسيّ.

أول هذه الأحداث انشقاق بني عبس عن غطفان، في أعقاب خلافهم مع ذبيان، وأسفر، في نهاية المطاف، عن حرب داحس والغبراء، وبالنتيجة تحالف بني عبس مع بني عامر بن صعصعة، الأمر الذي يعني تحوّلهم إلى المعسكر الغسانيّ.

أمّا الحدث الثاني فهو انشقاق النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، عن قبيلتهم الأم، ذبيان، في أعقاب تحالف سائر أحياء القبيلة ضدهم، بما يعرف بحلف "المحاش"، والذي أدّى إلى لجوء النابغة وقومه في بني عذرة بن سعد في أعالي الحجاز، الأمر الذي يعني التحاقهم بمعسكر الغساسنة في الشّام، أي أنّهم بدّلوا ولاءهم السياسيّ فضلًا عن انتمائهم القبليّ. غير أنّ النابغة

---

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٤٨-٢٥٠.

وقومه ما لبثوا أن عادوا، بعد بضعة أعوام، إلى قومهم بعد أن سوّوا خلافاتهم معهم ومع السلطة السياسية في الحيرة.

وآخر هذه الأحداث، محاولة إلغاء حلف بني أسد وذبيان والسعي لنقضه، سواء أكانت هذه المحاولات داخليّة أم خارجيّة، ومن ثَمّ الكشف عن مساعي النابغة للتصدّي لهذه المحاولات، في تأكيد منه على أهمية هذا الحلف في حفظ التوازنات الإستراتيجية في منطقة نجد، وخصوصًا بعد الفراغ السياسيّ الذي شكّله سقوط مملكة الحيرة في أوائل القرن السابع الميلادي[١].

من هنا، يحاول الباحث الوقوف على جميع الأشعار ذات الصلة، التي تتناول هذه الأحداث المفصليّة في تاريخ غطفان، ومن ثَمّ إعادة تركيبها بما ينسجم مع المسار التاريخي الصحيح لها؛ للخروج بمنظور أوضح ليس لهذه الأحداث فحسب، بل للعلاقات التي تربط القبائل العربية في المنطقة النجديّة، بما يحقّق فهمًا أفضل لشعر النابغة القبليّ.

أولًا: لجوء بني عبس في بني عامر بن صعصعة.

تؤكّد المصادر[٢] أنّ بني عبس دخلوا في حلف مع بني عامر بن صعصعة، في مرحلة من مراحل حرب داحس والغبراء، على الرغم من العداء المستحكم بين الطرفين، لأسباب كثيرة أهمُّها مقتل زهير بن جذيمة العبسيّ، على يد خالد بن جعفر بن كلاب العامريّ يوم النفراوات[٣]، وهذا ما يؤكّده شعر لخالد بن جعفر نفسه، يتوجّه فيه إلى هوازن؛ مندهشًا من موقفها منه بعدما خلّصها من شرور سيّدها زهير بن جذيمة، حيث يقول خالد[٤]:

---

(١) الراميني، النابغة الذبياني ، ص١٤٩.

(٢) انظر، مثلًا، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٦١.

(٣) ابن حبيب البغداديّ، **المحبّر**، ص٢٤٩.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٦-٧.

بَـلْ كَيْـفَ تَكْفُرُنِـي هَـوَازِنُ بَعْـدَمَا   أَعْتَقْـتُهُم فَتَوَالَـدُوا أَحْـرَارا
وَقَتَلْـتُ رَبَّهُـمُ زُهَيْـرًا بَعْـدَمَا   جَـدَعَ الأنُـوف وأَكْثَـرَ الأوتـارا

وهذه الحقيقة نجدها في شعر لورقاء بن زهير، أحد أبناء زهير الذين كانوا معه لحظة مقتله[١]، حين يقول:

رأَيْـتُ زُهَيْـرًا تَحْـتَ كَلْكَـلِ خَالِـدٍ   فَأَقْبَلْـتُ أَسْـعَى كَـالعَجُولِ أُبـادِرُ
إِلَـى بَطَلَـيْنِ يَنْهَـضَانِ كِلَاهُمَـا   يُرِيـدَانِ نَـصْلَ الـسَّيفِ والـسَّيفُ نَـادِرُ
فَـشُلَّتْ يَمِينِـي يَـوْمَ أَضْـرِبُ خَالِـدًا   يَمْنَعُـهُ مِنِّـي الحَدِيـدُ المُظَـاهِر
فَيَـا لَيْـتَ أَنِّـي قَبْـلَ أَيْـامِ خَالِـدٍ   ويَـوْمَ زُهَيـرٍ لَـمْ تَلِـدْنِي تَمَاضُـرُ

إذن، من المفارقة أن يتحالف بنو عبس مع بني عامر، إزاء سعيهم المستمر للثّأر لسيدهم من بني عامر، كما يفهم من أشعار بني عبس ذات الصلة، كشعر عنترة بن شداد العبسيّ، حين يرثي فيه سيّدهم زهيرًا، وفي الوقت نفسه يتوعّد بني عامر بالانتقام لمقتله[٢]:

خُـسِفَ البَـدرُ حِـينَ كَـانَ تَمَامَـا   وَخَفِـيَ نُـورُهُ فَعَـادَ ظَلَامَـا
حَـينَ قَـالُوا زُهَيـرُ وَلّـى قَتِـيلًا   خَـيَّمَ الحُـزنُ عِنـدَنا وَأَقامـا
يَـا جُفُـونِي إِنْ لَـمْ تَجُـودِي بِـدَمعٍ   لَجَعَلـتُ الكَـرَى عَلَيـكِ حَرامـا
قَـسَمًا بِالـذِي أَمَـاتَ وَأَحْيـا   وَتَـوَلّى الأَرواحَ وَالأَجـساما
لَا رَفَعـتُ الحُـسَامَ فـي الحَـربِ حَتّـى   أَتـرُكَ القَـومَ فـي الفَيـافي عِظامـا
يَـا بَنِـي عَـامِرٍ سَـتَلْقَونَ بَرقًـا   مِـن حُـسامي يُجـري الـدِماءَ سِـجاما
وَتَـضِجُّ النِّـسَاءُ مِـنْ خِيفَـةِ الـسَّبْـيِ   وَتَبكـي عَلَـى الـصِغارِ اليَتـامى

وعلى الرغم من سعي العبسيين للثأر من بني عامر بن صعصعة إلا إنّهم، على ما يبدو، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى النزول في بني عامر والتحالف معهم، ولاسيّما أنّهم كانوا ملاحقين

(١) السابق، ج٦: ص٦.
(٢) الخطيب التبريزي، زكريا بن يحيى بن علي(٥٠٢هـ)، **شرح ديوان عنترة**، تقديم مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١، ق١٢٠: ١؛ ٣؛ ٦-١٠.

من قيادة غطفان، فضلًا عن ذبيان، عقب قتلهم لسيّدها، حذيفة بن بدر الفزاريّ، في يوم الهباءة، أحد أيام حرب داحس والغبراء[١]، وقد تفاخروا بذلك، من خلال ما سطّروه من أشعار، كما هو الحال في شعر للحارث بن زهير العبسيّ، حين يقول:

تَرَكْتُ عَلَى الهَبَاءَةِ غَيْرَ فَخْرٍ حُذَيْفَةَ حَوْلَهُ قِصَدُ العَوَالِي
سَيُخْبِرُ قَوْمَهُ حَنَشُ بنُ عَمْرٍو إذَا لَاقَاهُمُ وَابْنَا بِلَالِ

وفي شعر آخر لقيس بن زهير، سيّد بني عبس، على الرغم ممّا أبداه من حزن على حذيفة بن بدر، والنّدم على مقتله[٢]:

تعَلَّم أَنَّ خَيرَ النَّاسِ مَيتٌ عَلَى جَفْرِ الهَبَاءَةِ لَا يَرِيمُ
وَلَولَا ظُلمُهُ مازِلتُ ابْكِي عَلَيهِ الدَّهرَ مَا طَلَعَ النُّجُومُ

ومع ذلك فإنّ الحرب لم تنته بينهم وبين ذبيان، بل على النقيض تمامًا، أخذ الخلاف يتعاظم بينهم، واتسعت دائرة الحرب؛ لتدخل حرب داحس والغبراء طورًا جديدًا، إذ إنّ مقتل حذيفة بن بدر شكّل منعطفًا كبيرًا في هذه الحرب، ليس على الصعيد القبليّ فحسب، وإنّما على الصعيد السياسيّ أيضًا؛ فقد وجد النعمان بن المنذر، ملك الحيرة آنذاك، في مقتل نائبه على غطفان على أيدي العبسيين تحديًا سافرًا لسلطته في نجد، وتمرّدًا صارخًا على قيادته في المنطقة[٣]. ولعلّ هذا، على ما يبدو، هو المقصود بقول أحدهم[٤]:

جَزَى اللهُ عَبْسًا عَبسَ آلِ بَغِيضٍ جَزَاءَ الكِلَابِ العَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١١٢.

(٢) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج١٧: ص ١٤٨ .

(٣) الراميني، النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة، ص١٣٧.

(٤) ينسب هذا الشعر للنابغة، وأحيانًا أخرى لعبد الله بن همام/ هماق، من بني عبد الله بن غطغان، مع الاختلاف في روايته، كما أنّ البيت الثاني ليس في ديوان النابغة (انظر: النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥٤: ١؛ الضبيّ، المفضل بن سلمة بن عاصم(٢٩١هـ)، **الفاخر في الأمثال**، اعتناء محمد عثمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١١، ص٢٢٧؛ الميداني، **مجمع الأمثال**، ج٢: ص١١٠؛ البغدادي، **خزانة الأدب**، ج١: ص١٨٧-١٨٨).

بِمَــا انْتَهَكُــوا مِــنْ رَبِّ عَــدْنَانَ جَهْــرَةً   وَعَـــوْفٌ يُنَـــاجِيهِم وَذَلِكُـــمُ جَلَـــلْ

والظاهر أنّ بني عبس ما كان لهم خيار آخر غير اللّجوء في بني عامر بن صعصعة، بعد أن فقدوا الأمل في كثير من الأحياء العربيّة التي نزلوا فيها؛ آملين في توفير الحماية لهم من ذبيان والحيرة.

في الواقع، ربّما كان بنو عامر هم الذين راسلوا بني عبس للنزول فيهم، بعد أن علموا بتوجّههم إلى الشام نحو الغساسنة[١]، ففاوضوهم على النزول فيهم ومحالفتهم، ويبدو أنّ بني عامر كانت تعلم ما قد تضيفه بنو عبس لتحالفهم من قوّة، وخصوصًا أنّهم علموا أنّ بني تميم تستعد لغزوهم للثأر منهم بعد مقتل سيّدها، معبد بن زرارة، على أيدي بني عامر، وقد تنبّه ابن الأثير لأهداف بني عامر من هذا التحالف حين قال[٢]: "وحالفهم الأحوص بن جعفر بن كلاب، فسُرّ بهم؛ ليقوى بهم على حرب بني تميم، لأنّه كان قد بلغه أنّ لقيط بن زرارة يريد غزو بني عامر، والأخذ بثأر أخيه معبد".

من المؤكّد أنّ بني عامر كانوا يتطلّعون إلى تحقيق مكاسب إستراتيجية أكثر أهميّة من الحلف نفسه مع بني عبس؛ فضمّ بني عبس إلى صفوفهم يعني، بالضرورة، زيادة قوّة تحالفهم، في مقابل إضعاف قوّة خصومهم، غطفان وحلفائها؛ فانشقاق بني عبس عن غطفان مثّل تحوّلًا جذريًّا في صفوفها، ففي الوقت الذي كانت فيه غطفان في أمس الحاجة لقوّة بني عبس للوقوف إلى جانبها لصدّ الهجمات الخارجيّة من بني عامر والغساسنة، وجدت نفسها في صراع داخليّ مع بني عبس؛ الأمر الذي زاد موقفها سوءًا، ولهذا راحت تتعالى صيحات في أوساط ذبيان تعلي من شأن بني عبس، وتشير إلى أهمية وجودهم في صفوف غطفان، فضلًا عن ذبيان، متناسية بذلك

---

(١) الضبيّ، المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، ص٢٢٧.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٦١.

الصراع بينهم وبين العبسيين فيما سبق من أحداث حرب داحس والغبراء، وهذا ما يفسّر إشارة النابغة إلى أهمية بني عبس لذبيان، وأنّ انطلاقهم إلى بني عامر شكّل خسارة كبيرة لذبيان، مصوّرًا، في الوقت نفسه، قوّة العبسيين وبأسهم(١):

أَبلِغْ بَنِي ذُبْيَانَ أَنْ لَا أَخَا لَهُمْ ... بِعَبْسٍ إِذَا حَلُّوا الدِّماخَ فَأَظْلَما
بِجَمْعٍ كَلَوْنِ الأَعْبَلِ الجَوْنِ لَوْنُهُ ... تَرَى فِي نَواحِيهِ زُهَيرًا وَحِذيَما
هُمُ يَرِدُونَ المَوْتَ عِنْدَ لِقائِهِ ... إِذَا كَانَ وِردُ المَوتِ لا بُدَّ أَكرَما

من الواضح أنّ النابغة، وهو يشيد ببطولات العبسيين، يرسّخ في أذهان بني ذبيان مدى الخسارة التي سيجنونها من فقدهم لبني عبس؛ فالنابغة، كما يرى العشماوي(٢)، كان حريصًا على أن تبقى ذبيان محتفظة بكيانها وقوّتها "لئلا تفقد بريقها بين القبائل النجديّة".

وبالعودة إلى أهمية بني عبس لذبيان، نجد زهير بن أبي سلمى قد نبّه على هذه الحقيقة، في وقت لاحق، بعدما تمّت المصالحة بين الطرفين، وقد وضعت الحرب أوزارها، إذ يقول(٣):

تَدارَكتُما الأَحلافَ قَد ثُلَّ عَرشُها ... وَذُبيانَ قَد زَلَّت بِأَقدامِها النَّعلُ

فزهير يرى أنّ ذبيان ستفقد هيبتها ومكانتها بين القبائل إن هي استغنت عن حليفها بني عبس.

في الواقع، ظلت أهمية بني عبس لغطفان، فضلًا عن ذبيان، ماثلة في الأذهان إلى وقت لاحق من ظهور الإسلام، فقد كشف الحطيئة، في شعر له، عن هذه الحقيقة عندما اصطلحت بنو عبس وذبيان إبّان حروب الرّدة، مشيرًا إلى القرابة التي تجمع بينهما، ولهذا كان كلّ منهما يقاتل

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٧: ١-٣.

(٢) العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص١٥٦.

(٣) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق٥: ٣٠.

إلى جانب الآخر لردّ العدو، ليس عن نفسه فحسب، وبل وعن أخيه أيضًا، مؤكّدًا على أنّ العبسيين قاتلوا إلى جانب غطفان لدفع الهوان والذلّ عنها(١):

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ذُبْيانًا وَعَبسًا ... لِباغي الحَرْبِ قَد نَزَلَا بَراحَا
فَقَالَ الأَجرَبانِ وَنَحنُ حَيٌّ ... بَنُو عَمٍّ تَجَمَّعُنا صِلَاحَا
مَنَعنا مَدفَعَ الثَّلَبوتِ حَتّى ... تُرِكْنَا راكِزِينَ بِهِ الرِّمَاحَا
نُقاتِلُ عَن قُرى غَطَفَانَ لَمّا ... خَشِينَا أَنْ تَذِلَّ وَأَن تُبَاحَا

الآن وقد اتضحت أهمية وجود بني عبس في صفوف غطفان؛ حفاظًا على مكانتها وهيبتها، اللتين كادت أن تفقدهما لولا أنّها تداركت الأمر، فقد شعرت غطفان بذلك في وقت متأخر، بعدما مُنِيت وحلفاؤها في نجد، من بني أسد وبني تميم والرّباب، فضلًا عن الحيرة، مرجعيتهم السياسيّة، بهزيمة نكراء على أيدي بني عامر وحلفائهم الجدد، بني عبس، بدعم كبير من السلطة المركزيّة في الشّام، وذلك في يوم جبلة المشهور؛ عندئذٍ أدركت غطفان وحلفاؤها مقدار القوّة التي أضافته بنو عبس إلى تحالف بني عامر بن صعصعة، ولهذا أخذ النعمان بن المنذر، كما يرى الراميني(٢)، يعيد النظر في عواقب حرب داحس والغبراء، بعد هزيمته وحلفائه في ذلك اليوم، ولاسيّما أنّ بني عامر أصبحوا، بعد هذا التحالف، قوّة لا يستهان بها في المنطقة، الأمر الذي أدّى بهم إلى التفكير ببسط نفوذهم على أراضي القبائل النجديّة؛ تنفيذًا لمخططات توسعيّة رسمتها القيادة السياسيّة في الشّام، الأمر الذي سيجعل الحيرة تقف في مواجهة الغساسنة(٣)، وهو ما لم يكن في حسبان الحيرة في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها، فقد بدأت أركان مملكتها بالتصدع وباتت آيلة للسقوط.

---

(١) الحطيئة، **الديوان**، ط٢، اعتناء حمدو طماس، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥، ص٣٤.

(٢) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٧.

(٣) الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٣٠٦.

وهذا، بدوره، ما يفسر محاولات ذبيان، بدعم من القيادة السياسيّة في الحيرة، الرامية لإضعاف ذلك التّحالف القائم بين بني عبس وبني عامر، ومن ذلك ما قام به النابغة، كما تروي المصادر[1]، من محاولة للإفساد بين العبسيين وبني شكل بن كعب، من بني عامر بن صعصعة، ففي شعر له، يعيّر النابغة بني عبس اغترابهم في بني عامر، مصوّرًا ضعفهم وهوانهم أمام ما يصنعه بهم بنو شكل من الفواحش[2]:

جَـزَى اللهُ عَبْـسًا فِـي المَـواطِنِ كُلِّهـا … جَـزَاءَ الكِـلاَبِ العَاوِيَـاتِ وَقَـدْ فَعَـلْ

فَأَصْـبَحْتُمُ وَاللهُ يَفْعَـلُ ذَلِكُـمُ … يِعُـزُّكُم مَـوْلَى مَـوَالِيكُمُ حَجَـلْ

وَأَصْـبَحْتُمُ وَاللهُ يَفْعَـلُ ذَلِكُـمُ … ....النّـسَاءَ المُرْضِـعَاتِ بَنُـو شَـكَلْ

إِذَا شَـاءَ مِـنْهُم نَاشِـئٌ دَرْبَخَـتْ لَـهُ … لَطِيفَـةُ طَـيِّ الـبَطْنِ رَابِيَـةُ الكَفَـلْ

من الواضح، هنا، أنّ النابغة كان يستشعر القوّة التي منحها العبسيّون لبني عامر بالتحالف معهم، ولهذا سعى للإفساد بين الطرفين من خلال تحريض كلّ طرف على الآخر. ويبدو أنّ محاولاته آتت أكلها، ففي رواية ينقلها المفضل بن سلمة الضبيّ[3] أنّ قيس بن زهير لمّا سمع شعر النابغة هذا قال: "ما له؟ قاتله الله، أفسد علينا حلفنا"، فخرجوا عنهم. كما أنّ عنترة، في شعر له، يلوم بني شكل بن كعب لمّا سمع منهم حديثًا يذكرون فيه بني عبس بسوء فكرهه، ولهذا أخذ يتوعدهم بالإغارة عليهم ولن يراعي ما بينهم من تحالف، كما أغار على بني جعفر بن كلاب وحلفائهم انتقامًا لمقتل زهير بن جذيمة[4]:

ظَعَـنَ الَّـذينَ فَـراقَهُم أَتَوَقَّـعُ … وَجَـرى بِبَيـنِهِمُ الغُـرابُ الأَبقَـعُ

حَـرِقُ الجنـاحِ كَـأَنَّ لِحيَـي رَأسِـهِ … جَلَمـانِ بِالأَخْبَـارِ هَـشٌّ مولَـعُ

فَزَجَرتُـهُ أَلّا يُفَـرِّخَ عُـشُّهُ … أَبَـدًا وَيُـصبِحَ واحِـدًا يَتَفَجَّـعُ

---

(١) البغدادي، **خزانة الأدب**، ج١: ص٢٨٨.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥٤: ١-٤.

(٣) الضبيّ، المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، ص٢٢٧.

(٤) الخطيب التبريزي، **شرح ديوان عنترة**، ق٨٠: ١-٥؛ ٩-١٠.

إنِّ الـــذِينَ نَعَيْـــتَ لِـــي بِفِـــرَاقِهِم ... هُـمْ أَسْـهَرُوا لَيْلِـي التَّمَـامَ فَـأَوجَعوا
وَمُغِيـــرَةٍ شَعْـــوَاءَ ذَاتِ أَشِـــلَّةٍ ... فِيهَـا الفَـوارِسُ حَاسِـرٌ وَمُقَنَّـعُ
كَـمْ فِـيهِمُ لِـي مِـنْ صَـدِيقٍ مَاجِـدٍ ... أَمْـسَى تَـوًى وَلِكُـلِّ جَنْـبٍ مَـصْرَعُ
وَلَقَـدْ صَـبَحْنَا جَعْفَـرًا وَضَـبَابَهَا ... وَبَنِـي الوَحِيـدِ بِكُـلِّ حِـزْقٍ يُـرْوِعُ

وفي أرجوزة لعنترة، أيضًا، يكشف عن تبدّل بني كعب لهم، وسعيهم للغدر بقومه بعد أن تحالفوا معهم، ولهذا أخذ يتوعدهم[1]:

قُلْـتُ مَـنِ القَـومُ فَقَـالوا سَـفَرَه
وَالقَـومُ كَعْـبٌ يَبتَغُـونَ المُنْكَـرَه
قُلْـتُ لِكَعْـبٍ وَالقَنَـا مُـشْتَجِرَه
تَعَلَّمِـي يَـا كَعْـبُ وَامْـشِي مُبْـصِرَه
ثُـمَّ اِذْهَبِـي مِنّـي وَكُـونِي حَـذِرَه

من المؤكّد أنّ بني عبس ما كانت لتنسى ما فعله بنو عامر بهم، عندما أقدموا على قتل سيّدهم زهير، على الأقل، هذا ما يشير إليه عنترة في شعره السابق. وهذا، في الوقت نفسه، ما يكشف عن أصوات في بني عامر كانت كارهة لتحالفهم مع بني عبس، وكانت ترى وجوب القضاء عليهم قبل أنّ تقوى شوكتهم، فلا يستطيعون صدّهم، فالمصادر[2] تحتفظ بقول لعوف بن الأحوص، أحد سادات بني عامر بن صعصعة، يخاطب فيه قومه في شأن بني عبس قائلًا: "يا بني جعفر إنّ بني عبس أدنى عدوكم إليكم، إنما يجمون كُراعهم ويحدّون سلاحهم، ويأسون قرحهم فيكم، فأطيعوني وشدّوا عليهم قبل أن يندملوا". وينقل الميداني[3]، من جانبه، بيتًا من الشعر ينسب، أيضًا، إلى عوف بن الأحوص، يؤكد فيه ما جاء على لسانه في شأن موقفه من بني عبس، يقول فيه:

---

(١) السابق، ق٥٥: ١-٥.
(٢) الضبيّ، المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، ص٢٢٧.
(٣) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج٢: ص١١٠.

وإنِّـــي وَقَيْـــسًا كَالمُـــسَمِّنِ كَلْبَـــهُ   فَخَدَّشَـــــهُ أَنْيَابُـــــه وَأَظَـــــافِرُه

الآن، بات من المؤكّد أنّ سادة من بني عامر كانوا رافضين لوجود بني عبس في صفوفهم، وهذا يعني أنّهم كانوا على يقين أنّ بني عبس لن تصفو لهم، ولن تنسى ثأرها عندهم، وهذا ما يؤكّده العبسيّون أنفسهم في أشعارهم ذات العلاقة[(١)]، الأمر يعني أنّ العلاقة بين الطرفين يسودها التوتر والاضطراب، وإن كانت في ظاهرها علاقة تقارب وتحالف.

ولكن، على ما يبدو، أنّ كلا الطرفين وجد مصالحه في هذا التحالف، فارتضوا به، ولو على مضض؛ فبنو عبس كانوا يسعون للمّ شملهم وإعادة ترتيب صفوفهم أثناء وجودهم في بني عامر، بعد أن أنهكتهم الحرب، وإن كان شيء من أهدافهم لم يتحقق، في حين أنّ بني عامر كانت تسعى، كما سبق الإشارة، إلى ضمّ بني عبس إلى صفوفها، ومن ثَمّ الزجّ بهم في حربها مع تميم، وبذلك تحقق مكاسبها على كلّ الأصعدة؛ فمن جهة، تضمن زيادة قوتها في مواجهة أعدائها، ومن جهة أخرى، تضمن بقاء بني عبس منشغلين عن مطالبتها بدم سيدهم، زهير بن جذيمة، من خلال إقحامهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا بعير، فضلًا عن سعيها لإبقاء الصراع محتدمًا بين أبناء القبيلة الواحدة؛ فوجود بني عبس في صفوف بني عامر، والقتال إلى جانبهم ضدّ الأحلاف في يوم جبلة، يعني، بالضرورة، بقاء بني عبس في مواجهة مع ذبيان، وبذلك يزداد الحقد بين الطرفين، وهو ما يجعل بني عامر تضمن ضعف شوكة كلا الطرفين، فلا يقوى أحد على الوقوف في وجهها، فتخلو لها الساحة أمام أطماعها في المنطقة، وخاصة أنّ القيادة السياسيّة في الشّام تؤمن لهم غطاء قويًّا من الدعم اللازم لذلك.

---

(١) انظر، مثلًا، الخطيب التبريزي، **شرح ديوان عنترة**، القصائد ذوات الأرقام٢٠، ٦٢، ٦٩،٨٠، ١٢٠.

ولهذا يمكن وصف التحاق بني عبس ببني عامر بأنّه تحوّل في ولائها السياسيّ من معسكر الحيرة إلى معسكر الغساسنة، وهذا ما كانت تسعى له القيادة السياسيّة في الشّام، وبذلك تضمن أن يبقى الصراع محتدمًا بين القبائل العربيّة في نجد دون أن يكلفها ذلك الكثير من الخسائر.

الآن، وقد اتضحت لنا أبعاد التحالف بين بني عامر وبني عبس، فينبغي علينا أن نعيد النظر في القصائد التي وجّهها النابغة إلى بني عبس، يعيّرهم فيها اغترابهم في بني عامر.

ويبدو أنّ هذه الأبعاد ما كانت لتنطلي على النابغة وحلفائه، وهذا ما يفسّر سعي النابغة للإيقاع بين بني عبس وبني عامر من جديد، ففي قصيدة أخرى له وجّهها، هذه المرّة، إلى أبي حريث، الربيع بن زهير العبسيّ[1]، يشير فيها إلى سعيه للإيقاع بينهم وبين قبائل من بني عامر وأخرى من تميم[2] :

أَلا أَبلِغ لَدَيكَ أَبا حُرَيثٍ ... وَعاقِبَةُ المَلامَةِ لِلمُليمِ
فَكَيفَ تَرى مُعاقَبَتي وَسَعيي ... بِأَذوادِ القَصيبَةِ وَالقَصيمِ
فَنِمتُ اللَيلَ إِذ أَوقَعتُ فيكُم ... قَبائِلَ عامِرٍ وَبَني تَميمِ
وَساغَ لِيَ الشَرابُ وَكُنتُ قَبلًا ... أَكادُ أَغَصُّ بِالماءِ الحَميمِ

ويمكن القول إنّ ذلك قد تحقق فعلًا، في ضوء ما يوحي به كلّ من البيت الأخير وعبارة " فنمت الليل" في البيت السابق، إذ إنّ نوم الليل واستساغة الشراب بعد الغصّة به فيه دلالة كافية على تحقيقه لأهدافه، فالمصادر[3] تشير إلى عودة بني عبس إلى القبيلة الأم، غطفان، بعد أن سوّوا خلافاتهم مع أبناء عمومتهم في ذبيان، واتفاقهم على الصلح وفق شروط معينة رضي بها الطرفان، بعد أن تكفّل بها سادات من بني مرّة، وإن كان الصلح لم يرض بعض الأطراف في ذبيان، على نحو ما سيظهر لاحقًا.

---

(١) البغدادي، **خزانة الأدب**، ج١: ص٤٢٧.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٢: ١-٤.

(٣) الضبيّ، المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، ص٢٢٩.

على أيّة حال، لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يتم فيها إجراءات، من هذا النوع، من أجل المصالحة بين بني عبس وذبيان، فقد كشفت المصادر[١] عن سعي سادات من يثرب لفضّ النزاع بين الطرفين، ورأب الصدع بينهما، وأنّ ذلك حدث في بواكير هذه الحرب، ولكنّ محاولتهم باءت بالفشل، ويبدو أنّ فشلها كان مرتبطًا بسعي البعض لإبقاء الصراع محتدمًا بين أبناء القبيلة الواحدة، كما يفهم من شعر قيس بن زهير، والذي يخاطب فيه سنان بن أبي حارثة المريّ، بأنّ موقفه الرافض للمصالحة بين بني عبس وذبيان كان سببًا في التفريق بين الجماعة والأهل، في وقت مبكر من الحرب بينهما، ولهذا يطلب زهير إلى ذبيان مراجعة أنفسهم في الصلح قبل فوات الأوان، حيث يقول[٢]:

يَوَدُّ سِنَان لو يُحارب قَوْمَنَا وفي الحَرْبِ تَفْرِيقَ الجَمَاعَةِ وَالأَزْلُ
يَدُبُّ وَلا يَخْفَى ليُفْسِدَ بَيْنَنَا دَبِيبًا كما دَبَّتْ إلى جُحرِها النَّمْلُ
فيا ابنَيْ بَغِيضٍ رَاجِعَا السِّلْمَ تَسْلَمَا ولا تُشْمِتَا الأَعْدَاءَ يَفْتَرِقِ الشَّمْلُ
وإن سبيلَ الحربِ وَعْرٌ مُضِلَّةٌ وإِنَّ سَبِيلَ السِّلْمِ آمِنَةٌ سَهْلُ

ويبدو أنّه ليس بلا مغزى أن يسعى سنان بن أبي حارثة لرفض المصالحة في أكثر من موقف[٣]، فمن الواضح أنّه كان يسعى إلى تسلّم قيادة غطفان، فضلًا عن ذبيان، فهو الأجدر بها من بعد حذيفة بن بدر، وبالفعل تمّ له ذلك بعد مقتل حذيفة يوم الهباءة.

من جهة أخرى، كان إفشال المصالحة بين بني عبس وذبيان يصبّ، في الغالب، في مصلحة المعسكر الغسانيّ أكثر منه في مصلحة المعسكر الحيري، والظاهر أنّ القيادة السياسية في الحيرة لم تكن تدرك، في هذه المرحلة المبكرة من الحرب، حجم الأضرار التي ستلحق

---

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٥٦.

(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج٢: ص١١٠.

(٣) انظر، جاد المولى بك، محمد أحمد، وعلي البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، **أيام العرب في الجاهلية**، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣، ص٢٦٠-٢٦٧.

بمصالحها الإستراتيجية في المنطقة لاحقًا، ولكنّها شعرت بذلك في وقت لاحق، وإن كان متأخرًا، فسعت جاهدة لإنجاح المساعي المبذولة لإتمام تلك المصالحة.

ويمكن تفسير رجوع بني عبس إلى قومهم بأنّ خلافًا قد وقع بينهم وبين بني عامر(١)، على الأقل هذا ما يفهم من شعر النابغة السابق(٢)، ومن شعر آخر لقيس بن زهير(٣):

لَحَا اللهُ قَوْمًا أَرَّشُوا الحَرْبَ بَيْنَنَا   سَقَوْنَا بِهَا مُرًّا مِنَ الشُّرْبِ آجِنَا

فليس من المستبعد أن يكون مقتل خالد بن جعفر على يد الحارث بن ظالم المريّ سببًا في هذا الخلاف. على أيّة حال، لقد أفضى هذا الخلاف في نهايته إلى تحوّل بني عبس من جديد إلى ولائهم القديم للحيرة.

ثانيًا: لجوء بني يربوع بن غيظ في بني عذرة بن سعد.

يكشف لنا شعر النابغة عن أنّ خلافًا واسعًا دبّ في أوساط قبيلة ذبيان، وتحديدًا بين قومه، بني يربوع بن غيظ، وبين أحياء من أبناء عمومتهم، بني مرّة، تناصرها سائر قبيلة ذبيان(٤):

ألا أَبلِغا ذُبيانَ عَنّي رِسالَةٍ   فَقَد أَصبَحَت عَن مَنهَجِ الحَقِّ جائِرَه
أَجِدَّكُمُ لَن تَزجُروا عَن ظُلامَةٍ   سَفيهًا وَلَن تَرعَوا لِذي الوُدِّ آصِرَه
فَلَو شَهِدَت سَهمٌ وَأَبناءُ مالِكٍ   فَتُعذِرُني مِن مُرَّةَ المُتَناصِرَه
لَجاؤوا بِجَمعٍ لَم يَرَ النّاسُ مِثلَه   تَضاءَلُ مِنهُ بِالعَشِيِّ قَصائِرَه

فالنابغة يعلن انحياز ذبيان إلى طرف دون آخر، فلم تكن منصفة بل إنّها، حسب وصفه، حادت عن طريق الحقّ، ويبدو أنّ أحياء بني مرّة كلّها، باستثناء بني سهم بن مرّة وبني مالك بن مرّة، وقفوا ضدّ النابغة وقومه، ويكشف النابغة، من جانبه ، في موطن آخر، عن تحالف ضدّه وضدّ

(١) وقد تعاظم هذا الخلاف حتّى وصل إلى ذروته في يوم النتاءة (انظر السابق، ص٢٨١).
(٢) انظر، النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٢: ١-٤.
(٣) الضبيّ، المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، ص٢٢٩.
(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٨: ١-٤.

قومه، نفّذته بنو مرّة، يقودهم يزيد بن سنان بن أبي حارثة المريّ، حين أخذ هذا الأخير "يمحش" "المِحاش"، ضدّ بني يربوع بن غيظ[1]:

جَمِّع مِحاشَكَ يا يَزِيدُ فَإِنَّني أَعْدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُم وَتَميما

و"المحاش" "هم بنو خصيلة بن مرّة وبنو نشبة بن غيظ بن مرّة، تحالفوا على النار ضدّ بني يربوع ابن غيظ بن مرّة، رهط النابغة، فسمّوا "المحاش" لتحالفهم على النار"[2]، وفي بعض المصادر[3] نجد أنّ عموم أحياء بني مرّة كانوا ضمن هذا التحالف؛ فإلى جانب بني خصيلة وبني نشبة، هناك بنو صرمة بن مرّة، وبنو مالك بن مرّة، وبنو سهم بن مرّة، لكنّ إدخال بني سهم وبني مالك، في هذا الحلف، يتناقض مع ما جاء في شعر النابغة السابق[4]. ومن رواية أخرى تُنقل عن الأصمعي[5] أنّ "المحاش" أربعة أحياء من بني فزارة وبني مرّة، ويبدو أنّ رواية الأصمعي هي الأكثر صحة من غيرها؛ خاصة وأنّها، كما يرى الراميني[6]، قد اشتملت على عناصر من فزارة؛ فالعلاقة وطيدة بين بني مرة وبني فزارة، فسجلّهما التاريخي لم يسجّل أي نزاع بينهما، بل إنّ تاريخهما يكشف عن تعاون وثيق بينهما في كثير من الحروب[7]، ينضاف إلى ذلك أنّ النابغة، في شعره السابق (ق٢٨)، يوجّه خطابه إلى ذبيان كلّها، وهذا، بالطبع، يشمل بني فزارة وبني مرّة، الفرعين الرّئيسيين فيها.

---

(١) السابق: ق١٦: ١.

(٢) انظر، النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٦ (المقدمة)، قارن: علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٧: ص٣٨٠.

(٣) الجمحيّ، **طبقات فحول الشعراء**، ج١: ص١٠٨.

(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٨: ٣.

(٥) السابق، ص١٠٢.

(٦) الراميني، النابغة الذبياني ، ص١٣٢.

(٧) يمكن الإشارة هنا إلى انضوائهما تحت لواء حصن بن حذيفة بن بدر الفزاريّ في يومي النّسار والجِفار (انظر، علي، **المفصل في تاريخ العرب**، ج٨: ص١٠٤)؛ وكذلك تعاونهما على بني عامر بن صعصعة في يوم الرّقَم (انظر، البغدادي، **خزانة الأدب**، ج٣: ص٧٨).

كما يكشف النابغة عن نتيجة هذا الخلاف في أوساط قبيلة ذبيان، وتحديدًا في بني مرّة، حيث أفضى إلى نفي النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، خارج حدود القبيلة[1]:

لِيَهنَــئ لَكُــم أَنْ قَــد نَفَيــتُم بُيوتَنــا … مُنَــدّى عُبَيــدانَ المُحَــلِّإِ بــاقِرَه

وهذا ما يؤكّده النابغة في موطن آخر حين يعلن أنّه وقومه تركوا نسبهم في ذبيان، ولجأوا في بني عذرة بن سعد، ثمّ في بني تميم بن ضنّة[2]:

جَمِّــع مِحاشَــكَ يــا يَزيــدُ فَــإِنَّني … أَعــدَدتُ يَربوعًــا لَكُــم وَتَميمــا

وَلَحِقــتُ بِالنَــسَبِ الَّــذي عَيَّرتَنــي … وَتَرَكــتَ أَصــلَكَ يــا يَزيــدُ ذَميمــا

عَيَّرتَنــي نَــسَبَ الكِــرامِ وَإِنَّمــا … فَخــرُ المَفــاخِرِ أَن يُعَــدَّ كَريمــا

حَــدِبَت عَلَــيَّ بُطــونُ ضِــنَّةَ كُلُّهــا … إِن ظالِمًــا فــيهِم وَإِن مَظلومــا

في الواقع، يخلو ديوان النابغة من أيّة أسباب أدّت إلى هذا الخلاف، وإن كانت بعض المصادر [3] ترجعها إلى أسباب شخصيّة بين النابغة ويزيد بن سنان المرّيّ، حين ترى أنّ الثاني أقدم على طلاق أخت النابغة كانت تحته[4]، فاشتدّ الشرّ بينهما، حتى أخذ يزيد بن سنان يعيّره ويعرّض به؛ حين كان يدّعي بأنّ النابغة وقومه ليسوا من بني مرّة، وإنّما من بني عذرة، وكان يقول[5]:

إِنّــي امــرؤٌ مِــن صُــلْبِ قَــيسٍ مَاجِــدٍ … لا مُــدّعٍ نَــسبًا ولا مُــستَنكِرِ

وفي رواية عن ابن السكيت[6] أنّ يزيد بن سنان كان يقول للنابغة:

الْحَــق بِــسَحمَةَ إنّ أَصــلَكَ مِــنهمُ … حُــقَّ ابــنُ سَــحْمَةَ أَنْ يَكــونَ لَئِيمــا

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٨: ٥.

(٢) السابق، ق١٦: ١–٤.

(٣) الجمحيّ، **طبقات فحول الشعراء**، ج١: ص١٠٧.

(٤) في بعض المراجع ابنته (انظر: ضيف، **العصر الجاهلي**، ص٢٦٦).

(٥) **التوضيح والبيان في شعر نابغة ذبيان**، ص٧٣.

(٦) الجمحيّ، **طبقات فحول الشعراء**، ج١: ص١٠٧ (حاشية٤).

وبنو سحمة الذين يدعو يزيد النابغة للالتحاق بهم هم بطن من بني عذرة[١].

غير أنّ هذه الأسباب التي تدعيها المصادر غير مقنعة، لاسيّما وأنّ بني مرّة أخرجوا النابغة وعشيرته الدنيا، بني يربوع بن غيظ، من القبيلة، فلو كان الأمر شخصيّا كما يقولون؛ فلماذا ترحل عشيرته معه؟ وكان حريًّا أن يرحل النابغة وحده، أو على الأقل، يرحل هو وأهل بيته الأقربين، لا قومه جميعًا.

ويقدم محمد فوزي أمين[٢]، من جانبه، سببًا آخر لهذا الخلاف، حين رأى أنّ تمسّك كلّ طرف من بني مرّة بحليفه من قضاعة كان وراء هذا الخلاف، فكلّ "حيّ من مرّة كان يحالف حيًّا من قضاعة؛ فبنو صرمة يحالفون بني سلامان بن سعد، وبنو سهم يحالفون بني خميس بن عامر، وكلّ حيّ شديد التمسّك بحلفه"، وأنّهم لم يتركوا حلفهم عندما طُلب إليهم ذلك، فاختاروا القتال على أن يتركوا حلفاءهم، مستشهدًا بمفضليّة لبشامة بن الغدير[٣]:

فَإِمّا هَلَكتُ وَلَم آتِهِم ... فَأَبلِغ أَماثِلَ سَهمٍ رَسُولا
بِأَن قَومكُم خُيِّروا خَصلَتَي ... نِ كِلتاهُما جَعَلوها عُدُولا
خِزيُ الحَياةِ وَحَربُ الصَديقِ ... وَكُلًّا أَراهُ طَعامًا وَبِيلا
فَإِن لَم يَكُن غَيرُ إِحداهُما ... فَسيروا إِلى المَوتِ سَيْرًا جَمِيلا

ويبدو أنّ ذلك حدث في أعقاب يوم "دارة موضوع"، عندما دافع بنو سهم، وعلى رأسهم الحصين ابن الحمام المرّيّ، عن حلفهم مع بني خميس بن عامر، المعروف بحلف "الحرقة"[٤]، وكانت

---

(١) السمعاني، **الأنساب**، ج٧: ص١٣٤.
(٢) أمين، **قراءة جديدة في شعر النابغة**، ص٦-٨.
(٣) **المفضليات** (شرح أبي القاسم بن محمدالأنباري)، تحقيق تشارلز ليال، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعية، ١٩٢٠، ق١٠: ٢٩-٣١.
(٤) انظر، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٠: ص١١٣.

غطفان ممثلة ببني فزارة، تريد تقويض هذا الحلف وتناصر بني صرمة بن مرّة على أخوتهم بني سهم، وقد سجّل الحصين بن الحمام ذلك(١):

جَــزى اللَــهُ أَفنــاءَ العَــشيرَةِ كُلِّهــا	**بِـــدارَةِ مَوضـــوعٍ عُقوقًـــا وَمَأثَمـــا**
بَنــي عَمِّنــا الأَدنَــينَ مِــنهُم وَرَهطَنَــا	**فَــزارَةَ إِذ رامَــت بِنــا الحَــربُ مُعظَمــا**
مَــوالي مَوالينـــا الـــوِلادَةُ مِـــنهُمُ	**وَمَـــولى اليَمـــينِ حابِـــسًا مُتَقَـــسَّما**
وَلَمّـــا رَأَيـــتُ الـــوُدَّ لَـــيسَ بِنـــافِعي	**وَإِن كـــانَ يَومًـــا ذا كَواكِـــبَ مُظلِمـــا**
صَـــبَرنا وَكـــانَ الـــصَبرُ فينـــا سَـــجِيَّةً	**بِأَســـيافِنا يَقطَعـــنَ كَفًّـــا وَمِعـــصَما**
يُفَلِّقـــنَ هامًـــا مِـــن رِجـــالٍ أَعِـــزَّةٍ	**عَلَينـــا وَهُـــم كـــانوا أَعَـــقَّ وَأَظلَمـــا**

من جهة أخرى، يحاول محمد فوزي أمين أن يلقي الضوء على إصرار بني فزارة القاضي بإبقاء الحرب مستعرة بين أبناء الحيّ الواحد من بني مرّة، مبينًا أنّ فزارة كانت تخشى أن تتقلب بعض أحياء بني مرّة عليها في محاولة منهم لنزع الزعامة منها، ولهذا كانت تحرص فزارة على ألا تجتمع كلمة لبني مرّة؛ فناصرت بني صرمة وحلفهم مع بني سلامان بن سعد على بني سهم وحلفهم مع بني خميس بن عامر، وفي نهاية المطاف، يخلص إلى أنّ هذه التحالفات القويّة بين أحياء من بني مرّة وأحياء من قضاعة كانت سببًا لما رُميت به بنو مرّة من أنّهم من قضاعة، وليسوا من ذبيان، وهذا ما يفسّر انتساب النابغة وقومه في أحلافهم القضاعيين، وتفضيلهم لقضاعة على قومه، كما يفهم من شعره السابق (ق١٦).

إذن، يفسّر محمد فوزي أمين لجوء النابغة وقومه في بني عذرة على أساس تمسّكهم بحلفهم مع أحياء قضاعة. في الحقيقة، هذا التفسير يحتاج إلى إعادة نظر لأسباب كثيرة، أبسطها أنّ الذي سعى في نفي النابغة وقومه هم بنو مرّة أنفسهم، فالخلاف القائم بينهم يقوده أحد سادة بني مرّة، يزيد بن سنان المريّ، وليست فزارة، صحيح أنّ فزارة ساندت المريين في ذلك، كما يفهم من

(١) **المفضليات**، ق١٢: ١-٦.

رواية الأصمعي السابقة، ومن شعر النابغة السابق (ق٢٨)، إلا إنّ هذا لا يعني، بالضرورة، أنّهم هم الذين قادوا إجراءات النفي، وعليه، لا تبدو الأسباب التي يقدّمها محمد فوزي أمين حول هذا الخلاف مقنعة أيضًا، إذن لا بدّ من أسباب أو سبب آخر أكثر إقناعًا يكشف لنا سرّ هذا الخلاف، والذي أفضى في نهايته إلى نفي بني يربوع بن غيظ خارج قبيلة ذبيان.

ويقدم الراميني[١]، من جانبه، سببًا للخلاف الذي دبّ في أوساط ذبيان، يفسّر فيه لغز "المحاش"، وعلى ما يبدو أنّه، هذه المرة، الأكثر إقناعًا والأقرب للمنطق من غيره، فالراميني يرى أن أطرافًا من ذبيان لم تكن راضية عن وثيقة الصلح المبرم بين بني عبس وبني ذبيان لإنهاء حالة الحرب الدائرة بين الطرفين بسبب داحس والغبراء، صحيح أنّ شعر النابغة، فضلًا عن روايات الأخباريين، لم تقدم لنا شيئًا عن الأسباب التي جعلت بني مرّة، ومن خلفهم أحياء كثيرة من ذبيان، يتناصرون ضده وضد قومه، إلا إنّ شعر زهير بن أبي سلمى قد يقدم لنا شيئًا، ويكشف كثيرًا من الملابسات حول ذلك الخلاف، فزهير بن أبي سلمى يذكر، في معلقته، ما يفيد من أنّ حصين بن ضمضم ، سيّد بني يربوع بن غيظ، أقدم على قتل رجلين من بني عبس، بعد أن تم الاتفاق على شروط الصلح بين الطرفين[٢]:

لَعَمري لَنِعمَ الحَيُّ جَرَّ عَلَيهِمُ	**بِما لا يُواتيهِم حُصَينُ بنُ ضَمضَمِ**
وَكانَ طَوى كَشحًا عَلى مُستَكِنَّةٍ	**فَلا هُوَ أَبداها وَلَم يَتَجَمجَمِ**
وَقالَ سَأَقضي حاجَتي ثُمَّ أَتَّقي	**عَدُوّي بِأَلفٍ مِن وَرائِيَ مُلجَمِ**
فَشَدَّ وَلَم تَفزَع بُيوتٌ كَثيرَةٌ	**لَدى حَيثُ أَلقَت رَحلَها أُمُّ قَشعَمِ**

يرى الراميني أنّ شعر زهير هذا يقدم معلومات مهمّة لتفسير لغز "المحاش"، أهمها أنّ ما فعله حصين بن ضمضم في حق بني عبس، عندما قتل رجلين منهم، يعدّ ذنبًا عظيمًا، وأنّ ما

(١) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣١-١٣٦.

(٢) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ٣٤-٣٧.

فعله لا يتفق مع إرادة سادة آخرين من قومه، بعد أن سعوا إلى إتمام عملية الصلح بين يني عبس وبني ذبيان، وأنّ هذا الذنب من شأنه أن يحمّل القبيلة أوزارًا هي بغنى عنها، إلى جانب ذلك، يشير زهير إلى أنّ حصين بن ضمضم كان يضمر ما أقدم عليه، وأنّ هناك من يؤيّده، من قومه، بما فعل.

في الواقع، ما يعلنه زهير هنا يتفق مع كثير من المصادر[(١)] حين تتحدث عن رفض حصين ابن ضمضم لوثيقة الصلح، وعدم دخوله فيه، عندما قام بقتل رجلين من عبس انتقامًا لمقتل أبيه وأخيه اللذين قتلا فيما سبق من أحداث حرب داحس والغبراء، فقد قُتل أبوه على يدي عنترة بن شدّاد العبسيّ في يوم المريقب[(٢)]، وهذا ما يعلنه عنترة في معلقته، في ردّ منه على تهديد حصين ابن ضمضم وأخ له، وأنّه يخشى أن تنتهي الحرب قبل أن يلاقيهما[(٣)]:

وَلَقَد خَشيتُ بِأَن أَموتَ وَلَم تَدُر ... لِلحَربِ دائِرَةٌ عَلى اِبنَي ضَمضَمِ

الشّاتِمَي عِرضي وَلَم أَشتِمهُما ... وَالناذِرَينِ إِذا لَم اَلقَهُما دَمي

إِن يَفعَلا فَلَقَد تَرَكتُ أَباهُما ... جَزَرَ السِّباعِ وَكُلِّ نَسرٍ قَشعَمِ

شعر عنترة هذا يضع بين أيدينا سببًا وجيهًا يفسّر رفض حصين بن ضمضم لوثيقة الصلح بين بني عبس وذبيان، وهو تمسّكه بالثأر لأبيه وأخيه من بني عبس، وهذا يوافق ما ترويه بعض المصادر[(٤)]عن البغضاء بين حصين بن ضمضم وبعض رجالات بني عبس.

وفي السياق ذاته، يمكن الإشارة إلى شعر ينسب إلى عروة بن الورد، يتعرّض فيه لحصين بن ضمضم بالهجاء، بأنّ بخله هو ما منعه من الدخول في الصلح، فأخذ يتوعد ولكن دون جدوى[(١)]:

---

(١) انظر، مثلا: ابن قتيبة، **المعاني الكبير**، ج٦: ص٨٨٠؛ البغدادي، **خزانة الأدب**، ج٣: ص٥.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٢٠.

(٣) الخطيب التبريزي، **شرح ديوان عنترة**، ق١: ٨٣-٨٥.

(٤) ابن منبه، وهب، **التيجان في ملوك حمير**، صنعاء: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٩٢٨، ص١٣٢-١٣٣.

كَـمْ أَبَيْـتَ الرَّشَـادَ مِـنْ سِـلْمِ عَـبسٍ وَأتَانَـــا مِـــنْ دُونِ ذَاكَ الوَعِيـــدُ
أَنْـــتَ أَوْعَـــدْتَ لِلْحَـــرْبِ وَعِيـــدا ذَاكَ وَعـــدٌ يَـــأتِي بِـــكَ الموعـــودُ
إنَّمَـــا عَاقَـــكَ العـــشَارُ عَـــن الـــسِّلْ مِ وطَعـــمِ الحُـــروبِ مُـــرٌّ شَـــدِيدُ
صَـدَّكَ البُخْـلُ عَـن حَرِيمِـكَ حتَّـى جِئــتَ بِالــشُّؤمِ والبَخِيــلُ صَــدُودُ
هَـل تَخوَّفْـتَ مَـا مَـضَى مِـن سُـؤالٍ وَزَمَـــانُ الـــرَّدَى عَلَيـــكَ يَعُـــودُ

إنّ ما يعلنه عروة بن الورد، في البيت الأول، عن رفض حصين بن ضمضم للصلح مع بني عبس يتفق مع مضمون شعر زهير بن أبي سلمى السابق، وهو في الوقت نفسه يفسّر قتل حصين بن ضمضم لرجلين من بني عبس، فمن الواضح أنّ ما كان يدور بين حصين وبين رجال بني عبس، من وقت لآخر من أهاجٍ، أغار صدره عليهم، وأخذ يتحيّن الفرصة السانحة الانتقام منهم، وهذا ما كان له بالفعل.

من جهة أخرى، إنّ ما فعله حصين بن ضمضم كاد أن يشعل نار الحرب من جديد بين الطرفين، لولا تدخّل آل أبي حارثة من بني مرّة بوصفهم كفلاء للصلح، فقد دفعوا ديات القتيلين إلى بني عبس(٢)، فضلًا عن دفعهم لديات القتلى من الطرفين أثناء الاتفاق على شروط الصلح، هذا ما يفهم من شعر لزهير بن أبي سلمى يقول فيه(٣):

سَـعى سـاعِيا غَـيظِ بـنِ مُـرَّةَ بَعـدَما تَبَـزَّلَ مـا بَـينَ العَـشيرَةِ بِالـدَمِ
تَـدارَكتُما عَبـسًا وَذُبيـانَ بَعـدَما تَفـانوا وَدَقّـوا بَيـنَهُم عِطـرَ مَنـشِمِ
وَقَـد قُلتُمـا إِن نُـدرِكِ الـسِلمَ واسِـعًا بِمـالٍ وَمَعـروفٍ مِـنَ الأَمـرِ نَـسلَمِ

ومن شعر آخر ينسب إلى شبيب بن يزيد المريّ، المعروف بـ"ابن البرصاء"(٤):

---

(١) السابق، ص١٣٤.

(٢) انظر، الميداني، **مجمع الأمثال**، ج٢: ص١١٠.

(٣) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ١٦-١٨.

(٤) ابن بكار، الزبير(٢٠٦هـ)، **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٢، ج١٣: ص٢٩.

ونحْـنُ رَهَنَّـا القـوسَ فـي حـرب داحِـسٍ   بِــأَلفٍ وكانــت بعـدَها مِئَتَــانِ

ومن شعر آخر للنابغة نفسه، يؤكد فيه على دور بني مرّة في إنهاء الصراع بين بني عبس وذبيان، من أجل مصلحة غطفان(١):

إنَّـا نُقَـدِّمُ لِلْفَخَـارِ ثَلاثَـةً   هَرِمًـا وَعَوْفًـا عَمَّـهُ وَسِـنَانَا
وَنَعُـدُّ خَارِجَـةَ المَكَـارِمِ إِذْ سَـعَى   بِحَمَالَـةٍ فَاسْتَخْلَـصَتْ غَطَفَانَـا

من الواضح أنّ سادات بني مرّة جميعهم قد تصدّوا لإنهاء النزاع بين الطرفين.

من جهة أخرى، من الممكن أن يكون النابغة قد أنشد هذا الشعر قبل تحالف بني مرّة ضدّ قومه، أي في بداية الاتفاق على الصلح، وقبل أن يُقدم حصين بن ضمضم على قتل العبسيين، فتسوء علاقته ببني مرّة على نحو ما رأينا.

والآن، يمكن أن نفهم أنّ ما فعله حصين بن ضمضم لم يرض بني مرّة، ولهذا تعالت صيحات في قبيلة ذبيان تلوم القوم على الحرب، وتدعوهم إلى تذكّر الرحم التي بينهم، ومن ثمّ إلى الصلح، كما فعل شُبيم/شُتيم بن خويلد الفزاريّ(٢):

يـا قَومَنـا لا تَغْرُونـا بِمَظلَمَـةٍ   يـا قَومَنـا وَاذكُـروا الآلاءَ وَالـذِّمَما
فـي جـارِكُم وَابـنِكُم إذ كـانَ مَقتَلُـهُ   شَـنعاءَ شَـيَّبَتِ الأَصـداغَ وَاللِّمَمـا
عَـيَّ المَـسودُ بِهـا وَالـسّائِدونَ وَلَـم   يوجَـد لَهـا غَيرُنـا مَـولىً وَلا حَكَمـا
أَإِن أَغـارَ عَلَـيكُم لا أَبـا لَكُـمُ   حِـصنٌ تُقَطِّـرَ آفـاقَ الـسَماءِ دَمـا
أَدّوا ذِمامَـةَ حِـصنٍ أَو خُـذوا بِيَـدٍ   حَربًـا تَحُـشُّ الوَقـودَ الجَـزلَ وَالـضَرَما

وفي ذات السياق، يقول عبد قيس بن بجرة، المعروف بابن عنقاء الفزاريّ، معتذرًا عمّا فعله حصين ابن ضمضم(١):

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٠: ١-٢.

(٢) أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيميّ البصريّ(٢٠٩هـ)، **نقائض جرير والفرزدق**، وضع الحواشي خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ج١: ص٨٢-٨٣.

إنْ تَـــأتِ عَـــبسٌ وَتَنْـــصُرهَا عَـــشِيرَتُها فَلَـــيسَ جَـــارُ ابـــنِ يَربـــوعٍ بِمَخْـــذُولِ
كِـــلَا الفَـــرِيقَينِ أَعْيَـــا قَتْـــلُ صَـــاحِبِهِ هَـــذَا القَتِيـــلُ بِمَيْـــتٍ غَيـــرِ مَطْلُـــولِ

إنّ أقل ما يمكن أن نفهمه من هذا الشعر، فضلًا عن سابقه، أنّ الحرب كادت أن تشتعل من جديد، وهذا ما يتفق مع ما ترويه المصادر[٢] من أنّ بني عبس، وذبيان، ممثلة ببني فزارة، التقوا عند غدير "قلهى"، وكان بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان يطالبون بني عبس بديّات قتلاهم، فمنعوهم الماء حتى أدّوا لهم الدّيّات، وهذا ما يوثقه شعر لمعقل بن عوف بن سبيع الثعلبيّ[٣]:

لَـــنِعمَ الحَـــيُّ ثَعلَبَـــةُ بـــنُ سَـــعدٍ إذا مـــا القَـــومُ عَـــضَّهُمُ الحَديـــدُ
هُـــمُ رَدّوا القَبائِـــلَ مِـــن بَغـــيضٍ بِغَـــيظِهِمُ وَقَـــد حَمِـــيَ الوَقـــودُ
تُطَـــلُّ دِمـــاؤُهُم وَالفَـــضلُ فينـــا عَلـــى قَلَهـــى وَنَحكُـــمُ مـــا نُريـــدُ

ولهذا نرى زهير بن أبي سلمى يطلب إلى ذبيان ألا تحنث بيمينها بعدما اتفقوا على الصلح، وألا يغدروا، لأنّ الله يعلم ما يكتمونه[٤]:

فَمَـــن مُبلِـــغُ الأَحـــلافِ عَنّـــي رِســـالَةً وَذُبيـــانَ هَـــل أَقـــسَمتُمُ كُـــلَّ مُقـــسَمِ
فَـــلاَ تَكْـــتمُنَّ اللَـــهَ مـــا فـــي نُفوسِـــكُم لِيَخفـــى وَمَهمـــا يُكـــتَمِ اللَـــهُ يَعلَـــمِ

من جهة أخرى، لا يعدّ ما فعله حصين بن ضمضم بقتله رجلين من بني عبس، بعد أن تمّ الاتفاق على الصلح، انتهاكًا لمواثيق الصلح فحسب، بل هو خروج، من جانبه، على مشيئة قيادة القبيلة، وهذا ما يفسر استنكار بني مرّة لما فعله، وفي الجانب المقابل كان بنو عبس يستعدون لغزو بني مرّة، وقتل بعض من سادتها، هذا ما يفهم من شعر ابن البرصاء وشعر ابن عنقاء، فضلًا عن شعر زهير السابق، والذي يستقسم فيه ذبيان والأحلاف، وهم بنو عبس وبنو عبد الله بن

(١) السابق، ص٨٣.
(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٢٥.
(٣) الضبيّ، أبو العباس المفضل بن محمد(١٦٨هـ)، **أمثال العرب**، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٣، ص١٠٨.
(٤) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ٢٦-٢٧.

غطفان، ألا يغدر كلّ طرف بالآخر بعد أن أقسموا على أن يتم الصلح، وألا يضمروا في أنفسهم عكس ما يظهرون، وهذا، أيضًا، ما يفهم من طلب بني عبس، على لسان أحد أقرباء المقتولين منهم، من ذبيان أن تعلن براءتها من حصين بن ضمضم وقومه[1]:

سَالَمَ اللهُ مِنْ تَبَرَّأَ مِن غَيْـ ـظٍ وَوَلَّى آثَامَهَا يَرْبُوعَا
قَتَلُونَا بَعدَ المَوَاثِيقِ وَالعَهْـ ـدِ فَمَا كَانَ جَارُهُم مَمْنُوعَا

إذن، كان طلب التبرّؤ من حصين بن ضمضم وقومه عقابًا لهم على انتهاكهم لمواثيق الصلح مع بني عبس، ويبدو أنّ هذا الطلب وجد آذانًا صاغية في ذبيان، وخصوصًا في بني مرّة، ولاسيّما أنّ هذا الإجراء كان من الأعراف القبليّة عندهم في مثل هذه الحالة[2]، والتبرّؤ يعني، بالطبع، النفي من القبيلة، فضلًا عن دفع ديات القتلى، ولا يفهم من ذلك أنّ حصين بن ضمضم هو الوحيد المعنيّ بمثل هذه الإجراءات، بل قومه أيضًا؛ فالسيّد القبليّ إنّما يمثّل قومه، ويكشف لنا شعر زهير السابق عن سعة نفوذ حصين في بني يربوع بن غيظ، الأمر الذي يعني أنّه حصل على مؤازرة منهم فيما فعل.

أمّا علاقة النابغة بهذه الأحداث، فالأمر بيّن إذا ما علمنا أنّ النابغة وحصين بن ضمضم ابنا عمّ[3]، وعليه؛ يكون بنو عبس قد قتلوا عمّ النابغة وابن عمّه، ولهذا من الطبيعي أن يقف النابغة، بحسب الأعراف القبليّة، إلى جانب ابن عمّه للأخذ بثأره من بني عبس.

الآن، يصبح تناصر بني مرّة وفزارة على النابغة وقومه الأقربين، بني يربوع بن غيظ، واضحًا؛ فانتهاك ابن عمّه، حصين بن ضمضم، لميثاق الصلح الذي جاهد نبو مرّة من أجل عقده

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١١٢.

(٢) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٥.

(٣) علماء الأنساب يسوقون نسب حصين كالآتي: حصين بن ضمضم بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرّة (انظر، ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ٢٥٣).

مع بني عبس، لإطفاء نار الحرب الدائرة بين أحياء القبيلة الواحدة– هو السبب الحقيقي لاضطراب العلاقة بين النابغة وبني مرّة، كما يكشف شعر النابغة السابق، وهو نفسه سبب تحالفهم على النار ضدّ بني يربوع بن غيظ ، بما يعرف بتحالف "المحاش" الذي قاده يزيد بن سنان بن أبي حارثة المريّ، ومن ثَمّ نفيهم خارج القبيلة، في بني عذرة بن سعد في أعالي الحجاز في وادي القرى[١].

ويبدو موقف النابغة أكثر وضوحًا من بني عبس، فمن خلال شعر له، يشير فيه، على ما يبدو، إلى مقتل ابن عمّه هرم بن ضمضم[٢] إلى جانب مقتل آخرين من قومه على أيدي بني زنباع، رهط الحكم بن مروان القرظ بن زنباع[٣]، كما يشير فيه إلى ثأر بني عدي بن فزارة، رهط حذيفة ابن بدر الفزاريّ[٤]، لهم، إذ يقول النابغة[٥]:

صَبرًا بَغيضَ بنِ رَيثٍ إنَّها رَحِمٌ حُبتُم بِها فَأَناخَتكُم بِجَعجاعِ
فَما أَساءَت عَديٌّ إنْ هُمُ قَتَلُوا بَني أُسَيْدٍ بِقَتْلى آلِ زِنْبَاعِ
لَقَدْ جَزَتْكُمْ بَنُو ذِبْيانَ ضَاحِيَةً بِمَا فَعَلْتُمْ كَكَيْلِ الصَّاعِ بِالصَّاعِ
جَزًّا بِجَزٍّوقَتْلًا مِثلَ قَتلِكُمُ مَهْلًا حُمَيْضَ فَلا يَسْعَى بِهَا السَّاعِي

من الواضح أنّ النابغة يحمّل بني عبس مسؤولية الحرب، فهم المسؤولون، من وجهة نظره[٦]، على الأقل، عن تفريق القبيلة، وتقطيع أواصرها، ولهذا باؤوا بالإثم، في إشارة منه إلى

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ص١٠٢.

(٢) وردت الإشارة إلى مقتل هرم بن ضمضم في شعر ينسب إلى أخته ناجية بنت ضمضم، تقول فيه:

يا لَهفَ نَفسي لَهفَةَ المَفجوعِ أَلا أَرى هَرِمًا عَلى مَودوعِ
مِن أَجلِ سَيِّدِنا وَمَصرعِ جَنبِهِ عَلِقَ الفُؤادُ بِحَنظَلٍ مَجدوعِ

(الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد، **أمثال العرب**، ص٩٤).

(٣) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٥١.

(٤) السابق، ص٢٥٥– ٢٥٦.

(٥) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥٥: ١–٤.

(٦) ليس النابغة وحده من حمّل بني عبس مسؤولية إشعال الحرب بين بينهم وبين ذبيان، فالربيع بن زياد العبسيّ كان يرى أنّ ابن عمّه، قيس بن زهير، هو المسؤول عن تسعير نار الحرب، إذ يقول:

قتلهم سادة من ذبيان، وعلى رأسهم عمّه وابن عمّه، فضلًا عن قتلهم سيّدهم حذيفة بن بدر الفزاريّ[١]، ولذلك استحقّوا ما فعله بهم بنو عديّ بن فزارة، لذلك كان التهديد والوعيد الذي وجهه النابغة لبني عبس مصحوبًا برفضه لأيّة مساع للصلح بين بني عبس وذبيان، كما يشير في البيت الأخير من شعره السابق[٢]، وهذا يعني وقوفه إلى جانب ابن عمّه، حصين بن ضمضم، في رفضه لوثيقة الصلح، إضافة إلى تأييده فيما فعل من انتهاك للصلح؛ عندما قتل رجلين من بني عبس بعد الاتفاق بين الطرفين.

في الحقيقة، ليس شعر النابغة هو الوحيد الذي يشار فيه إلى مساندة النابغة وقومه لحصين بن ضمضم فيما أقدم عليه، ففي شعر ينسب إلى بدر بن خزار الفزاريّ يردّ فيه على النابغة، يحمّل الشاعر النابغة مسؤولية التغرير بعشيرته، بني ضباب، يوم "المحاش"؛ حيث كان يجمّع قومه ويقودهم لمساندة حصين بن ضمضم[٣]:

أَبلِغ زِيادًا وَحَينُ المَرءُ يُدرِكَهُ ... وَإِن تَكَيَّسَ أَو كانَ اِبنَ أَحذارِ

أَضطَرَّكَ الحِرزُ مِن لَيلى إِلى بَرَدٍ ... تَختارُهُ مَعقِلًا مِن جُشِّ أَعيارِ

حَتّى لَقيتَ اِبنَ كَهفِ اللؤمِ في لَجِبٍ ... يَنفي العَصافيرَ وَالغِربانَ جَرّارِ

إِن تَجمَعِ الشَملَ مِن غَيظٍ وَما أَلَبَت ... أَو المَحاشي فَأَنتَ الرائِشُ الباري

فَالآنَ فَاِسعَ بِأَقوامٍ غَرَرتَهُم ... بَني ضَبابٍ وَدَع عَنكَ اِبنَ سَيّارِ

حَرَّقَ قَيْسٌ عَلَيَّ البِلَا ... دِ حَتَّى إِذَا اضطَرَمَتْ أَجْذُما

جَنِيَّةُ حَرْبٍ جَنَاهَا فَمَا ... تُفَرِّجُ عَنْهُ وَمَا أَسْلَمَا

(الضبيّ، أبو العباس المفضل بن محمد، **أمثال العرب**، ص١٠٤)، كما أنّ قيس بن زهير ظلّ الندم يلازمه بعد مقتل حذيفة بن بدر وسادة من ذبيان على أيدي بني عبس، إذ يقول:

شَفَيتُ النَفسَ مِن حَمَلِ بنِ بَدرٍ ... وَسَيفي مِن حُذَيفَةَ قَد شَفاني

فَإِن أَكُ قَد بَرَدتُ بِهِم غَليلي ... فَلَم أَقطَع بِهِم إِلّا بَناني

(المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج١: ص٢٠٣).

(١) انظر، الحاشية السابقة ما جاء على لسان قيس بن زهير.

(٢) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٦.

(٣) البطليوسي، **شرح الأشعار الستة**، ج١: ص٣٠٢-٣٠٣.

إنّ موقف النابغة المعلن في شعره السابق، فضلًا عن شعر بدر بن خزار الفزاريّ، يكشف حقيقة مفادها أنّ بني يربوع بن غيظ كانوا يؤيدون حصين بن ضمضم، ويلتفّون حوله، وهذا، بدوره، يكشف النفوذ الذي كان يتمتع به حصين في القبيلة، أو على الأقل، في صفوف بني يربوع بن غيظ، وأنّ تأييدهم لحصين يعني أنّهم يتمرّدون على سيادة القبيلة، التي قررت الدخول في الصلح، ومن ثَمّ خروجهم على قراراتها، غير آبهين إلى ما ستؤول له الأمور من بعد. إنّ أقل ما يمكن وصفه لما أقدم عليه حصين بن ضمضم، وتأييد قومه له، هو عصيان لسيادة القبيلة وتجاهل لمصالحها في منطقة نجد(١).

ومهما يكن من أمر، فمن الطبيعي أن يفضي هذا الخلاف الذي دبّ في أوساط ذبيان، بين بني يربوع بن غيظ وسائر أحياء ذبيان إلى وقوع حرب بين الطرفين، أو أنّها أوشكت على الوقوع، ولاسيّما أنّ إجراءات النفي من القبيلة لا يمكن أن تتم بسهولة، دون حدوث أيّ شكل من أشكال النزاع، ولنا أن نتصوّر ذلك في العصر الجاهلي، في ظلّ غياب النظام الأمني الصارم في تطبيق القانون، فضلًا عن العصبيّة القبليّة التي تحتّم نصرة القبيلة سواء أكانت ظالمة أم مظلومة، صحيح أنّ المصادر لم تحتفظ بشيء من هذا القبيل، إلا أنّ في شعر النابغة نفسه ما يوحي بذلك، ففي قصيدة له يكشف النابغة عن عزمه على الرحيل عن قومه بعدما أنكروا نسبه، وأنّه سيتركهم راحلًا إلى "ذي أرل"، وهو جبل بين غطفان وبني عذرة(٢)، مشيرًا، في الوقت نفسه، إلى أنّ الكرام منهم يعرفون نسبه ولا ينكرونه، وهم يعلمون ما كان يقدم لهم، فبالإضافة إلى كرمه وجوده كان يسعى جاهدًا للتوسّط لهم لإطلاق أسراهم وسباياهم، حتى أصاب خيله التعب والإعياء(٣):

هَلّا سَأَلتِ بَني ذُبيانَ ما حَسَبي   إذا الدُّخانُ تَغَشّى الأَشمَطَ البَرِما

(١) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٨.

(٢) الحمويّ، **معجم البلدان**، "أرل".

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٦: ٨-٩، ١١-١٣.

وَهَبَّتِ الريحُ مِن تلقاءِ ذي أُرُلٍ   تُزجي مَعَ اللَّيلِ مِن صُرّادِها صِرَما
يُنبِئكِ ذو عِرضِهِم عَنّي وَعالِمُهُم   وَلَيسَ جاهِلُ شَيءٍ مِثلَ مَن عَلِما
إنّي أُتَمِّمُ أَيساري وَأَمنَحُهُم   مَثنى الأَيادي وَأَكسو الجَفنَةَ الأُدُما
وَأَقطَعُ الخَرقَ بِالخَرقاءِ قَد جَعَلَت   بَعدَ الكَلالِ تَشَكّى الأَينَ وَالسَأما

يمكن أن نلحظ شعور النابغة بالسخط على قومه، وحدّة انفعاله في الخطاب الموجّه إليهم، وخاصة أنّ الأمر متعلق بإنكار النسب، وهو أكثر ما يثير غضب الإنسان العربيّ، وهذا ما يجعله في موطن آخر يؤكّد على نسبه في بني ضباب (ابن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرّة)، وأنهم ذوو حسب ورفعة، ويؤكد أنّه وقومه يقيمون بجنوب "قسًا"، في العالية في أطراف الحجاز [١]، على الرغم من كثرة سفره واغترابه، اللذين لا يقلّلان من انتمائه لقومه[٢]:

أَسَائِلَتِي سَفَاهَتَها وَجَهْلًا   علَى الهِجْرَانِ أُخْتَ بَنِي شِهَابِ
فَإمَّا تُنْكِرِي نَسَبِي فَإنّي   مِنَ الصُّهبِ السِّبَالِ بَنِي الضَّبَابِ
ضِبَابِ بَنِي الطُّوَالَةِ فَاعْلَمِيهِ   ولا يَغْرُرْكِ نَأْيِي وَاغْتِرَابِي
وإنَّ مَنَازِلِي وَبِلَادَ قَومِي   جَنُوبُ قَسًا هُنَالِكَ فَالهِضَابِ

تبدو نبرة الخطاب هنا أكثر حدّة، بل إنّها ترقى إلى التهديد، فهو يجعل قومه أعداء لمن ينكرون نسبه، من الواضح أنّ مسألة إنكار النسب تأخذ حيزًا كبيرًا في نفس الشاعر حتى يعلو صوته هنا مهددًا، وهذا على ما يبدو ما حدا بالنابغة إلى توجيه شعر إلى خارجة بن سنان المريّ (أخي يزيد ابن سنان صاحب "المحاش")، يعيّره فيه بأنّه ليس من بني مرّة، وإنّما هو من بني مزينة، رهط زهير بن أبي سلمى، حيث يقول[٣]:

إنَّا أُنَاسٌ لَاحِقُونَ بِأَرْضِنا   فَالْحَقْ بِأَرْضِكَ خَارِجَ بنَ سِنَانِ
لَا أَعْرِفَنْ شَيْخًا يَجُرُّ بِرِجْلِهِ   بَيْنَ الكَثِيبِ وَأَبْرَقِ الحَنَّانِ

---

(١) الحمويّ، **معجم البلدان**، "قسًا".
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٦٢: ١-٤.
(٣) السابق، ق٦١: ١-٢.

والظاهر أنّ هذا الشعر كان ردًّا، من جانب النابغة، على ما كان يدور على ألسنة بني مرّة، وخصوصاً يزيد بن سنان المريّ، من أنّ النابغة وقومه ليسوا من بني مرّة، وإنّما هم من بني عذرة بن سعد[1]، في الواقع، هذا الشعر ليس المقصود به خارجة بن سنان، كما هو ظاهره، وإنمّا يقصد به سائر آل أبي حارثة بن مرّة، قوم خارجة ويزيد ابني سنان، فالنابغة أراد أن يردّ واحدة بواحدة.

وفي موطن آخر يوجّه النابغة لومه لبني بدر، سادة بني فزارة، عمّا صدر منهم من كلام أغضب أصدقاءهم، ويطلب إليهم ألا يطعنوا بنسب ذبيان، وإلا فإنّه لن يطيعهم[2]:

أَبْلِـــغْ بَنِـــي بَـــدْرٍ فَكُـــلٌّ صَـــدِيقِهِمْ لَهُـــمْ أَنْ يُـــسَامُوا المُنْـــدِيَاتِ غِـــضَابُ
فَـــلَا تَطْعَنُـــوا فِـــي دَارِ ذُبْيَـــانَ إِنَّ مَـــنْ دَعَـــا مِـــنْكُمُ بِالـــصَّالِحَاتِ مُجَـــابُ
بِرَجْـــلٍ كَمَـــدْبُوِّ المَـــسِيلِ يَفُتُّهَـــا حَرَاشِـــفُ يُجْعَلْـــنَ النِّعَـــالَ وَلَابُ

من الواضح أنّ لوم النابغة لبني بدر ناتج عن تورطهم في حلف "المحاش" مع بني مرّة، في محاولة منهم للطعن بنسب النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، وهذا فيه تأكيد على رواية الأصمعي السابقة، من أنّ عناصر فزاريّة كانت مشاركة في هذا الحلف ضدّ بني يربوع بن غيظ.

وفي ذات السياق، يمكن الإشارة إلى شعر ينسب إلى هبيرة بن ظالم المريّ، يشير فيه إلى ما كان يملأ قلوب بني ضباب، رهط النابغة الأقربين، من عداوة وحقد، وأنّ ما فعلوه كان مجانبًا للصواب[3]:

وَذَوِي ضِـــبابٍ مُظهِـــرينَ عَـــداوَةً تَمـــلا القُلـــوب مُحـــالِفي الإفنـــادِ
ناسَـــيتُهُم بَغـــضاءَهُم وَتَـــرَكتُهُم وَهُـــم إذا ذُكِـــرَ الـــصَديقُ أَعـــادي
كَيمـــا أَعَـــدَّهُم لِأَبعَـــدَ مِـــنهُم وَلَقَـــد يُجـــاءُ إِلـــى ذَوي الأَحقـــادِ

---

(١) السابق، ص١٠٢.

(٢) السابق، ق٦٨: ١-٣.

(٣) السويدي، سلامة عبد الله، **شعر قبيلة ذبيان في الجاهلية**، الدوحة: جامعة قطر، ١٩٨٧، ص٤٨٢.

ثمّ إنّ المصادر تروي شعرًا ينسب إلى يزيد بن سنان المريّ، وجّهه إلى النابغة بعد شعر هذا الأخير فيه بسبب تحالف "المحاش"، يشير يزيد فيه إلى أنّه لا يخاف النابغة ولا يهابه، وسوف يعرض عن لقائه آخذًا بنصيحة أمّه، التي هي من بني غنم بن دودان بن أسد، إذ يقول(١):

وَلَـــو كُنـــتُ هَيَّابًـــا أَو ابـــنَ لَئيمَـــةٍ أَعطَيـتُ مـا تَرضـى بِـهِ سَـخَطَ الخَـصمِ
وَلَكِـــن تَمَطَّـــت بـــي حَـــصانٌ نَجيبَـــةٌ جَميـــلُ المُحَيّـــا مِـــن نِـــسَاءِ بَنـــي غَـــنمِ

يفهم ضمنيًّا من شعر يزيد هذا أنّ حربًا أوشكت على الوقوع بينه وبين النابغة وقومه، ولكنه صرف النظر عنها امتثالًا لنصح أمّه.

إذن، من الصعب أن يعتقد المرء أنّ إجراءات النفي حدثت دون وقوع نزاعات بين الطرفين، وأنّ هذه النزاعات استمرّت إلى فترة متأخرة امتدت إلى ما بعد لجوء بني يربوع بن غيظ في بني عذرة بن سعد(٢)، ففي ملاحاة للنابغة مع بدر بن خزار الفزاريّ، يردّ فيها هذا الأخير على النابغة حين صوّر حال سبايا بني ذبيان وهنّ يطلبن من سيّدي بني فزارة، حصن بن حذيفة وزياد بن سيّار، فكاك أسرهن من قبضة عمرو بن الحارث الغساني، في أعقاب غارة مظفرّة له على ذبيان في وادي "أُقر"(٣):

أَبلِـــغ زِيـــادًا وَحَـــينُ المَـــرءِ يُدرِكَـــهُ وَإِن تَكَـــيَّسَ أَو كـــانَ اِبـــنَ أَحـــذارِ
أَضـــطَرَّكَ الحِـــرزُ مِـــن لَيلـــى إِلـــى بَـــرَدٍ تَختـــارُهُ مَعقِـــلًا مِـــن جُـــشٍّ أَعيـــارِ
حَتّـى لَقيـتَ اِبـنَ كَهـفِ اللـؤمِ فـي لَجِـبٍ يَنفـــي العَـــصافيرَ وَالغِربـــانَ جَـــرّارِ
إِن تَجمَـعِ الـشَملَ مِـن غَـيظٍ وَمـا أَلَبَـت أَو المَحاشـــي فَأَنـــتَ الـــرّائِشُ البـــاري

---

(١) المرزباني، **معجم الشعراء،** ص٤٩٦.

(٢) تفسر بعض المصادر هذا اللجوء على أنّه هروب من قِبل النابغة من النعمان بن المنذر اللخميّ، بعدما وصل إلى هذا الأخير شعر فاحش على لسان النابغة في زوجه المتجردة، لكن هذا التفسير لقي رفضًا من أغلب الباحثين المعاصرين (انظر مثلًا: الأصفهاني، **الأغاني،** ج١١: ص٨-١٤، قارن: ضيف، **العصر الجاهلي،** ص٢٧٢؛ العشماوي، **النابغة الذبياني،** ص٨٢؛ الراميني، النابغة الذبياني، ص١٢٦-١٢٧).

(٣) البطليوسي، **شرح الأشعار الستة،** ج١: ص٣٠٢-٣٠٣.

فَــــالآنَ فَاسِــــعَ بِـــأَقوامٍ غَـــرَرتَهُم   بَنــي ضَــبابٍ وَدَع عَنــكَ اِبــنَ سَــيّارِ

والظاهر أنّ بدر بن خزار الفزاريّ، وهو يلوم النابغة على خوفه من الغساسنة وخضوعه لهم، لم ينس ما فعله النابغة وقومه في حادثة "المحاش"، ولهذا نراه يحمّل النابغة مسؤولية التغرير بعشيرته، بني ضباب، ومن ثمّ التحاقهم ببني عذرة، ولهذا يطلب إليه أن يترك طلب العون من زياد ابن سيّار ليردّ عنهم غارة بني قضاعة الذين ساندوا عمرو بن الحارث في غارته عليهم، وأن يسعى بنفسه لفكاك أسر السبايا؛ فردّ عليه النابغة، وعلى خزيم وزَبّان ابني سيّار[١]:

أَلا مَــن مُبلِــغٌ عَنّــي خُزَيمًــا   وَزَبّــانِ الَّــذي لَــم يَــرعَ صِــهري
فَإِيّــاكُم وَعــورًا دامِيــاتٍ   كَــأَنَّ صِــلائَهُنَّ صِــلاءُ جَمــرِ
فَــإِنّي قَــد أَتــاني مــا صَــنَعتُم   وَمــا وَشَّــحتُمُ مِــن شِــعرِ بَــدرِ
فَلَــم يَــكُ نَــولُكُم أَن تُــشقِذوني   وَدونــي عــازِبٌ وَبِــلادُ حَجــرِ
فَــإِنَّ جَوابَهــا فــي كُــلِّ يَــومٍ   أَلَــمَّ بِــأَنفُسٍ مِــنكُم وَوَفــرِ
وَمَــن يَتَــرَبَّصِ الحَــدَثانِ تَنــزِل   بِمَــولاهُ عَــوانٌ غَيــرُ بِكــرِ

من الواضح أنّ النابغة يشعر بالسخط على أبناء عمومته، الذين لم يراعوا الرحم والمصاهرة بينهم، فهم لا يتورعون عن هجائه على الرغم من بعده عنهم، فبينه وبينهم "بلاد حجر"، وهي بحسب البلدانيين[٢]، واد بين عذرة وغطفان، فإن لم ينتهوا عن فعلهم فإنّه يتوعدهم بهجاء لاذع؛ فمن يتمنَّ الشرّ للناس يُصبْه.

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٠: ١-٦.

(٢) الحمويّ، **معجم البلدان**، "حجر"، وليس كما ذكر محقّق الديوان أنها في بلاد اليمامة، فالنابغة وقومه لجأوا إلى بني عذرة في أعالي الحجاز وليس في جنوبه الشرقيّ .

وفي موطن آخر يعلن النابغة صراحة عن وجود حرب بينه وبين قومه (ذبيان)، بعد أن نزل في بني القين بن جسر، وأنّ هذه الحرب كانت سببًا في البعد بينه وبين من يدعوها "سعاد"، وأنّه لا يستطيع زيارتها بسبب هذه الحرب[1]:

نَأَتْ بِسُعادَ عَنْكَ نَوًى شَطُونُ ... فَبانَتْ وَالفُؤادُ بِها رَهِينُ
بِتَبْلٍ غَيْرِ مُطَّلَبٍ إِلَيْهَا ... ولكِنَّ الحَوائِنَ قَدْ تَحِينُ
عَدَتْنَا عَنْ زِيَارَتِهَا العَوَادِي ... وَحَالَتْ بَيْنَنَا حَرْبٌ زَبُونُ
وَحَلَّت في بَنِي القَينِ بنِ جَسرٍ ... فَقَد نَبَغَت لَنا مِنهُم شُؤونُ

وبنو القين بن جسر هؤلاء من قضاعة[2]، ويقطنون أعالي الحجاز مع أبناء عمومتهم بني عذرة ابن سعد، الذين التحق النابغة وقومه، بنو يربوع بن غيظ، بهم بعدما أن ساءت علاقتهم بقبيلتهم، ذبيان، بسبب تحالفهم ضدّهم، بما عرف بحلف "المحاش"، ومادام الأمر كذلك، فمن المؤكد أنّ الحرب التي يشير إليها النابغة في الأبيات السابقة كانت بسبب حلف "المحاش".

إذن جميع الأدلة تشير إلى حقيقة واحدة مفادها أنّ حربًا وقعت، أو كادت، في صفوف ذبيان، في أعقاب تحالف "المحاش" ضدّ بني يربوع بن غيظ، وأنّ رفض حصين بن ضمضم لوثيقة الصلح المبرم بين عبس وذبيان، ومساندة قومه له؛ كان السبب في انفصام عرى قبيلة ذبيان، وهو ما جرّ عليها ويلات كانت في غنى عنها، أهمها ضعف قدرتها في التصدي لأي اعتداء خارجي، وخصوصًا أنّ انشقاق بني يربوع عن ذبيان لم يكن الانشقاق الوحيد الذي وقع في أوساطها، فبنو سهم بن مرّة، رهط الحصين بن الحمام، كما تشير المصادر[3]، كانوا قد انشقوا عن ذبيان في أعقاب خلافهم مع أبناء عمومتهم، بني صرمة بن مرّة، ومؤازرة قيادة ذبيان لهؤلاء على

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٥: ١-٤.

(٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١١٢

(٣) انظر: **المفضليات**، ص٧٩؛ ص١٠٣-١٠٤؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٤: ص٥-١٣.

حساب بني سهم[١]، وهذا ما يؤكده شعر الحصين المقتبس آنفًا[٢]، وبالحديث عن الانشقاقات في أوساط ذبيان ومن ثمَ في غطفان، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الخلاف بين بني عبس وذبيان في أعقاب حرب داحس والغبراء أفضى إلى انشقاق عبس عن القبيلة الأم، غطفان، حتى انتهى بها في آخر المطاف إلى الدخول في حلف مع بني عامر بن صعصعة، أعداء غطفان الحقيقيين، بعد أن فشلت كلّ محاولاتهم في التحالف مع قبائل أخرى أثناء تنقلهم بين أحياء العرب[٣]، ويرى الراميني[٤]، من جانبه، أنّ دخول بني عبس في حلف مع بني عامر يعدّ في حدّ ذاته تحوّلًا ليس على المستويين القبليّ والجغرافيّ فحسب، بل على المستوى السياسيّ أيضًا؛ إذ إنّ تحوّل بني عبس إلى بني عامر يعني، بالضرورة، خروجهم من دائرة النفوذ الحيري ودخولهم في دائرة النفوذ الغسانيّ، وهذا يصدق، أيضًا، على بني يربوع بن غيظ حين لجأوا في بني عذرة بن سعد.

إذن، يمكن، الآن، أن نفهم مدى غضب ذبيان من حصين بن ضمضم ومن قومه، بعدما انتهك الصلح، الذي جاهدوا من أجل إتمامه، فهم، في الواقع، كانوا يشعرون بأهمية كلّ طرف للآخر في مواجهة الخطر الخارجي، وخصوصًا من بني عامر ومن الغساسنة[٥]، ولاسيّما أنّ أراضيهم كانت مجاورة لهؤلاء[٦]، وهذا ما أشار إليه الراميني[٧]، عندما لفت أنظارنا إلى أنّ اعتداء

---

(١) الراميني، النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة، ص١٤١.

(٢) انظر، أعلاه، ص٩١.

(٣) انظر، مثلًا، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٦٠-٤٦١.

(٤) الراميني، النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة، ص١٤٠.

(٥)انظر، **The Encyclopaedia of Islam**, New Edithion, Leiden, E. J. Brill 1965, s.v. Fuck, J, W, Ghatafan, pp1024.

(٦) انظر، خريطة الدول العربية الشماليّة قبل الإسلام في: حتّى، فيلب، أدرود جرجي، جبرائيل حبور، **تاريخ العرب**، ص١٠٦.

(٧) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٧.

حصين بن ضمضم على بني عبس، بعد الاتفاق على الصلح، كان مخالفًا لمصالح الحيرة في نجد، "وهي مصالح تتفق مع تطلّع قيادة غطفان إلى إضعاف معسكر بني عامر".

ثالثًا: أهمية حلف بني أسد وذبيان.

ليس المؤرخون[1] وحدهم من يخبروننا عن تحالف بني أسد وغطفان وتعاضدهما وتناصرهما[2]، فالأحاديث النبويّة تؤكّد ذاك أيضًا، ففي حديث يرويه أبو هريرة، ، عن النبيّ، ، أنّه قال[3]: "أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَمَنْ كَانَ مِنْ جُهَيْنَةَ أَوْ جُهَيْنَةُ خَيْرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَالْحَلِيفَيْنِ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ". وحديث النبي، ، هذا فيه تأكيد على أنّ الحلف بين بني أسد وغطفان ظلّ قائمًا إلى ما بعد البعثة النبويّة[4]، على الرغم من جميع المحاولات التي استهدفته بالنقض والإلغاء كما يفهم من شعر النابغة في أكثر من موطن.

ففي القصيدة الثالثة والعشرين يكشف النابغة عن أنّ خلافًا وقع بين عيينة بن حصن الفزاريّ وبني أسد، وأنّ هذا الخلاف كان، على ما يبدو، بسبب انحياز عيينة إلى جانب العبسيين على حساب بني أسد، بعد أن أقدم العبسيون، كما تقول الرواية[5]، على قتل رجل من بني أسد[6]، فقتل

---

(١) انظر، مثلًا: الطبري، **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، ج٣: ص٢٥٧؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١٧٤.

(٢) وهذا سبب تسميتهم بالأحلاف (انظر: كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، ج١: ص٨).

(٣) أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسارروري(٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**، اعتناء أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، الرياض: دار طيبة، ٢٠٠٦، ج٢: ص١١٧٣، رقم ٢٥٢١.

(٤) هناك أدلة تشير إلى تحالف بني أسد وغطفان مع يهود خيبر ضدّ المسلمين (انظر، أبو حيّان، محمد بن يوسف الأندلسي(٧٤٥هـ)، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وغيرهما، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١، ج٨: ص٩٦).

(٥) السّيرافي، أبو محمد يوسف بن أبي سعيد(٣٨٥هـ)، **شرح أبيات سيبويه**، تحقيق محمد علي سلطاني، دمشق: دار العصماء، ٢٠١٠، ج٢: ص٥٨.

(٦) هناك إشارة، في شعر عنترة العبسيّ، إلى مقتل نضلة الأسديّ على يد ورد بن حابس، إذ يقول عنترة:

وَغادَرنَ نَضلَةَ في مَعْرَكٍ ... يَجُرُّ الأَسِنَّةَ كَالمُحتَطِبْ

(الخطيب التبريزي، **شرح ديوان عنترة**، ق٤: ١).

بنو أسد رجلين منهم بدمه، وأنّ هذا الخلاف أفضى إلى سعي عيينة إلى إلغاء حلفهم مع بني أسد، وفي هذا يقول النابغة[١]:

أَلِكنـــي يـــا عُيَـــينَ إلَيـــكَ قَـــولًا   سَـــأُهديهِ إلَيـــكَ إلَيـــكَ عَنّـــي
أَتَخـــذُلُ ناصِـــري وَتُعِـــزُّ عَبـــسًا   أَيَربـــوعَ بـــنَ غَـــيظٍ لِلمِعَـــنِّ

بل إنّ النابغة سيعلن براءته من عيينة إن نقض هذا الحلف[٢]:

إذا حاوَلـــتَ فـــي أَسَـــدٍ فُجـــورًا   فَـــإِنّي لَـــستُ مِنـــكَ وَلَـــستَ مِنّـــي

في محاولة منه لثني عيينة عن قراره المتعلق بنقض الحلف، ولهذا أخذ النابغة يذكّره بأفضال بني أسد على قومه؛ حين ناصروهم ودافعوا عنهم في مواطن كثيرة ولم يخذلوهم، ويعلن النابغة أنّه لن يطيع عيينة، لأنّه لو فعل ذلك سيندم طيلة حياته[٣]:

فَهُـــم دِرعـــي الَّتـــي اِســـتَلأَمتُ فيهـــا   إِلـــى يَـــومِ النِّـــسارِ وَهُـــم مِجَنّـــي
وَهُـــم وَرَدوا الجِفـــارَ عَلـــى تَمـــيمٍ   وَهُـــم أَصـــحابُ يَـــومِ عُكـــاظَ إِنّـــي
شَـــهِدتُ لَهُـــم مَـــواطِنَ صـــادِقاتٍ   أَتَيـــنَهُمُ بِـــوُدِّ الـــصَدرِ مِنّـــي
وَلَـــو أَنّـــي أَطَعتُـــكَ فـــي أُمـــورٍ   قَرَعـــتُ نَدامَـــةً مِـــن ذاكَ سِـــنّي

من الواضح أنّ النابغة يدرك تماما حجم الأخطار التي ستلحق بقومه؛ إذا ما فكّروا بنقض حلفهم مع بني أسد، فهو يعلم ما لبني أسد من قوة وهيبة في المنطقة، وأنّ الإبقاء على هذا الحلف قائمًا يعني التصدّي لهجمات بني عامر وحلفائهم في نجد، فضلًا عن اعتداءات الغساسنة المتكررة عليهم[٤].

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٣: ٦، ٩.
(٢) السابق، ق٢٣: ١٤.
(٣) السابق، ٢٣: ١٥-١٧، ٢٣.
(٤) انظر، السابق، القصائد ذوات الأرقام: ١٨،٢٤،٢٥، ٢٦، ٥٩، ٦٧، ٧٣.

في الواقع، لم يكن عيينة بن حصن الفزاريّ الوحيد الذي يطالب بقطع الحلف بين بني أسد وغطفان، بل إنّ بني عامر بن صعصعة كانوا من أشد المؤيّدين لذلك؛ فقد وجدوا في محاولة عيينة لقطع حلفهم مع بني أسد فرصة مواتية لهم، مستغلين الخلاف بين عيينة وبني أسد، فالمصادر[١]، من جانبها، تشير إلى أنّ بني عامر، وعلى رأسهم زرعة بن عمرو العامريّ، طلبوا إلى ذبيان نقض حلفهم مع بني أسد، وأنّ عيينة وبعض ذبيان أخذوا يدرسون الأمر، وعلى ما يبدو أنّ فئة أخرى في ذبيان كانت من أشدّ المعارضين لفكرة قطع الحلف مع بني أسد، ومن بينهم النابغة نفسه، لذلك نراه يسفّه رأي بني عامر، داعيًا قومه للوفاء بعهودهم ومواثيقهم مع بني أسد، ولاسيّما أنّهم أحكموا صلتهم بهم، وإن فكروا بنقض حلفهم فهو الجهل بعينه[٢]:

قالَت بَنو عامِرٍ خالوا بَني أَسَدٍ ... يا بُؤسَ لِلجَهلِ ضَرّارًا لِأَقوامِ
يَأبى البَلاءُ فَلا نَبغي بِهِم بَدَلًا ... وَلا نُريدُ خَلاءً بَعدَ إِحكامِ

بل إنّه يدعو للمصالحة بين ذبيان وبني عامر ولكن ليس على حساب بني أسد حلفائهم القدماء[٣]:

فَصالِحونا جَميعًا إِن بَدا لَكُمُ ... وَلا تَقولوا لَنا أَمثالَها عامِ

ولأنّه يدرك حجم الخلاف الذي بين قومه وبين بني عامر، فهو يسرد لهم صورًا من الحروب والأيام التي كانت بينهم، ويذكّرهم بأنّ النصر كان حليفًا لقومه فيها جميعًا[٤]:

إِنّي لَأَخشى عَلَيكُم أَن يَكونَ لَكُم ... مِن أَجلِ بَغضائِهِم يَومٌ كَأَيّامِ
كَم غادَرَت خَيلُنا مِنكُم بِمُعتَرَكٍ ... لِلخامِعاتِ أَكُفًّا بَعدَ أَقدامِ
يا رُبَّ ذاتِ خَليلٍ قَد فُجِعنَ بِهِ ... وَموتَمينَ وَكانوا غَيرَ أَيتامِ
وَالخَيلُ تَعلَمُ أَنّا في تَجاوُلِها ... عِندَ الطِعانِ أُولو بُؤسى وَإِنعامِ

---

(١) انظر، مثلًا، البطليوسي، **شرح الأشعار الستة**، ج١: ص٣٠٦.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١١: ١-٢.
(٣) السابق، ق١١: ٣.
(٤) السابق، ق١١: ٤، ١٠-١٣.

وَلَّــوا وَكَبــشُهُمُ يَكبــو لِجَبهَتِــهِ   عِنــدَ الكُمــاةِ صَــريعًا جَوفُــهُ دامِ

ويبدو أنّ محاولات بني عامر لنقض حلف بني أسد وذبيان لم تتوقف عند هذا الحدّ، فالمصادر[1] تكشف عن محاولة أخرى قام بها زرعة بن عمرو العامريّ لنقض هذا الحلف، وذلك عندما لقي هذا الأخير النابغة، بسوق عكاظ، وأشار عليه أن يكلّم قومه في ترك حلفهم مع بني أسد، ولكنّ النابغة قابل طلبه بالرفض، فأخذ زرعة يتوعّده، ويكشف النابغة، من جانبه، عن حقيقة هذا اللقاء حين أخذ يهجو زرعة ويتوعده بالغزو أيضًا[2]:

نَبِئــتُ زُرعَــةَ وَالــسَّفاهَةُ كَاسْــمِها   يُهــدي إِلَــيَّ غَرائِــبَ الأَشْــعَارِ

فَحَلَفْــتُ يــا زُرْعَ بــنِ عَمــرٍو أَنَّنــي   مِمَّــا يَــشُقُّ عَلــى العَــدوِّ ضِــراري

أَرَأَيــتَ يَــومَ عُكــاظَ حــينَ لَقيتَنــي   تَحــتَ العَجــاجِ فَمــا شَــقَقتَ غُبــاري

إِنّــا اِقتَــسَمنا خُطَّتَينــا بَينَنــا   فَحَمَلــتُ بَــرَّةَ وَاِحتَمَلــتَ فَجــارِ

فَلَتَأتِيَنْــكَ قَــصائِدٌ وَلَيَــدفَعَنْ   جَــيشٌ إِلَيــكَ قَــوادِمَ الأَكــوارِ

ثمّ يعدد له بعضًا من أحياء بني أسد، الذين سيصحبهم لغزوه وغزو بني عامر، واصفًا، في الوقت نفسه، ثباتهم وبأسهم في الحروب، وأنّهم يلتفون حوله إلى جانب ذبيان[3]:

رَهــطُ اِبــنِ كُــوزٍ مُحقِبِــي أَدراعِهِــم   فــيهِم وَرَهــطُ رَبيعَــةَ بــنِ حُــذارِ

ولِــرَهطِ حَــرابٍ وَقَــدٍّ ســورَةٌ   فــي المَجــدِ لَــيسَ غُــرابُهُم بِمُطــارِ

وَبَنــو قُعَــينٍ لا مَحالَــةَ أَنَّهُــم   آتــوكَ غَيــرَ مُقَلَّمــي الأَظفــارِ

وَبَنــو جَذيمَــةَ حَــيَّ صِــدقٍ ســادَةٌ   غَلَبــوا عَلــى خَبــتٍ إِلــى تِعــشارِ

قَــومٌ إِذا كَثُــرَ الــصِّياحُ رَأَيــتَهُم   وُقُــرًا غَــداةَ الــرَّوعِ وَالإِنفــارِ

وَالغاضِــرِيّونَ الَّــذينَ تَحَمَّلــوا   بِلِــوائِهِم سَــيرًا لِــدارِ قَــرارِ

حَــولي بَنــو دودانَ لا يَعــصونَني   وَبَنــو بَغــيضٍ كُلُّهُــم أَنــصاري

---

(١) انظر، مثلًا، البطليوسي، **شرح الأشعار الستة**، ج١: ص٢٦٨.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥: ١–٥.

(٣) السابق، ق٥٦: ٦–٨، ١٣–١٤، ٢١.

من الواضح أنّ النابغة أراد أن يغيظ زرعة وبني عامر، ويثبت لهم، في الوقت نفسه، مدى الترابط والتلاحم بين بني أسد وذبيان، فالعدو، بنو عامر، لا يستطيع قطع الحلف بينهما.

من جهة أخرى، كان هاجس المصالحة بين القيسيّين (بني عامر وغطفان) كثيرًا ما يراود النابغة، إلا إنّ غدر بني عامر كان يمنعه. فأبو عبيدة يشير فيها إلى أنّ اتفاقًا على الصلح تمّ بين النابغة، من جانب، وزرعة بن عمرو العامريّ وعامر بن مالك، عمّ عامر بن الطفيل[١]، من جانب آخر، إلا إنّ هذين الأخيرين غدرا به حين أغارا على ذبيان، وإلى هذا يشير النابغة بقوله[٢]:

أَلَا يَا لَيْتَنِي وَالمَرْءُ مَيْتُ ... وَمَا يُغْنِي عَنِ الحَدَثَانِ لَيْتُ
غَرِمْتُ غَرَامَةً فِي صُلْحِ قَيْسٍ ... وَلَمْ يَتَفَاسَدُوا فِيمَا بَنَيْتُ
فَأَبْلِغْ عَامِرًا عَنِّي رَسُولًا ... وَزَرْعَةَ إِنْ نَأَيْتُ وَإِنْ دَنَوْتُ
أُعَاتِبُ سَيِّدَيْ قَيْسٍ جَمِيعًا ... وَأُخْبِرُ صَاحِبَيَّ بِمَا اشْتَكَيْتُ
فَمَا حَاوَلْتُمَا بِقِيَادِ خَيلٍ ... يُصَانُ الوَرْدُ فِيهَا وَالكُمَيْتُ
إِلَى ذُبْيَانَ حَتّى صَبَّحَتْهُمْ ... وَدُونَهُمُ الرَّبَائِعُ فَالخَبِيْتُ
أَثُمَّ تعَذِّرَانِ إِلَيَّ مِنْهَا ... فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُ وَقَدْ رَأَيْتُ
أَحَارِ بنَ المغِيرةِ إِنَّ قَيْسًا ... أَحَلُّوا بِالمَحَارِمِ وَادَّعَيْتُ
فَإِنْ تَغْلِبْ شَقَاوَتُكُمْ عَلَيْكُمْ ... فَإِنِّي فِي صَلَاحِكُمْ سَعَيْتُ

من خلال شعر النابغة هذا يمكن أن نفهم أن بني عامر ما كانت لتسعى إلى مصالحة ذبيان أصلًا، بل كانوا يراوغونهم؛ من أجل التفريق بين عشائر ذبيان وأحيائها، وخصوصًا أنّ بني عامر تعلم أنّ عددًا كبيرًا من هذه الأحياء ما كان ليقبل بفكرة المصالحة، في ضوء الخلافات الشديدة والمستمرة بينهم وبين بني عامر، وأنّه لو تمّ مثل هذا الأمر فإنّه ينذر بخروج بعض من أحياء ذبيان على قيادة القبيلة ، وهذا على ما يبدو ما كانت تسعى إليه بنو عامر في محاولاتها المتكررة من عرض المصالحة على ذبيان، الأمر الذي ترفضه قيادة ذبيان جملة وتفصيلًا، ولهذا سعت

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٥٨.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٩: ١-٩.

جاهدة، من قبل، لرأب الصدع بينها وبين بني عبس، وردّ العبسيين إلى مكانهم الصحيح تحت مظلتها، وكذلك فعلت مع النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، حين قرّروا العودة إلى ديارهم وتسوية خلافاتهم مع قيادتهم في ذبيان، فهي تدرك مدى خطورة الانشقاق في صفوفها في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها، وخاصة أنّ المنطقة تمّر بتحوّلات جذريّة، أهمّها تقويض دعائم مملكة الحيرة، وبالنتيجة غياب السلطة السياسيّة التي تدير شؤونها، في مقابل تطلعات خارجيّة، ممثلة بسلطة الغساسنة في الشام، الرامية إلى الاستيلاء على أراضي غطفان الخصبة في الأطراف المحاذية لهم في نجد[١].

وبالعودة مرة أخرى إلى شعر النابغة السابق (ق٢٣)، ينبغي أن نلحظ مدى تمسك الشاعر بتحالف قومه مع بني أسد، على الرغم من ظهور بعض الخلافات بين المتحالفين، وقد تفضي إلى الاقتتال أحيانًا، كما هو حالهم مع بني عبس، لكنّ ذلك لا يمثّل، من وجهة نظر النابغة[٢]، ذريعة لنقض التحالف معهم، بل إنّه يفضّل الحلف على القرابة والرّحم؛ فالمصلحة العليا للقبيلة مقدمة عنده على كلّ اعتبار، وهذا المبدأ في سياسته القبلية ما يؤكّد عليه، في موطن آخر، عندما يشير

(١) انظر: الراميني، النابغة الذبياني ، ص١٥٠، وهذا، على الأقل، ما يمكن استنتاجه من قول النابغة (النابغة الذبيانيّ، **الديوان**، ق٩: ١):

لَقَــد نَهَيــتُ بَنــي ذُبيــانَ عَــن أُقُــرٍ   وَعَــن تَــرَبُّعِهِم فــي كُــلِّ أَصــفارِ

وقوله (النابغة الذبيانيّ، **الديوان** ، ق٣١: ١١-١٢،١٥):

نَــصَحتُ بَنــي عَــوفٍ فَلَــم يَتَقَبَّلــوا   وَصــاتي وَلَــم تَــنجَح لَــدَيهِم وَســائِلي

فقُلْــتُ لهُــم لا أَعــرِفَنَّ عَقــائِلًا   رَعابيــبَ مِــن جَنبَــي أَريــكٍ وَعاقِــلِ

وَخَلّــوا لَــهُ بَــينَ الجِنــابِ وَعــالِجٍ   فِــراقَ الخَلــيطِ ذي الأَذاةِ المُزايِــلِ

(٢) انظر، قوله (النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٩:٢٣):

أَتَخــذُلُ ناصِــري وَتُعِــزَّ عَبــسًا   أَيَربــوعَ بــنَ غَــيظٍ لِلمِعَــنِّ

إلى وقوفه إلى جانب بني دودان، وهم عمود بني أسد[1]، ونصرتهم على بني عبس ، مشيرًا إلى أنّهم (بني دودان) لا يغدرون بحلفهم، ولا يقابلون المعروف إلا بالمعروف وبالشكر[2]:

وَقَدْ نَصَرْتُ بَنِي دُودَانَ إِذْ نَشَدُوا ... حِلْفِي وَلَو نُشِدُوا بِالحِلفِ مَا غَدَرُوا
أَبْلَيْتُهُمْ خُلُقًا أَثْنَوْا بَأَحْسَنِهِ ... إنَّ الكِرامَ إِذَا أَبْلَيْتَهُمْ شَكَرُوا
مَا زَالَ حُسْنَايَ تَأْتِيهِمْ وَتَنْأَشُهُمْ ... حَتَّى شَفَوْا كُلَّ دَاءٍ عِرْقُهُ غَبِرُ
وَمَا شَهِدْنَ قَتِيلًا فِي مُؤَايَدَةٍ ... إلّا تقَدَّمَ مِنْهَا قَبْلَهُمْ نَفَرُ

من الواضح أنّ النابغة يصرّ على الإبقاء تحالفهم مع بني أسد قائمًا، الأمر الذي يعني أنّ النابغة يدرك تمامًا ما ستؤول إليه الأمور لو تمّ نقض حلفهم مع بني أسد؛ وهذا ما يفسّر تأكيده على الصلة القويّة التي تربط قومه، ذبيان، ببني أسد، لهذا نراه يشير في موطن آخر إلى الروابط القويّة التي تربطهم ببني أسد، وكأنّ أحدًا لن يستطيع تحطيمها؛ في إشارة واضحة منه إلى محاولات بني عامر الرامية إلى نقض حلفهم مع بني أسد، فقد أشار في القصيدة الثانية عشرة إلى خلو بلاده من بني عامر ومن حلفائهم وأتباعهم، مؤكّدًا على وجود بني أسد إلى جوارهم يدافعون عنهم ويحمونهم، مشيدًا بقوتهم وبأسهم[3]:

ليهْنَئْ بنِي ذُبيانَ أَنَّ بِلادَهُم ... خَلَت لَهُمُ مِن كُلِّ مَوْلًى وَتابِعِ
سِوى أَسَدٍ يَحمونَها كُلَّ شارِقٍ ... بِأَلفَي كَمِيٍّ ذي سِلاحٍ وَدارِعِ
قُعودًا عَلى آلِ الوَجيهِ وَلاحِقٍ ... يُقيمُونَ حَولِيّاتِها بِالمَقارِعِ
يَهُزّونَ أَرماحًا طِوالًا مُتُونُها ... بِأَيدٍ طِوالٍ عارِياتِ الأَشَاجِعِ

ليس هذا فحسب؛ بل يستنكر محاولات بني عامر الرامية إلى الإيقاع بين بني ذبيان وبني أسد، متخذين ما بين بني أسد وبعض أحياء غطفان من خلافات ذريعة للإفساد بينهم، ويردّ النابغة على

---

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص١٩٠.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٤٧: ٤-٧.
(٣) السابق، ق١٢: ١-٤.

هذه المحاولات بأن لا عتاب على بني أسد فيما يفعلون، ويذكّر بني عامر بعجزهم عن الدفاع عن بني عبس، حين كانوا حلفاء لهم، من بني أسد[١]:

فَدَع عَنكَ قَومًا لَا عِتابَ عَلَيهِمُ هُمُ أَلحَقوا عَبسًا بِأَرضِ القَعاقِعِ
وَقَد عَسَرَت مِن دُونِهِم بِأَكُفِّهِم بَنو عامِرٍ عَسرَ المَخاضِ المَوانِعِ
فَمَا أَنَا فِي سَهمٍ وَلا نَصرِ مالِكٍ وَمَولاهُمُ عَبدِ ابنِ سَعدٍ بِطامِعِ
إِذا نَزَلوا ذا ضَرغَدٍ فَعُتائِدًا يُغَنّيهِمُ فيها نَقيقُ الضَفادِعِ
قُعودًا لَدى أَبْيَاتِهِم يَثْمِدُونَها رَمَى اللهُ فِي تِلْكَ الأُنُوفِ الكَوانِعِ

من الواضح أنّ النابغة ما انفك يدافع عن بني أسد وينصرهم في كلّ مواقفهم ولو كان على حساب بني عبس، الأمر الذي يؤكّد أنّ النابغة كان يرى أنّ الحلف القائم بين بني أسد وذبيان/غطفان من الأولويّات التي ينبغي تقديمها على أيّة اعتبارات أخرى، ولو كانت هذه الاعتبارات تتعلق ببعض أولي القربى.

وفي ذات السياق، يمكن الإشارة إلى ملاحاتين شعريتين من شأنهما الكشف عن تواطؤ بني عامر بن صعصعة في إلغاء حلف بني أسد وذبيان ونقضه، الملاحاة الأولى كانت لعامر بن الطفيل العامريّ مع النابغة، حيث يشير فيها عامر إلى رفض بني ذبيان لنصيحة قدمها لهم بعض بني عامر، في إشارة منه إلى طلب عمّه عامر بن مالك وكذلك زرعة بن عمرو العامريّ إلى بني ذبيان بالتخليّ عن بني أسد، ونقض حلفهم معهم، ونتيجة لهذا الرفض أخذ عامر بن الطفيل يتوعّد ذبيان، ويذكّرهم بما مضى من أيامهم مع بني عامر[٢]:

أَلا مَنْ مُبلِغٌ عَنّي زِيَادًا غَداةَ القَاعِ إِذ أَزِفَ الضِّرابُ
غَداةَ تَثُوبُ خَيلُ بَني كِلابٍ عَلى لَبّاتِها عَلَقٌ يُشَابُ
فَإِنَّ لَنا حُكومَةَ كُلَّ يَومٍ يُبَيَّنُ في مَفاصِلِهِ الصَّوابُ

---

(١) السابق، ق١٢: ٥-٩.
(٢) عامر بن الطفيل، **الديوان**، ص١٩-٢٠.

فَــإِنَّ بَنــي بَغــيضٍ قَــد أَتــاهُم رَسُــولُ النَّاصِــحينَ فَمــا أَجــابوا
وَلا رَدّوا مَحــــورَةَ ذاكَ حَتّــــى أَتانـــا الحِلــمُ وَانخَــرَقَ الحِجــابُ
فَــإِنَّ مَقَــالَتي مَــا قَــدْ عَلِمــتُم وَخَيلِــي قَــدْ يَحِــلُّ لَهَــا النِّهَــابُ

فيردّ عليه النابغة مسفّهًا طيشه وجهله، ومقلّلًا من شأنه في بني عامر(١):

فَــإِنْ يَــكُ عَــامِرٌ قَــدْ قَــالَ جَهْــلًا فَــإِنَّ مَظِنَّــةَ الجَهْــلِ الــشَّبَابُ
فَكُــنْ كَأَبِيــكَ أَو كَــأَبِي بَــراءٍ تُوافِقْــكَ الحُكُومَــةُ وَالــصَّوابُ
وَلا تَــذْهَبْ بِحِلمِــكَ طَامِيــاتٌ مِــنَ الخُــيلاءِ لَــيسَ لَهُــنَّ بَــابُ
فَإِنَّــكَ سَــوْفَ تَحلُــمُ أَو تَنَــاهَى إِذَا مَــا شِــبْتَ أَو شَــابَ الغُــرابُ

ومذكّرًا إيّاه ما أصابهم من ذبيان في يوم "حِسي"(٢):

فَــإِن تَكُــنِ الفَــوارِسُ يَــومَ حِــسيٍ أَصــابوا مِــن لِقائِــكَ مــا أَصــابوا
فَمــا إِن كــانَ مِــن نَــسَبٍ بَعيــدٍ وَلَكِــن أَدرَكــوكَ وَهُــم غِــضابُ
فَــوارِسُ مِــن مَنولَــةَ غَيــرُ ميــلٍ وَمُــرَّةَ فَــوقَ جَمعِهِــمُ العُقــابُ

أمّا الملاحاة الشعريّة الثانية فكانت بين النابغة ويزيد بن الصَّعِق، من بني عامر بن صعصعة(٣)، وفيها يقلّل النابغة من شأن يزيد بعدما أخذ يفاخر هذا الأخير بانتصار له بذي أبان، حين غنم القليل من الإبل(٤):

لَعَمْــرُكَ مَــا خَــشِيْتُ عَلَــى يَزِيــدٍ مِــنَ الفَخْــرِ المُــضَلِّلِ مَــا أَتَــانِي
كَــأَنَّ التَّــاجَ مَعْــصُوبًا عَلَيــهِ لِأَذْوَادٍ أُصِــبْنَ بِــذِي أَبَــانِ
فَحَــسْبُكَ أَنْ تُهَــاضَ بِمُحْكَمَــاتٍ يَمُــرُّ بِهَــا الــرَّوِيُّ عَلَــى لِــسَانِي

ثمّ أخذ النابغة يتوعده بمن يسميه "أبا قبيس"(٥):

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**،ق٢٠: ١-٤.
(٢) السابق، ق٢٠: ٥-٧.
(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**،ج١٢: ١٦٨.
(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢١: ١-٣.
(٥) السابق، ق٢١: ٧.

فَـــإِنْ يَقْـــدِرْ عَلَيـــكَ أَبـــو قُبَـــيسٍ تُمَـــطُّ بِـــكَ المَعيـــشَةُ فـــي هَـــوانِ

فيردّ عليه يزيد بن الصعق، بأنّ له مكانة عند "أبي قبيس" لا يستطيع النابغة الوصول إليها، لأنّه لا يغتابه ولا يذكره إلا بالجميل، ولهذا فهو (يزيد) أنفذ قولًا وطعنا من النابغة، ثمّ يصف النابغة وقومه بالغدر والخيانة، فيقول(١):

وَإِنْ يَقْـــدِرْ عَلَـــيَّ أَبُـــو قُبَـــيسٍ تَجِـــدْنِي عِنْـــدَهُ حَـــسَنَ المَكَـــانِ
تَجِـــدْنِي كُنْـــتُ خَيْـــرًا مِنـــكَ غَيبًـــا وَأَمْـــضى بِاللِّـــسَانِ وَبِالـــسِّنَانِ
وَأَيُّ النَّـــاسِ أَغْـــدَرُ مِـــنْ شَـــآمٍ لَـــهُ صُـــرَدانِ مُنطَلِـــقِ اللِّـــسانِ
فَـــإِنَّ الغَـــدرَ قَـــد عَلِمَـــت مَعَـــدٌّ بَنَـــاهُ فِـــي بَنِـــي ذُبْيَـــانَ بَـــانِي

ويبدو أنّ وصف ذبيان بالغدر، على لسان يزيد، جاء ردًّا على رفضهم لقطع تحالفهم مع بني أسد، بناء على نصائح قدمها سادة من بني عامر إليهم بهذا الخصوص.

من جهة أخرى، "أبو قبيس" المذكور في هذه الملاحاة بشقيها، هو نفسه النعمان بن المنذر اللخميّ، وليس تصغيرًا لـ"أبي قابوس" كما يعتقد؛ فقد أشار الراميني(٢)، استنادًا إلى منظومة من الأدلة الشعريّة، ومنها هذه الملاحاة الشعريّة، إلى العوامل التي دفعت بالأخباريين والرواة، ومن تبعهم من الباحثين، للقول بذلك، ومن بين هذه العوامل، وهو الأهم في نظره، شعر تنسبه المصادر(٣) لعبد المسيح بن عمرو بن بقيلة ، أحد أعيان الحيرة، يبكي فيه الحيرة وما آلت إليه من بعد سقوطها في أيدي المسلمين، يتحسّر على أيامها في عهد النعمان بن المنذر وأبيه وجدّه:

أَبَعْـــدَ المُنْـــذِرَينِ أَرَى سَـــوَامًا تُـــرَوِّحُ بِـــالخَوَرْنَقِ والـــسَّدِيرِ
تَحَامَاهَـــا فَـــوَارِسُ كُـــلِّ حَـــيٍّ مَخَافَـــةَ ضَـــيْغَمٍ عَـــالِي الزَّئِيـــرِ
وَبَعْـــدَ فَـــوَارِسِ النُّعمَـــانِ أَرْعَـــى رِيَاضًـــا بَـــيْنَ ذَرْوَةَ وَالحَفِيـــرِ

(١) السابق، ص١١٣-١١٤.
(٢) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٦٦-٣٦٨.
(٣) انظر، مثلًا، الحليّ، **المناقب المزيديّة**، ج١: ١٥٩.

فَـــصِرْنَا بَعْـــدَ مُلْـــكِ أَبِـــي قُبَـــيْسٍ ... كَمِثْـــلَ الـــشَّاءِ فِـــي اليَـــوْمِ المَطِيـــرِ
تُقَـــسِّمُها القَبَائِـــــلُ مِـــــنْ مَعَـــــدٍّ ... عَلَانِيَـــــــةً كَأَيْـــــــسَارِ الجَـــــــزُورِ

من الواضح أنّ "أبا قبيس"، في شعر عبد المسيح، هو لقب للنعمان بن المنذر اللخميَ وليس لغيره، ومن بين ما يعزّز هذه النتيجة، أنّ عدي بن زيد، أحد الشعراء المعروفين بانتمائهم للحيرة، وبصحبتهم للنعمان بن المنذر اللخميّ[١]، يذكر في شعر له "آل قبيس"، في معرض حديثه عن الحياة والفناء والزوال أثناء حبسالنعمان بن المنذر له، كما تقول الرواية[٢]، إذ يقول[٣]:

إنّ لِلـــــدَّهْرِ صَـــــوْلَةً فَاحـــــذَرَنْها ... لاَ تبيَـــــتنَّ قَـــــدْ أَمِنـــــتَ الـــــدُّهُورا
قَـــد يَنَـــامُ الفَتَـــى صَـــحِيْحًا فَيَـــرْدَى ... وَلَقَـــــد بَـــــاتَ آمِنًـــــا مَـــــسْرُورا
إنَّمَـــــا الـــــدَّهْرُ لَـــــيِّنٌ وَنَطُـــــوحٌ ... يَتْـــرُكُ العَظْـــمَ وَاهِيًـــا مَكْـــسُورا
فَاسَـــأَلِ النَّـــاسَ أَيْـــنَ آلُ قُبَـــيْسٍ ... طَحْطَـــحَ الـــدَّهْرُ قَـــبْلَهُم سَـــابُورا

فإن صحت هذه الرواية فإنّ عدي بن زيد يعني بآل "قبيس" آل النعمان بن المنذر، ولاسيّما أنّه يذكرهم إلى جانب ذكره لـ"سابور" أحد أكاسرة الفرس[٤]. وهذا يعزّز الرأي القائل بأنّ "أبا قبيس" لقب للنعمان بن المنذر اللخميّ؛ في حين أنّ "أبا قابوس" كنية للملك الغسانيّ الحارث بن أبي شمر.

وبالعودة إلى ملاحاة النابغة مع يزيد بن الصعق، نجد حالة من التنافر بين "أبي قبيس" ويزيد ابن الصعق، وهو ما يعني أنّ ثمّة علاقة عداء بين الطرفين. في مقابل، حالة من التقارب بين النابغة و"أبي قبيس"، وهو ما يعني أنّ النابغة وقومه كانوا في حلف مع "أبي قبيس"، أي أنّ زمن هذه الملاحاة كان في الفترة التي سوّى النابغة وقومه، بنو يربوع بن غيظ، خلافاتهم مع قيادة

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢١٤.

(٢) البيهقيّ، إبراهيم بن محمد، **المحاسن والمساوئ**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠، ج٢: ١٧١.

(٣) عدي بن زيد العبادي، **الديوان**، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والتوزيع، ١٩٦٥، ق٩: ١٠-١٣.

(٤) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٥١١.

ذبيان، وعادوا إلى ديارهم يمارسون كافة نشاطاتهم؛ بما فيها الدفاع عن القبيلة وارتباطاتها الداخليّة والخارجيّة، أمّا ما قبل ذلك فالعلاقة بين النابغة والنعمان بن المنذر وصلت إلى حدّ كبير من التوتر والاضطراب، وهذا، ربّما، ما يفسّر هجاء النابغة للنعمان وقومه(١):

حَـــدِّثوني بَنـــي الـــشَقيقَةِ مـــا يَـــم ... نَـــعُ فَقعًـــا بِقَرقَـــرٍ أَن يَـــزولَا
لا أَرَى الفَـــارِسَ المُـــدَجَّجَ فِـــيكُم ... آلَ نَـــصْرٍ ولا الفَتَـــى البُهلُـــولَا
لَعَـــنَ اللهُ ثُـــمَّ ثَنّـــى بِلَعْـــنٍ ... رِيْـــذَةَ الـــصَّائِغِ الجَبـــانَ الجَهـــولَا
مَـن يَـضُرَّ الأَدنـى وَيَعجَـزُ عَـن ضَـرْ ... رِ الأَقَاصِـي وَمَـن يَخُـونُ الخَلـيلَا
يَجمَـعُ الجَـيشَ ذا الأُلـوفَ فَيَغْـزُو ... ثُـمَّ لا يَـرزَأُ العَـدُوَّ فَتِـيلَا

"بنو الشقيقة" هم قوم النعمان بن المنذر اللخميّ، فـ"الشقيقة" جدّته وإليها ينسب، وهي بنت أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان(٢)، على أية حال، لا سبيل لتفسير هذا الهجاء إلا في ضوء سوء العلاقة بين النابغة والنعمان بن المنذر، بعد مباركة الحيرة لتحالف ذبيان (حلف المحاش) ضدّ النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، على نحو ما أشير سابقًا.

وفي سياق محاولات بني عامر لإلغاء حلف بني أسد وذبيان، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ البغدادي(٣)، بإسناد إلى أبي عبيدة، يشير إلى غارة للربيع بن زياد العبسيّ على يزيد بن الصعق، على خلفية غارة سابقة لنبي عامر على نواحي من أراضي غطفان، ومع أنّ الربيع لم يستطع الوصول إلى يزيد إلا إنّه حقق مكاسب اغتنمها من بني جعفر والوحيد، من بني كلاب، وتغنّى الربيع بذلك:

فَـإِذْ أَخْطَـأْتُ قَوْمَـكَ يَـا يَزِيـدا ... فَـأَنْعَى جَعْفَـرًا لَـكَ وَالوَحِيْـدا

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٦: ١-٢، ٧-٩؛ وينسب هذا الشعر أحيانًا لعبد قيس بن خفاف البرمجيّ (انظر، الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، تحقيق عبد الأمير مهنا، بيروت: مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ١٩٩٢، ج١: ص٢٢١).

(٢) السمعاني، **الأنساب**، ج٥: ص٢٠٦.

(٣) البغدادي، **خزانة الأدب**، ج١: ص٤٢٨.

ويبدو أنّ، الشاعر المشهور، لبيد بن ربيعة العامريّ، ساءه ما جاء على لسان الربيع، فأخذ يردّ عليه، وفي الوقت نفسه، يتوعّد بني بغيض ويقلّل من شأنهم(١):

لَستُ بِغافِرٍ لِبَني بَغيضٍ سَفاهَتَهُم وَلا خَطَلَ اللِّسانِ
سَآخُذُ مِن سَراتِهِمُ بِعِرضي وَلَيسوا بِالوَفاءِ وَلا المُداني
فَإِنَّ بَقِيَّةَ الأَحْسَابِ مِنّا وَأَصحابَ الحَمالَةِ وَالطِّعانِ
جَراثيمٌ مَنَعنَ بِياضَ نَجدٍ وَأَنتَ تُعَدُّ في الزَمَعِ الدَّواني

من الواضح أنّ لبيدًا لا يتوجّه بشعره هذا إلى حيّ بعينه من أحياء غظفان، بل إلى غطفان بأسرها، وهذا ما يفسر غضب النابغة على لبيد، فأخذ يذمّه يحقّره بقوله(٢):

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي لَبِيدًا أَبَا الدَّرْدَاءِ جَحْفَلَةَ الأَتَانِ
فَقَدْ أَزْجَى مَطِيَّتَهُ إِلَيْنَا بِمَنْطِقٍ جَاهِلٍ خَطِلِ اللَّسَانِ

وبالنظر إلى شعر الربيع وشعر لبيد السابقين، يمكن التأكيد على أنّ بني عبس، في هذه الفترة، عادت إلى القبيلة الأم (غطفان)، بعد أن سوّت خلافاتها مع ذبيان، وبالنتيجة، خروجها من حلف بني عامر بن صعصعة، ناهيك عن أنّ انحياز النابغة، في شعره الأخير، إلى بني عبس خاصّة، وغطفان عامة ودفاعه عنهم، ما يعني عودته لممارسة واجباته اتجاه قبيلته، وهذا بحدّ ذاته فيه دليل واضح على عودة النابغة وقومه إلى قبيلتهم الأم، بعد أن أمضوا بضعة أعوام تحت عباءة الغساسنة(٣).

الآن، يمكن القول، بقدر كبير من الثقة، إنّ شعر النابغة القبليّ تسوده روح الدفاع عن حلف بني أسد وذبيان إزاء جميع المحاولات التي استهدفته بالنقض والإلغاء، وهذا ما يؤكّد إيمان النابغة القويّ بأهمية وجود هذا الحلف في مواجهة الأخطار الخارجيّة، سواء أكانت من بني عامر ابن

(١) لبيد بن ربيعة العامريّ، **الديوان**، ق٨٨: ١-٤.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣٨: ١-٢.
(٣) انظر، السابق، ق٣:٢، ق٢٢: ٣.

صعصعة، أم من القبائل الغسانيّة في الشام، فهؤلاء جميعًا ظلّوا متربصين بغطفان وحلفائها، للاستيلاء على أراضيها ومراعيها، وخصوصًا عندما بدأت مملكة الحيرة بالانهيار، وهو ما شكّل حالة من الفراغ السياسيّ، وبالنتيجة، تفرّق القبائل النجديّة بعد أن كانت لفترة طويلة تحت المظلة اللخميّة، تدبر أمورها وتدير شؤونها وتحلّ خلافاتها وتجمع كلمتها، ولهذا وجد الأسديون والذبيانيون أنفسهم مضطرين للتمسك بحلفهم لمواجهة هذه التحديات، وهذا ما استدعى النابغة القيام بواجباته اتجاه قبيلته بالدفاع عنها وعن حلفائها.

وهكذا، يتّضح أنّ شعر النابغة القبليّ، في أغلبه، يدور في فلك ثلاث وقائع تاريخيّة: انشقاق بني عبس والتحاقهم ببني عامر، وحلف "المحاش" الذي أدّى إلى انشقاق النابغة وقومه، بني يربوع ابن غيظ، عن ذبيان، وانتسابهم في بني عذرة بن سعد، ومحاولة نقض حلف بني أسد وغطفان، وقد شكلت كلّ واحدة من هذه الأحداث مرحلة فارقة في تاريخ غظفان، فضلًا عن ذبيان، سياسيًّا وقبليًّا؛ فقد تبيّن أنّ الهدف الحقيقيّ لهذه الصراعات هو السعي للقضاء على الكيان القبليّ لغطفان، من خلال تمزيق وحدتها، لكن في نهاية الأمر، كما كشف شعر النابغة وغيره من الشعراء، فشلت جميع هذه المحاولات، بفضل الذين يؤمنون بضرورة الحفاظ على وحدة القبيلة وكيانها، لضمان أمنها واستقرارها[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأحداث القبليّة شغلت حيزًا لا يستهان به من مجموع شعر النابغة، فقد تجاوزت ربع قصائده تقريبًا[٢]، وفي هذا دليل واضح وقويّ على أنّ الروح القبلية ظلت حاضرة في نفس الشاعر، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار أن القصائد التي وجهها النابغة إلى

---

(١) يرى العشماوي أنّ النابغة حاول أن يأتلف الحيرة وغسان في وقت واحد، ليجعل منهما صديقين حليفين، ليضمن أمن قبيلته واستقرارها (العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص١٢٤).

(٢) عدد القصائد التي تناولت الاتجاه القبلي عشرون قصيدة، في حين أن مجموع قصائد الديوان هي خمس وسبعون قصيدة .

الغساسنة هي في حقيقتها تمثل الروح القبليّة، وإن كان العنصر السياسيّ أكثر حضورًا وظهورًا فيها، وبهذا فإنّه من الممكن القول بأنّ شعر النابغة الذي تسوده الروح القبلية يتجاوز ثلاثة أرباع مجموع قصائده.

الفصل الثالث.

قصائد النابغة زمنيًا.

بعد المناقشة السابقة حول الارتباط السياسيّ والقبليّ لشعر النابغة الذبيانيّ، يمكن الآن الخوض في ترتيب قصائد هذا الشعر زمنيًّا، وهذه القصائد يمكن تأطيرها في ثلاث مراحل أساسيّة: مرحلة ما قبل اتصاله بالغساسنة؛ مرحلة اتصاله بهم؛ مرحلة ما بعد اتصاله بهم.

إلا إنّ ترتيب قصائد النابغة زمنيًا يتطلّب إعادة النظر في منظومة الأحداث التاريخيّة التي مرّت بها قبيلته، ذبيان/ غطفان، وقومه، بنو يربوع بن غيظ، ومن ثَمّ تركيبها في صورة تنسجم وإطارها التاريخيّ الصحيح، وهو ما يعني استثمار الإشارات التاريخيّة في شعر النابغة، سواء أكانت هذه الإشارات أيامًا ووقائع وحروبًا، أم كانت أسماء أعلام، ومراقبة هذه الإشارات في مواد أكثر مصداقيّة، وعلى رأسها الشعر الجاهلي، بوصفه مصدرًا أساسيًّا من مصادر التاريخ العربيّ في ذلك العصر. في حين أنّ القصائد التي لا تتضمّن أيًّا من هذه الإشارات، وهي قليلة، فإنّ الباحث سيرتبها بناء على مضامينها، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة انسجام ذلك مع الفترة الزمنيّة التي أنشدت فيها.

أولاً: مرحلة ما قبل اتصال النابغة بالغساسنة.

وتضم هذه المرحلة القصائد التي أنشدها النابغة قبل التحاقه ببني عذرة بن سعد، ومن ثَمّ اتصاله بالغساسنة في الشام. وهذه القصائد، في مجملها، تعبّر عن أمرين مهمين في تاريخ غطفان، فضلًا عن ذبيان، أمّا الأول فهو مفارقة بني عبس لغطفان، والثاني عودة بني عبس إلى غطفان مرة أخرى بعد المصالحة التي تمّت بينهم وبين ذبيان، وما تبع ذلك من انشقاق قوم

النابغة، بني يربوع بن غيظ، عن ذبيان، على خلفية خرقهم لوثيقة الصلح المبرم بين بني عبس وذبيان.

أمّا القصائد التي تعبر عن مفارقة بني عبس لغطفان فهي القصائد ذوات الأرقام: ١٧؛ ٥٤؛ ٧٢، وهي تكشف عن التحاق بني عبس ببني عامر بن صعصعة، في أعقاب الخلاف الدائر بين بني عبس وذبيان على خلفية حرب داحس والغبراء.

ففي القصيدة السابعة عشرة، يشير النابغة إلى التحاق العبسيين ببني عامر، وفي الأثناء يذكر النابغة سيد غطفان، زهير بن جذيمة العبسيّ، وأخاه حذيم[1]:

أَبلِغْ بَنِي ذُبْيَانَ أَنْ لا أَخا لَهُمْ ... بِعَبْسٍ إِذَا حَلُّوا الدِّماخَ فَأَظْلَما
بِجَمْعٍ كَلَوْنِ الأَعْبَلِ الجَوْنِ لَوْنُهُ ... تَرَى فِي نَواحِيهِ زُهَيرًا وَحِذْيَما
هُمُ يَرِدُونَ المَوْتَ عِنْدَ لِقائِهِ ... إِذَا كَانَ وِردُ المَوتِ لا بُدَّ أَكرَما

وذكر النابغة لهما، هنا، لا يعني أنّهما شهدا حرب داحس والغبراء، على عكس ما يدعيه ناشر الديوان، ديرنبرج، الذي يرى أن زهيرًا شاهد أو عاصر بداية هذه الحرب[2]، فضلًا عن أنّ الأدلة التاريخية تؤكّد أن حذيفة بن بدر الفزاريّ تسلّم زعامة غطفان بعد مقتل زهير بن جذيمة على يد خالد بن جعفر بن كلاب[3]، أحد سادة بني عامر بن صعصعة[4]، في يوم النفراوات[5]، وهذا ما يؤكّده شعر خالد بن جعفر المقتبس آنفًا[6]، أي قبل نشوب حرب داحس والغبراء.

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٧: ١-٣.
(٢) العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص١٥٦.
(٣) انظر، الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٦.
(٤) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٨.
(٥) ابن حبيب البغداديّ، **المحبّر**، ص٢٤٩؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٢٠.
(٦) انظر، أعلاه، ص٧٦-٧٧.

وفي القصيدة الثانية والسبعين، يتوجّه النابغة فيها إلى من يكنيه بـ"أبي حريث"، زياد بن الربيع العبسيّ، باللّوم على تحالفهم مع بني عامر[١]:

أَلا أَبلِـــغ لَـــديكَ أَبـــا حُرَيـــثٍ	وَعاقِبَـــةُ المَلامَـــةِ لِلمُلـــيمِ
فَكَيـــفَ تَـــرى مُعـــاقَبَتي وَسَـــعيِي	بِـــأَذوادِ القَـــصيمَةِ وَالقَـــصيمِ
فَنِمـــتُ اللَيـــلَ إِذ أَوقَعـــتُ فـــيكُم	قَبائِـــلَ عـــامِرٍ وَبَنـــي تَمـــيمِ
وَســـاغَ لِـــيَ الـــشَرابُ وَكُنـــتُ قَـــبلًا	أَكـــادُ أَغَـــصُّ بِالمـــاءِ الحَمـــيمِ

وهذا يعني استنكار الشاعر لهذا التحالف، ولهذا سعى، كما يشير، إلى نقضه بكلّ الوسائل؛ فمن وجهة نظره، كما يبدو، أنّ العبسيين، أبناء عمومته، تحالفوا، مع أعدائه وأعدائهم، ولابدّ من عدم استمرار ذلك.

من الواضح أنّ الحديث عن تحالف بني عبس مع بني عامر بن صعصعة أخذ شكلًا آخر، في أوساط غطفان، وخاصة بعد يوم جبلة المشهور، حين تلقت الحيرة وحلفاؤها من القبائل النجديّة، وعلى وجه الخصوص بني أسد وغطفان، هزيمة نكراء، في ذلك اليوم، على يد بني عامر وحلفائهم العبسيين[٢]، وهذا يعني، بالضرورة، أنّ تحالف بني عبس مع بني عامر تمّ قبيل أحداث يوم جبلة، الذي وقع في أوائل تسعينيات القرن السادس الميلادي[٣].

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٢: ١-٤.

(٢) انظر، الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٧.

(٣) انظر: Ramini, **The Tribe of Tamim and the Origins of the Eally Crisis in the Caliphate**, Ph, D. thesis, Cambridge University, 1989, p39-40.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأخباريين اختلفوا في تأريخ هذا اليوم؛ فمنهم من يجعله قبل الإسلام بأربعين سنة، ومن يجعله قبل ذلك بثلاثين سنة، وآخرون يجعلونه قبل الإسلام بتسع عشرة سنة (انظر: علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٨: ١١٤، ج١٨: ٦٨).

وأغلب الظنّ أنّ التحالف بين العبسيين والعامريين تمّ قبل أن يقتل الحارث بن ظالم المريّ خالد بن جعفر العامريّ؛ ثأرًا لزهير بن جذيمة العبسيّ. فمن المعلوم أنّ العبسيين باركوا ما فعله الحارث، كما يفهم من شعر ينسب إلى قيس بن زهير العبسيّ، يقول فيه(١):

جَـــزَاكَ اللهُ خَيْـــرًا مِـــنْ خَلِيـــلٍ ... شَـــفَى مِـــنْ ذِي تُبُولَتِـــهِ الخَلِـــيلَا
أَزَحْـتَ بِهَـا جَـوىً وَدَخِيـلَ حُـزْنٍ ... تَمَخَّـــخَ أَعْظُمِـــي زَمَنًـــا طَـــوِيلَا
كَـــسَوْتَ الجَعْفَـــرِيَّ أَبَـــا جُـــزَيْءٍ ... وَلَـــمْ تَحْفَـــلْ بِـــهِ سَـــيْفًا صَـــقِيلَا
أَبَـــأتَ بَـــهِ زُهَيـــرَ بَنِـــي بَغِـــيضٍ ... وَكُنْـــتَ لِمِثْلِهَـــا وَلَهَـــا حَمُـــولَا
كَـشَفْتَ لَـهُ القِنَـاعَ وَكُنْـتَ مِمَّـنْ ... يُجَلِّـــي العَـــارَ وَالأَمْـــرَ الجَلِـــيلَا

فليس مستبعدًا أن يكون مقتل خالد بن جعفر على يد الحارث، سببًا في الخلاف بين العبسيين والعامريين، وإنهاء التحالف بينهم.

على أيّة حال، يشير شعر النابغة السابق (ق٧٢) إلى مرحلة فارقة في تاريخ بني عبس، تتمثل في إنهاء تحالفهم مع بني عامر بن صعصعة، وهو ما يمكن تفسيره بعودتهم إلى قبيلتهم غطفان بعد تسوية خلافاتهم مع ذبيان، ويبدو أنّ ذلك حدث في أعقاب قتل الحارث لخالد بن جعفر(٢)، على الأقل هذا ما يفهم من شعر النابغة السابق، ومن شعر آخر لقيس بن زهير العبسيّ، يقول فيه (٣):

لَحَـا اللهُ قَوْمًـا أَرَّشُـوا الحَـرْبَ بَيْنَنَـا ... سَـقَوْنَا بِهَـا مُـرًّا مِـنَ الـشُّرْبِ آجِنَـا
وَحَرمَلَـــةَ النـــاهيهُمُ عَـــن قِتالِنـــا ... وَمـــا دَهـــرُهُ إِلّا يَكـــونُ مُطاعِنـــا
فَهَـــلّا بَنـــي ذُبيـــانَ وَســـطَ بِيـــوتِهِم ... رَهَنـــتَ بِمَـــرِّ الـــريحِ إِن كُنـــتَ راهِنـــا
وَخالَـــستُهُم حَقّـــي خِـــلالَ بِيـــوتِهِم ... وضـإِن كُنـتُ أَلَقـى مِـن رِجـالٍ ضَـغائِنا

---

(١) الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص٦٨.

(٢) تشير الأدلة إلى أنّ هذا الخلاف تعاظم حتى وصل ذروته في يوم "النتاءة" (انظر: جاد المولى بك، **أيام العرب في الجاهلية**، ص٢٨١-٢٨٢.

(٣) الضبيّ، أبو العباس المفضل بن محمد، **أمثال العرب**، ص١٠٠-١٠١.

إذا قُلتُ قَد أَفلَتِّ مِن شَرِّ حَنبَصٍ   لَقيتُ بِأُخرى حَنبَصًا مُتَباطِنا
فَقَد جَعَلَت أَكبادُنا تَجتَويهُمُ   كما يَجتَوي سوقُ العِضاهِ الكَرازِنا
يَدُرّونَنا بِالمُنكَراتِ كَأَنَّما   يَدُرّونَ وِلدانًا تُرَمّي الرَّهادِنا

من جهة أخرى، لم يثر ما فعله الحارث بن ظالم حفيظة بني عامر فحسب، بل أثار، أيضًا، حفيظة "أبي قابوس"، فمن خلال مفضليّة، تنسب إليه، نعرف أنّ خلافًا وقع بينه وبين خالد بن جعفر، وأنّ هذا الخلاف أفضى، في نهايته، إلى قتل خالد على يد الحارث، وهو في الوقت نفسه، يشير إلى قتله لأحد أفراد عائلة "أبي قابوس"(١):

حَسِبْتَ أبا قابوس أنَّكَ سالمٌ   ولمّا تُصِبْ ذُلًّا وأنْفُكَ راغِمُ
فإن تكُ أذوادٌ أُصِبْنَ وَصِبيةٌ   فَهذَا ابنُ سَلْمَى رَأْسُهُ مُتَفاقِمُ
عَلَوْتُ بِذِي الحَيَّاتِ مَفْرِقَ رَأْسِهِ   وَهَلْ يِرْكَبُ المَكْرُوهَ إِلَّا الأَكَارِمُ
فَتَكْتُ بِهِ كَمَا فَتَكْتُ بِخَالِدٍ   وكَانَ سِلَاحِي تَجْتَوِيهِ الجَمَاجِم

إنّ ما قام به الحارث يمثّل، في حدّ ذاته، تحديًا صارخًا لسلطة "أبي قابوس"، ولهذا وجد الحارث نفسه مطاردًا من قِبل "أبي قابوس"، ففي مفضليّة أخرى، نعرف أنّ الحارث اضطرّ للتنقل بين أحياء العرب بعد أن رفضت ذبيان حمايته، حتى انتهى به المطاف إلى اللجوء إلى مكة، والانتساب إليها، منكرًا نسبه في ذبيان(٢):

فَلَسْتُ بِشَاتِمٍ أَبَدًا قُرَيْشًا   مُصِيْبًا رَغْمَ ذَلِكَ مَنْ أَصَابَا
فَمَا قَوْمِي بِثَعْلَبَةَ بنِ سَعْدٍ   وَلَا بِفَزَارَةَ الشُّعْرَى رِقَابَا
وَقَوْمِي إِنْ سَأَلْتِ بَنُو لُؤَيٍّ   بِمَكَّةَ عَلَّمُوا النَّاسَ الضِرَابَا
فَمَا غَطَفَانُ لِي بِأَبٍ وَلَكِنْ   لُؤَيٌّ وَالِدِي قَوْلًا صَوَابَا
فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ بَنِي لُؤَيٍّ   عَرَفْتُ الوُدَّ وَالنَّسَبَ القُرَابَ

---

(١) **المفضليات**، ق٨٨: ٣-٦.

(٢) السابق، ق٨٩: ٧-٩؛ ١٣-١٤.

كما تكشف بعض المصادر[١] عن خلاف دار بينه وبين من يسمّيه "النعمان":

أَلا سَـــائِلِ النُّعمـــانَ إِنْ كُنــتَ سَــائِلًا وَحَـــيَّ كـــلابٍ هَـــل فَتَكْـــتُ بِخَالـــدِ

وفي موطن آخر[٢]:

أَلا أَبلـــغِ النُّعمـــانَ عَنِّـــي رِسَـــالةً فَكيـــفَ بِخطـــابِ الخُطـــوبِ الأَعَـــاظِمُ

من الواضح أنّ قتل خالد بن جعفر على يد الحارث بن ظالم كان سبب هذا الخلاف بين هذا الأخير وبين "أبي قابوس" ومن ثَمّ بينه وبين "النعمان".

الآن، وبعد أن اتضحت صورة العداء بين الحارث بن ظالم و"أبي قابوس" و"النعمان"، فلا بدّ من إعادة تركيب هذه الصورة في سياقها التاريخيّ الصحيح، ليس للكشف عن هويّة كلّ من "أبي قابوس" و"النعمان"، المذكورين في شعره، فحسب، بل ومن أجل الكشف عن أسباب الخلاف بين بني عبس وبني عامر بن صعصعة، بعد تحالفهما لفترة وجيزة من الزمن.

فبالنظر إلى تاريخ بني عامر نجد أول ظهور حقيقي لهم على مسرح الأحداث، بحسب مصادر ذات مصداقيّة[٣]، كان في منتصف القرن السادس للميلاد، لكنّهم ما لبثوا أن اختفوا بعد هذه الحملة مدة أربعين سنة تقريبًا، قبل أن يعاودوا الظهور مرة أخرى، كقوّة لها طابعها القبليّ والسياسيّ، في أواخر القرن السادس للميلاد، مع أحداث يوم جبلة المشهور، مع أنّ الأخباريين، كما، يرى الراميني[٤]، لم يقدموا شيئًا عن ارتباط بني عامر السياسيّ في ذلك اليوم، في مقابل ما قدّمه هؤلاء الأخباريون من ارتباط سياسيّ لأعدائهم فيه. وهو يرى، في الوقت نفسه، أنّ بني عامر

---

(١) الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص٦٧.

(٢) السابق، ج١١: ص٧٢.

(٣) فنقش "Ry506" يذكرهم كأحد الأهداف للحملة العسكريّة التي شنّها أبرهة الحبشيّ في وسط الجزيرة العربيّة سنة ٥٤٧/٥٥٢م، وأسفرت هذه الحملة عن إخضاعهم لسلطته (انظر: الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر ابن أبي خازم، ص٣٠٣).

(٤) الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٣٠٣.

ما كانوا ليحصلوا على أي مساندة، من القبائل العربيّة الأخرى، لولا وجود قوّة سياسيّة تحرّك هذه القبائل وتنظّمها، وهذه القوّة، بالطبع، آل جفنة في الشام. فالمصادر، من جانبها، تحتفظ بكثير من الأدلّة على وجود علاقة وطيدة بين بني عامر والغساسنة.

ومن هذه الأدلّة أنّ النابغة الجعديّ، وهو من بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة[1]، يشير في شعر له إلى المجالس التي كانت تجمعه مع ندماء له في حضرة من يسمّيه "المنذر بن محرّق"[2]:

نَـدامايَ عِنـدَ المُنـذِرِ بـنِ مُحَـرِّقٍ أَرَى اليَـومَ مِـنهُم ظـاهرَ الأَرضِ مُقفِـرا

ومع أنّ شرّاح الشعر يجعلون المنذر بن محرّق هو نفسه المنذر بن ماء السماء اللخميّ، مع اختلافهم في تحديد أي المنذرين هو: الثالث أم الرابع، إلا إنّه لا يوجد ما يدلّ على لخميّة المنذر ابن محرّق في شعر النابغة الجعديّ، فضلًا عن أنّه لو سلّمنا بقولهم، فإنّ عمر النابغة الجعديّ يصبح ضعف العمر الطبيعي للإنسان، إن لم يكن أكثر[3]؛ فالمنذر الثالث توفي سنة ٥٥٤م، والمنذر الرابع توفي سنة ٥٨٠م، فمن جعل المنذر الثالث هو المقصود في شعر النابغة الجعديّ، بلغ بعمر الشاعر أكثر من مائتين وعشرين سنة، ومن جعل المنذر الرابع هو المقصود بلغ بعمر الشاعر أكثر من مائة وثمانين سنة[4]، مع أنّ الذهبيّ[5] يرى أنّ الشاعر عاش حتى سنة ٧٠هـ/٦٨٩م، إذن، فمن المرجّح أن تكون صلة النابغة الجعديّ بهذا المنذر قد تمّت حول زمن

---

(١) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٨٩.

(٢) النابغة الجعديّ، **الديوان**، جمع وتحقيق واضح الصمد، بيروت: دار صادر، ١٩٩٨، ق٢٦أ: ١٥، ق٢٦ب: ٩، ق٢٦ج: ٢.

(٣) انظر، البريّ، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاريّ التلمسانيّ(٦٤٥هـ)، **الجوهرة في نسب النبيّ وأصحابه العشرة**، تنقيح وتعليق محمد التونجيّ، الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٨٣، ص٤٠٢، حول عمر النابغة الجعديّ بناء على أنّه أدرك المنذر بن محرّق ونادمه.

(٤) انظر، الراميني، "محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر، ص٣٣٢.

(٥) الذهبيّ، **سير أعلام النبلاء**، ج٣: ص١٧٨.

البعثة النبويّة، وأنّه هو المذكور في شعر حسّان بن ثابت[1]، ومن ثَمّ لا يكون النابغة قد بلغ عمرًا غير معقول. وعليه، فإنّ المنذر بن محرّق، في شعر النابغة الجعديّ، كما يرى الراميني[2]، هو ملك غسانيّ، الأمر الذي يعني وجود علاقة قويّة بين بني عامر والغساسنة.

ومن بين الأدلة كذلك، أنّ زهير بن جناب الكلبيّ، وهو من بني كنانة من قضاعة[3]، يشير، في شعر له، إلى غزوة شنّها قومه على أبناء عمومتهم، قوم الجلاح بن عوف، من بني سمحة من كلب[4]، واصفًا فرسان قومه بكتيبة كثير العدد، وأنّها مجهّزة بأسلحة ودروع، كالتي كانت تصنع لجيش"محرّق"[5]:

أَبـى قَومُنـا أَن يَقبَلـوا الحَـقَّ فَـانتَهوا   إِلَيـهِ وَأَنيـابٌ مِـنَ الحَـربِ تَحـرُقُ
فَجـاؤوا إِلـى رَجراجَـةٍ مُكفَهِـرَّةٍ   يَكـادُ المُرَنّـى نَحوَهـا الطَـرفَ يَـصعَقُ
دُروعٌ وَأَرمـاحٌ بِأَيـدي أَعِـزَّةٍ   وَمَوضـونَةٌ مِمّـا أَفـادَ مُحَـرِّقُ

من الواضح أنّ قوم زهير، الذين ينزلون بين الحجاز والشام في مناطق خاضعة للنفوذ الغسانيّ[6]، ما كانوا ليلبسوا هذه الدروع المنسوجة لجيش محرّق لولا أنّهم كتيبة من كتائب جيشه، وهو ما يدل على انضوائهم تحت لوائه، فضلًا عن أنّه دليل واضح على تبعيّة بني عامر للغساسنة.

---

(١) انظر، حسّان بن ثابت، **الديوان**، ق٣٢٢: ١-٤.
(٢) انظر، الراميني، "محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر، ص٣٣٣.
(٣) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٤٥٦-٤٥٧.
(٤) ابن الكلبي، **نسب معد واليمن الكبير**، ج٢: ص٦٠٧-٦٠٨.
(٥) زهير بن جناب الكلبيّ، **الديوان**، ق١٧: ١٦-١٨.
(٦) انظر، كحالة، **معجم قبائل العرب**، ج٢: ص٤٨٣.

كما أنّ لبيد بن ربيعة العامريّ يصف، في شعر له، جيش "النعمان" (ابن الحارث الغسانيّ) بالكتائب الخضر، التي ضمّت فرسانًا لا يعرفون الجبن، وقد لبسوا دروعًا ورثوها عن جيش "محرّق"، كتلك التي صنعها داود وابنه، إذ يقول[1]:

وَمـا نَـسَجَت أَسـرادَ داوُدَ وَابنِـهِ مُـضاعَفَةً مِـن نَـسجِهِ إِذ يُقابِـلُ
وَكانَـت تُراثًـا مِنهُمـا لِمُحَـرِّقٍ طَحَـونٌ كَـأَنَّ البَـيضَ فيهـا الأَعابِـلُ
إِذا مـا اِجتَلاهـا مَـأزِقٌ وَتَزايَلَـت وَأَحكَـمَ أَضـغانَ القَتيـرِ الغَلائِـلُ
أَوَت لِلـشِياحِ وَاِهتَـدى لِـصَليلِها كَتائِـبُ خُـضرٌ لَـيسَ فـيهِنَّ ناكِـلُ

ويبدو أنّ اللون الأخضر هو اللون الرسميّ لكتائب الجيش الغسانيّ، فالنابغة الذبياني، من جانبه، يذكر خضرة لباسهم، في شعر ينشده بين يدي عمرو بن الحارث الغسانيّ[2]:

يَـصونونَ أَجـسادًا قَـديمًا نَعيمُهـا بِخالِـصَةِ الأَردانِ خُـضرِ المَناكِـبِ

ومن جهة أخرى، يرى الراميني[3] أنّ علاقة بني عامر بالغساسنة تجاوزت حدود التحالف إلى التبعيّة السياسيّة بالولاء والطاعة للملك الغسانيّ، ويؤكّد ذلك ملاحاة شعريّة بين يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل[4]، حيث يشير يزيد إلى ما كانت تدفعه بنو عامر من إتاوات إلى "محرّق" ثمّ إلى "النعمان"، إذ يقول:

يَـا لِلرِّجَـالِ لِطَـارِقِ الأَحْـزَانِ وَلِعَـامِرِ بـنِ طُفَيـلِ الوَسـنَانِ
كَانَـتْ إِتَـاوَةُ قَوْمِـهِ لِمُحَـرِّقٍ زَمَنًـا وَصَـارَتْ بَعْـدُ لِلنُّعْمَـانِ

---

(١) لبيد بن ربيعة العامريّ، **الديوان**، ق٦٠: ٣٣-٣٦.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٣: ٢٧.
(٣) الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٣٠٦.
(٤) الأصفهاني، **الأغاني**، ج٢: ص٩-١٠.

فيردّ عليه عامر بن الطفيل بأنّ ما يتفاخر به يزيد لا يعدّ فخرًا، لأنّه وقومه لن يصلوا إلى وصل إليه بنو عامر من مكانة عند هذين الملكين، ويشير إلى أنّ يزيد وقومه يدفعون الإتاوات للحيرة، حيث يقول:

عَجَبًا لِوَاصِفِ طَارِقِ الأَحْزَانِ ... وَلِمَا يَجِيءُ بِهِ بَنُو الدَّيَّانِ
فَخَرُوا عَلَيَّ بِحَبْوَةٍ لِمُحَرِّقٍ ... وَإِتَاوَةٍ سِيقَتْ إِلَى النُّعْمَانِ
مَا أَنْتَ وَابنَ مُحَرِّقٍ وَقَبِيلِهِ ... وَإِتَاوَةُ اللَّخْمِيِّ فِي عَيْلَانِ
فَاقْصُدْ بِفَخْرِكَ قَصْدَ قَوْمِكَ قُصْرَةً ... وَدَعِ القَبَائِلَ مِنْ بَنِي قَحْطَانِ

شعر الطفيل هذا فيه دليل واضح على هويّة كلّ من "محرّق" و"النعمان" الغسانيّة؛ إذ إنّ الشاعر يفرّق بين ما يدفعه وقومه من إتاوة لـ"محرّق" ولـ"النعمان"، وبين ما يدفعه يزيد وقومه من إتاوة للخميين، وهذا يعني، بالطبع، أنّ "محرّقًا" و"النعمان" المذكورين في شعره ليسا لخميين.

الآن، وقد أشارت كلّ الأدلة إلى قوّة الارتباط بين بني عامر والغساسنة، فهذا يعني، بالضرورة، أنّ علاقتهم بالحيرة لم تكن، في يوم من الأيام، علاقة حميمة، بل على النقيض تمامًا، فجميع الأدلة تشير إلى وجود عداء مستحكم بين بني عامر والحيرة قبل الإسلام[1].

وبالعودة إلى شعر النابغة السابق (ق٧٢)، فإنّ الشاعر يشير في البيت الثالث إلى تحالف بني عامر وبني تميم ضدّ بني عبس[2]:

فَنِمْتُ اللَيلَ إذ أَوقَعتُ فيكُم ... قَبائِلَ عامِرٍ وَبَني تَميمِ

وهو ما يوحي بعودة بني عبس إلى قبيلتهم الأم، غطفان، وهو، أيضًا، ما تؤكده المصادر[1].

---

(١) انظر، الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٤٠؛ قارن: الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص١٠٩؛ الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٣٠٤-٣٠٥، فيما يخص خبر مقتل عروة بن عتبة ابن جعفر العامريّ، على يد البراض الكنانيّ، فهذا الخبر يقدم صورة طيبة بين عروة والنعمان بن المنذر اللخميّ، ولكنّ ذلك يحتاج إلى إعادة نظر في ضوء ما قاله عروة من شعر في يوم جبلة، حيث يظهر فيه العداوة لذبيان وحلفائها، وهو ما يؤكّد سوء العلاقة بين بني عامر والحيرة، وليس العكس.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٢: ٣.

من المؤكّد أنّ تحالف بني عامر مع بني تميم تمّ بعد يوم جبلة، فالأدلة تشير إلى أنّ هؤلاء كانوا موالين للحيرة وحلفائها من القبائل النجديّة: أسد وغطفان والرّباب، ضدّ بني عامر عشيّة يوم جبلة؛ فأوس بن حجر التميميّ يؤكّد اشتراك قومه في حملة عسكريّة واسعة شنّها الأسود بن المنذر، باسم أخيه النعمان بن المنذر اللخميّ، في نجد، لاستعادة هيبة الحيرة، بعد هزيمتها في ذلك اليوم، على يد بني عامر وحلفائهم من بني سُليم وبني غنيّ وبني عبس[٢]:

غَنِيٌّ تَآوى بِأَولادِها ... لِتُهلِكَ جِذمَ تَميمِ بنِ مُرّ
وَخِنْدِفُ أَقْرَبُ بِأَنْسابِهِمْ ... وَلَكِنَّنَا أَهْلُ بَيتٍ كُثُرْ
فَإِنْ تَصِلُونَا نُواصِلْكُمُ ... وَإِنْ تَصْرِمونا فَإِنّا صُبُرْ
لَقَد عَلِمَتْ أَسَدٌ أَنَّنَا ... لَهُمْ نُصُرٌ وَلَنِعمَ النُّصُرْ

وفي موطن آخر يقول[٣]:

تَكَنَّفَنَا الأَعداءُ مِن كُلِّ جانِبٍ ... لِيَنتَزِعوا عَرقاتِنا ثُمَّ يَرتَعوا
فَما جَبُنوا أَنّا نَسُدُّ عَلَيهِمُ ... وَلَكِن لَقوا نارًا تَحُسُّ وَتَسفَعُ
وَجاءَت سُلَيمٌ قَضُّها وَقَضيضُها ... بِأَكثَرِ ما كانوا عَديدًا وَأَوكَعوا

من الواضح أنّ أوسًا يشير إلى محاولة بني عامر وحلفائهم لإبعاد بني تميم عن منازلهم؛ بغية السيطرة عليها، ولكنّ بني تميم، كما يكشف أوس، أخرجوهم عنها بأعداد كثيرة، كما أنّ أوسًا يعلن في موطن آخر عن ارتباط بني تميم باللخميين، حين يكشف عن تدخّل ملك الحيرة لإتمام انتصارات التميميين[٤]:

أَطَعنا رَبَّنا وَعَصاهُ قَومٌ ... فَذُقنا طَعمَ طاعَتِنا وَذاقوا

---

(١) انظر، مثلًا، الضبيّ، المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، ص٢٢٩.
(٢) أوس بن حجر التميميّ، **الديوان**، ق١٤: ١-٤.
(٣) السابق، ق٢٨: ٣-٥.
(٤) السابق، ق٣٣: ١.

وهو اعتراف واضح بأنّهم يدينون فيها لطاعة "ربّهم"، وهو من غير شكّ، النعمان بن المنذر اللخميّ أو أخيه الأسود قائد حملاته العسكريّة. وفي موطن آخر، يشير أوس إلى تحالف بني عامر بن صعصعة مع بني عبس ضدّهم[1]:

صَبَحنَ بَني عَبسٍ وَأَفناءَ عامِرٍ   بِصادِقَةٍ جَودٍ مِنَ الماءِ وَالدَّمِ

من الواضح أنّ شعر أوس السابق يمثّل مرحلة يوم جبلة وانعكاساتها.

من جهة أخرى، لا يمكن التّصوّر أنّ بني تميم كانوا يقاتلون وحدهم ضدّ بني عامر وحلفائهم، وإن كان ذلك ما قد يوحي به شعر أوس السابق؛ فاعتراف أوس بالامتنان لـ"ربّه" في الانتصار على بني عامر وحلفائهم، يؤكّد دور الحيرة في هذه الانجازات، وهو، من جانب آخر، ما يشير إلى وقوف حلفاء الحيرة في نجد إلى جانب بني تميم في حربهم ضدّ بني عامر وحلفائهم؛ فحجم الأهداف وكثرة الأعداء، كما يرى الراميني[2]، يفوق قدرتهم وحدهم على تحقيق مثل هذه الانتصارات على بني عامر وحلفائهم، بمعنى آخر، لا بدّ من وجود قوّة سياسيّة تدعم بني تميم في حروبهم تلك ضدّ بني عامر وحلفائهم، وهذه القوّة، بالطبع، في هذه المرحلة من تاريخ بني تميم، هي الحيرة، نظرًا إلى ارتباط بني عامر السياسيّ مع الغساسنة في الشام.

كما أنّ بشر بن أبي خازم، من جانبه، يشير إلى الانقلاب المفاجئ في علاقة بني تميم مع بني عامر، مستغربًا تحالفهم مع قوم مازالت سيوفهم تقطر من دمائهم[3]:

غَضِبتُم عَلَينا أَن تُقَتَّلَ عامِرٌ   وَفي الحَقِّ إِذ قالَ المُعاتِبُ مَغضَبُ
وَحالَفتُمُ قَومًا هَراقوا دِماءَكُم   لَوَشكانَ هَذا وَالدِّماءُ تَصَبَّبُ

---

(١) السابق، ق٤٨: ١٥.

(٢) الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٣٠٩.

(٣) بشر بن أبي خازم الأسدي، **الديوان**، ق٢: ٢٧-٢٨.

الأمر الذي يوحي بتردّي العلاقة بين بني تميم والحيرة، وهنا يبرز شعر آخر لأوس بن حجر يظهر فيه انقلاب اللخميين في علاقتهم مع قومه، حين يكشف عن أصداء خلاف عميق بينهم وبين بني أسد، حلفاء الحيرة التقليديين، وأنّ أفعال بني أسد كانت سببًا في هذا الخلاف، وأنّها كانت تستوجب من بني تميم تجريد جيش كبير لردعهم وتأديبهم، ولكنّهم لم يفعلوا ذلك إكرامًا لمن يسمّيه "الهمام"، وهو النعمان بن المنذر أو أخوه الأسود(١):

أَحَسَّ رَكْزَ قَنِيصٍ مِن بَنِي أَسَدٍ   فَانْصاعَ مُنْثَوِيًا وَالخَطْوُ مَقْصورُ
لَولا الهُمامُ الَّذي تُرجى نَوافِلُهُ   لَنالَهُم جَحفَلٌ تَشقى بِهِ العورُ
لَولا الهُمامُ لَقَد خَفَّت نَعامَتُهُم   وَقالَ راكِبُهُم في عُصبَةٍ سيروا

وهو ما يعكس خوف بني تميم من غضب الحيرة وانتقامها منهم إذا ما قاموا بتجريد جيش نحو بني أسد، الأمر الذي يكشف تحيّز الحيرة لبني أسد ضدّ بني تميم.

وفي شعر آخر، ينسب إلى ضمرة بن ضمرة النهشليّ، من بني دارم التميميين، يشير فيه إلى تردّي العلاقة بين الحيرة وبني تميم، حين يوجّه ضمرة انتقادًا شديد اللهجة للأسود بن المنذر اللخميّ، حين أعلن هذا الأخير غزو بني دارم، وقتل رهائنهم لدى الحيرة، كما أنّه يلومه على ما يريد فعله بنسائهم، اللائي نشأ في حجورهنّ؛ ليجعل منهنّ مغنمًا لمن معه من رجال بني ربيعة، ولكنّه يعلن أنّه لن يذكر "النعمان" بسوء؛ لما له من فضل في رقاب قومه، إذ يقول(٢):

سَنَمْنَعُ جَارًا عَائِذًا فِي بِيُوتِكُم   بِأَسْيَافِنَا حَتَّى يَؤُوْبَ مُسَلَّمَا
إِذَا مَا دَعَوْنَا دَارِمًا مَا حَالَ دُونَه   عَوَابِسُ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُعَجَّمَا
وَلَو كُنْتَ حَرْبًا مَا وَرَدْتَ طُوَيْلِعًا   وَلَا حَوْفَهُ إلا خَمِيسًا عَرَمْرَمَا
تَرَكْتَ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ وَفِعْلَهُم   وَأَشْبَهْتَ تَيْسًا بِالحِجَازِ مُزَنَّمَا
وَلَنْ أَذْكُرَ النُّعْمَانَ إلا بِصَالِحٍ   فَإِنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَيْنَا وَأَنْعُمَا

---

(١) أوس بن حجر التميميّ، **الديوان**، ق٢١: ١٩، ٣٥-٣٦.

(٢) الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١: ص٧٩.

وهناك شعر، ينسب خطأً إلى لقيط بن زرارة(١)، يكشف عن تردّي العلاقة بين بني تميم والحيرة، حيث يعيّر فيه الشاعر بني مالك بن حنظلة بأنّ الملك أخذ منهم من أخذ، وقتل منهم من قتل، ومع ذلك نزلوا بجواره، إذ يقول(٢):

فَأَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي مَالِكٍ	**مُغَلْغَلَةً وَسُرَاةَ الرَّبَابِ**
فَإِنَّ امْرَءًا أَنْتُمُ حَوْلَهُ	**تَحِفُّونَ قُبْتَهُ بِالقِبَابِ**
يُهِينُ سُرَاتِكُمُ عَامِدًا	**وَيَقْتُلُكُم مِثْلَ قَتْلِ الكِلَابِ**
فَلَوْ كُنْتُمُ إِبِلًا أَمْلَحَتْ	**لَقَدْ نَزَعَتْ لِلْمِيَاهِ العِذَابِ**
وَلَكِنَّكُم غَنَمٌ تُصْطَفَى	**وَيُتْرَكُ سَائِرُهَا لِلذِّئَابِ**
لَعَمْرُ أَبِيكَ أَبِي الخَيْرِ مَا	**أَرَدْتَ بِقَتْلِهِمُ مِنْ صَوَابِ**
وَلَا نِعْمَةً إِن خَيْرَ المُلُو	**كِ أَفْضَلُهُم نِعْمَةً فِي الرِّقَابِ**

على أيّة حال، جميع الأدلة تؤكّد انقلاب العلاقة بين بني تميم والحيرة، مع أنّها، في الوقت نفسه، لم تقدم تفسيرًا واضحًا لهذا الانقلاب، لكنّ المهمّ، هنا، أنّه من الطبيعي أن يبحث بنو تميم، في ظلّ تردّي علاقتهم بالحيرة، عن قوّة أخرى؛ توفر لهم الحماية، وبالتأكيد ليس في الجزيرة العربيّة مثل هذه القوّة إلا الغساسنة، ومن هنا، على ما يبدو، بدأ تحالفهم مع بني عامر بن صعصعة، كانعكاس طبيعيّ لارتباطهم بالغساسنة، الأمر الذي يفسّر شعر النابغة السابق، والذي يعلن فيه عن سعيه للإيقاع بين بني تميم وبني عامر من جانب، وبين بني عبس من جانب آخر، وهذا يعني، بالتأكيد، عودة العبسيين إلى قبيلتهم، غطفان.

---

(١) من المعلوم أنّ لقيطًا لقي حتفه في يوم جبلة، أي أنّه لم يشهد تحوّل العلاقة بين الحيرة وبني تميم (انظر: الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم ، ص٣١٠).

(٢) الأصفهاني، **الأغاني**، ج٢٢: ص١٣٥-١٣٦.

من هنا تظهر القصائد التي أنشدها الشاعر في أعقاب هذه العودة، والتي تتطلّب، بالضرورة، إجراء مصالحة بين الخصماء، بني عبس وذبيان، وأنّ هذه المصالحة لابدّ أن تتمّ بموافقة الحيرة؛ بوصفها السلطة السياسيّة التي تدير شؤون القبائل النجديّة في شمال الجزيرة العربيّة.

وهذه القصائد، في المجمل، تعبّر عن ثلاثة موضوعات أساسيّة، أولاها: المصالحة بين بني عبس وذبيان، كما هو الحال في القصيدة السبعين، والتي تشير فيها النابغة إلى سادة بني مرّة بوصفهم كفلاء للصلح[1]:

إِنَّا نُقَدِّمُ لِلْفَخَارِ ثَلاثَةً	هَرِمًا وَعَوْفًا عَمَّهُ وَسِنَانَا
وَنَعُدُّ خَارِجَةَ المَكَارِمِ إِذْ سَعَى	بِحَمَالَةٍ فَاسْتَخْلَصَتْ غَطَفَانَا
والحَارِثَيْنِ مَعًا نَعُدُّ وهَاشِمًا	وَيَزِيدَ إِنْ عُدَّ الكُمَاةُ طِعَانَا

وهؤلاء هم حمالة الديّات، الذين ضمنوا بعملهم هذا دماء غطفان، ومن ثَمّ عودة بني عبس، ومن ثَمّ عودة اللحمة لصفوفها، وهذا ما يؤكّده شعر زهير بن أبي سلمى المقتبس آنفًا، إذ يقول[2]:

تَدارَكتُما عَبسًا وَذُبيانَ بَعدَما	تَفانوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ

الأمر الذي يعني عودة بني عبس لممارسة نشاطاتهم القبليّة المترتبة عليهم، ومن أهمّها الصراع مع بني عامر بن صعصعة والغساسنة. وثانيتها: انشقاق بني يربوع بن غيظ، قوم النابغة الأدنين، عن ذبيان، بعد مناصرة بني مرّة وأحياء أخرى من ذبيان، على رأسهم بنو فزارة، ضدّهم، فيما يُعرف بحلف "المِحاش"، كما هو الحال في القصائد: ٦؛ ١٦؛ ٢٨؛ ٥٥؛ ٦١؛ ٦٢؛ ٦٨.

فقد بات من المؤكّد أنّ حلف "المِحاش"، الذي تزعّمه يزيد بن سنان بن أبي حارثة المريّ، ضدّ بني يربوع بن غيظ بن مرة، كما يكشف شعر النابغة السابق[3]، حدث بعد خرقهم لمعاهدة

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٧٠: ١–٣.

(٢) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ١٧.

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١٦: ١.

الصلح بين بني عبس وذبيان على يد حصين بن ضمضم، ابن عم النابغة، كما يشير شعر زهير ابن أبي سلمى المقتبس آنفًا(١)، الأمر الذي يتطلّب تناصر ذبيان ضدّهم، ومن ثَمَّ إخراجهم من ديارهم ونفيهم إلى ديار أخوالهم بني عذرة بن سعد في أعلي الحجاز، إذ يقول(٢):

ألا أَبلِغــا ذُبيــانَ عَنّــي رِســالَةً   فَقَـد أَصـبَحَت عَـن مَـنهَجِ الحَـقِّ جـائِرَه

ويقول(٣):

وَلَحِقــتُ بِالنَـسَبِ الَّــذي عَيَّرتَنــي   وَتَرَكــتَ أَصــلَكَ يــا يَزيــدُ ذَميمــا

وثالثها: تردّي العلاقة بين النابغة والحيرة؛ فانشقاق النابغة وقومه عن ذبيان انعكس سلبًا على علاقة النابغة بالحيرة، وهذا ما يفسّر، على ما يبدو، هجاء النابغة لآل نصر، حين ينعتهم بالجبناء والضعفاء، على الرغم من كثرة سلاحهم، وأنّهم أساؤوا معاملة الناس، فعاملوهم كالدواب، كما أنهم، على حدّ وصفه، أنّهم لا يتورّعون عن إتيان الفواحش(٤):

حَــدِّثوني بَنــي الــشَقيقَةِ مــا يَمــ   ــنَعُ فَقعًــا بِقَرقَــرٍ أَن يَــزولا
لا أَرَى الفَــارِسَ المُــدَجَّجَ فِــيكُم   آلَ نَــصْرٍ ولا الفَتَــى البُهلُــولا
جَمَعُــوا مِــنْ نَوَافِــلِ النَّــاسِ سَــيْبًا   وحَمِيــرًا مَوسُــومةً وَخُيــولا
وَبَــرَاذِينَ كَابِيــاتٍ وَأُتْنًــا   وَخَنَاذِيــذَ خِــصْيَةً وَفُحُــولا
لَا أَرَى حَــاجِزًا عَــن الفُحْــشِ فِــيهمْ   وحِمَــارًا عَــنْ أُمِّــهِ مَــشْكُولا

من الواضح أنّ اعتداء حصين بن ضمضم على العبسيين، بعدما حظيت المصالحة بينهم وبين ذبيان بمباركة اللخميين، اعتبرته الحيرة تحديًا سافرًا لسلطتها، وتهديدًا لمصالحها الإستراتيجية

---

(١) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ٣٤-٣٧.
(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٨: ١.
(٣) السابق، ق١٦: ٢.
(٤) السابق، ق٣٦: ١-٥.

في المنطقة[١]، وهذا ما أدى، على ما يبدو، إلى توتر العلاقة بين النابغة والنعمان بن المنذر اللخميّ آنذاك، الأمر الذي أسفر عن مفارقته وعشيرته لقومه، ذبيان، كما يكشف في القصيدتين التاسعة والعشرين، والثلاثة والستين.

ومن الجدير بالذكر أنّ اعتداء حصين بن ضمضم على بني عبس تزامن مع اضطراب علاقة بني يربوع بن غيظ مع سائر ذبيان، فالحقائق التاريخيّة تؤكّد حدوث هذين الحدثين في الفترة التي تلت أحداث يوم جبلة، أي في منتصف تسعينيات القرن السادس للميلاد، فالمصادر[٢]، من جانبها، تشير إلى أنّ الصلح تمّ، بين بني عبس وذبيان، بعد خروج العبسيين من حلف بني عامر ابن صعصعة، حيث كان العبسيون ملتزمين، بموجب هذا الحلف، بالقتال إلى جانب بني عامر ضدّ الأحلاف في يوم جبلة، يضاف إلى ذلك أنّ قيادة بني مرّة آلت إلى أبناء سنان بن أبي حارثة المريّ، كما يكشف شعر النابغة الخاص بحلف "المحاش" (ق١٦) بعد زمن من يوم جبلة، أمّا قبل ذلك، مما سبق من أحداث داحس والغبراء، فقد كانت قيادة بني مرّة ما زالت في يد أبيهم، سنان بن أبي حارثة[٣]، وهي الفترة التي كان النعمان بن المنذر فيها على رأس الحكم في الحيرة، فمن المعروف أنّ هذا الأخير حكم الحيرة خلال العقدين الأخيرين من القرن السادس للميلاد (٥٨٢/٥٨٣م-٦٠٣/٦٠٤م).

ومن الجدير بالملاحظة أنّ حرب داحس والغبراء بدأت في عهد النعمان بن المنذر، وانتهت في عهده أيضًا، مستغرقة بذلك بضع سنين فقط[٤]، على الرغم ممّا يشاع من أنّها استمرت أربعين

---

(١) انظر، الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٧.

(٢) انظر، مثلًا، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١: ص٤٦١.

(٣) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٣٦.

(٤) الراميني، عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، ص١٥٦.

سنة[1]، ولكنّ ذلك لا يستقيم، في ضوء الحقائق التاريخية المتعلقة بهذه الحرب، فمن المعروف أنّ هذه الحرب وضعت أوزارها بعد زمن قريب من يوم جبلة، وتوّج ذلك بالصلح المبرم بين قبيلتي عبس وذبيان، فضلًا عن أنّ مقتل حذيفة بن بدر الفزاريّ على يد بني عبس، في يوم الهباءة، هو الذي سعّر نار هذه الحرب، وحذيفة هذا تسلّم زعامة غطفان، كنائب للنعمان بن المنذر، بعد مقتل زهير بن جذيمة العبسيّ، كما أنّ هذا الأخير تسلّم زعامة غطفان بعد تسلّم النعمان بن المنذر الحكم في الحيرة، أي بعد سنة ٥٨٠/٥٨٢م بفترة من الزمن، وهو ما يعني أن حذيفة تسلّم زعامة غطفان، على الأقل، بعد بضع سنين من تسلّم النعمان زمام الحكم في الحيرة. وبما أنّ حرب داحس والغبراء استعرت بعد تسلّم حذيفة لزعامة غطفان ببضع سنين، أيضًا، فمن المرجّح أن تكون حرب داحس والغبراء بدأت في أواخر ثمانينات أو أوائل تسعينيات القرن السادس الميلادي، واستمرّت إلى منتصف التسعينيات من القرن نفسه، أي إلى ما بعد يوم جبلة بزمن قليل. أمّا القول بامتداد الحرب إلى أربعين سنة؛ فربّما عاد ذلك إلى أنّ الثارات بين القبيلتين ظلّت تتجدد من حين لآخر، حتى بعد الاتفاق على الصلح، إلى أن جاء الإسلام ووحّدهما في الثلاثينيات من القرن السابع، أي بعد أربعين سنة من اندلاع الحرب بينهما[2].

ثانيًا: مرحلة اتصال النابغة بالغساسنة.

تضمّ هذه المرحلة القصائد التي أنشدها النابغة في الغساسنة عمومًا؛ ابتداء بالحارث بن أبي شمر، وانتهاء بعمرو بالحارث بن أبي شمر، وتشمل هذه المرحلة قصائده التي أنشدها في القائد العسكريّ للغساسنة النعمان بن الجلاح الكلبيّ.

---

(١) يرى شوقي ضيف أنّ حرب داحس والغبراء بدأت سنة ٥٦٨م، وانتهت سنة ٦٠٨م (ضيف، **العصر الجاهلي**، ص٢٦٦).

(٢) الراميني، عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، ص١٥٦.

وإذا ما ابتدأنا بقصائده في الحارث بن أبي شمر، نجد أنّها، في المجمل، تعبّر عن اعتذار الشاعر لهذا الأخير، وهو ما يعكس، من جانب، الحالة النفسيّة غير المستقرّة لدى الشاعر، ومن جانب آخر، توتّر العلاقة بينه وبين هذا الملك الغسانيّ، كما هو الحال في قصائده ذوات الأرقام: ١؛ ٢؛ ٨؛ ١٨؛ ٣٧، أمّا قصائده الأخرى فيه، وهي القصائد: ٣٢؛ ٣٤؛ ٥٧، فإنّها تعبّر عن حالة من التقارب بينهما، ولكن بالمفهوم الأوسع للكلمة.

وإذا كان الحارث بن أبي شمر الغسانيّ هو نفسه الذي ظهر في الشعر الجاهلي بلقب "محرّق"(١)، وبكنية "أبي قابوس"(٢)؛ فإنّ جميع الأدلة تشير إلى أنّه حكم في أوائل تسعينيات القرن السادس للميلاد، وليس في أوائل ثمانينيات ذلك القرن كما يرى نولدكه(٣)، فقد ثبت أنّ ملكًا غسانيًا اسمه "جفنة" كان يحكم في الشام مابين أواخر ثمانينيات القرن السادس للميلاد وأوائل تسعينياته(٤).

وبالنظر إلى جميع الأشعار الجاهليّة التي ظهر فيها "محرّق" و"أبو قابوس" فإنّها تعود جميعًا إلى عشيّة ظهور الإسلام، وأنّ أصحابها ينتمون إلى الجيل السابق لجيل البعثة النبويّة، كما أنّ الأحداث التاريخيّة المذكورة فيها تعود إلى مرحلة يوم جبلة المشهور، قبله أو بعده بزمن قريب.

ففي شعر الحصين بن الحمام المريّ، المقتبس آنفًا، يفتخر الشاعر بانتصار قومه، بني سهم بن مرّة الذبيانيين على أخوة لهم من ذبيان، من بني فزارة وأحياء أخرى من بني مرّة، وأنّ فرسان بني سهم كانوا يقاتلون بعدة حرب جهّزهم بها "محرّق" من بصرى الشام، إذ يقول(٥):

جَـزى اللَـهُ أَفنـاءَ العَـشيرَةِ كُلِّهـا ... بِـدارَةِ مَوضـوعٍ عُقوقًـا وَمَأثَمـا
بَنـي عَمِّنـا الأَدنَـينَ مِـنهُم وَرَهطَنـا ... فَـزارَةَ إِذ رامَـت بِنـا الحَـربُ مُعظَمـا

---

(١) انظر، الراميني، "محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر، ص٣٢٧-٣٦٩.

(٢) الراميني، النابغة الذبياني، ص٣٢٩-٣٦٨.

(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٥٧.

(٤) انظر: Shahid, Irfan, **Byzantium and the Arabs in the sixth century**,p554-557.

(٥) **المفضليات**، ق١٢: ١-٢؛ ١٤-١٥.

عَلَــيهِنَّ فِتيــانٌ كَــساهُم مُحَــرِّقٌ وَكــانَ إِذا يَكــسو أَجــادَ وَأَكرَمــا
صَــفائِحَ بُــصرى أَخلَــصَتها قُيونُهــا وَمُطَّــرِدًا مِــن نَــسجِ داوودَ مُبهَمــا

شعر الحصين هذا يكشف عن أمرين مهمّين: الأول؛ إنّ بني سهم اتصلوا اتصالًا مباشرًا بالغساسنة وتحالفوا معهم، والثاني؛ إنّ قومه انتصروا على ذبيان في يوم "دارة موضوع"، بعد أن جهّزهم "محرّق" بالسلاح، ويوم "دارة موضوع" وقع قريبًا من ظهور الإسلام، في عهد "محرّق"، كما أنّ الحصين بن الحمام مات قبل الإسلام، وقيل أنّه أدركه(١)، كما أنّ المصادر(٢) تذكر ابنًا للحصين يدعى "مَعِيّة"، وأنّ هذا الأخير أسلم، الأمر الذي يعني أنّ الحصين كان قريبًا من البعثة النبويّة.

كما أنّ النابغة الجعديّ، الذي عاش ردحًا من حياته في الإسلام(٣)، يشير في شعره الذي يذكر فيه المنذر بن محرّق، إلى انتصارات قومه، بني عامر، في يوم جبلة وفي معارك أخرى، على قبائل أسد وتميم وبكر بن وائل، إذ يقول(٤):

وَنَحــنُ ضَــرَبْنَا بالــصَّفَا آلَ دارِمٍ وَذُبْيَــانَ وابــنَ الجَــونِ ضَــرْبًا مُــذَكَّرا
تَــوَهَّنُ فِيــهِ المَــضْرَحِيَّةُ بَعــدَما نَهَلْــنَ نَجِيعًــا كَالمَجاسِــدِ أَحْمَــرا
أَرَحنَــا مَعَــدًّا مِــن شَــرَاحِيلَ بَعــدَمَا أَرَاهُــم مَــعَ الــصُّبْحِ الكَواكِــبَ مُظْهِــرا
وَمِــن أَسَــدٍ أَغــوى كُهُــولًا كَثِيــرَةً بِنَهْــيِ غُــرابٍ ثُــمَّ بَــاعَ وحَــرَّرا
وَمــا قُلــتُ حَتّــى قــالَ شَــتمُ عَــشِيرتي نُفَيــلَ بــنَ عَمــرٍو وَالوَحِيــدَ وجَعْفَــرا
وَحَــيَّ أَبِــي بَكــرٍ وَلا حَــيَّ مِــثْلُهُمْ إِذا بَلَــغَ الأَمــرُ الــدَّثُورُ المُــذَمَّرا

---

(١) الزركليّ، خير الدين بن محمود بن محمد بن عليّ بن فارس(١٣٩٦هـ)، **الأعلام**، ط١٥، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢، ج٢: ص٢٦٢؛ قارن: ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج٢: ص٨٥، حيث يذكر رواية لأبي عبيدة أنّه أدرك الإسلام.

(٢) انظر، ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج٦: ص٣٠٨.

(٣) حيث إنّه عاش إلى سنة سبعين للهجرة (انظر، مثلًا: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٣: ١٧٨؛ قارن: ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج٦: ص٣٩١-٣٩٢)، حول عمره، وأنّه كان أسنّ من النابغة الذبياني.

(٤) النابغة الجعديّ، **الديوان**، ق٢٦أ: ١٠٢-١٠٥، ١١٠-١١١.

من الواضح أنّ انتصارات بني عامر على هذه القبائل وقعت في عهد "محرّق"، وأنّها وقعت في زمن قريب من ظهور الإسلام.

وفي شعر آخر، وهذه المرّة، للأحوص[١]، يزيد بن عمرو الرياحيّ، من بني يربوع التميميين، يشير إلى انتصار قومه على من يسمّيه "أبا قابوس"، وأنّ هذا الانتصار تمّ في يوم "طخفة"[٢]:

وَكُنْتُ إِذَا مَا بَابُ مُلْكٌ قَرَعْتُهُ قَرَعْتُ بِآبَاءٍ أُولِي شَرَفٍ ضَخْمِ
بِأَبْنَاءِ يَرْبُوعٍ وكَانَ أَبُوهُمُ إِلَى شَرَفِ الأَعْلَى بِآبَائِهِ يَنْتَمِي
هُمُ مَلَكُوا أَمْلَاكَ آلِ مُحَرِّقٍ وَزَادُوا أَبَا قَابُوسَ رَغْمًا عَلَى رَغْمِ
وَقَادُوا بِكُرْهٍ مِنْ شِهَابٍ وَحَاجِبٍ رُؤُوسَ مَعَدٍّ بِالأَزِمَّةِ وَالْخُطْمِ
عَلَا جَدُّهُمُ جَدَّ المُلُوكِ فَأَطْلَقُوا بِطَخْفَةَ أَبْنَاءَ المُلُوكِ عَلَى الحُكْمِ

فبالإضافة إلى أنّ هذا الشعر يكشف عن هويّة "أبي قابوس" الغسانيّة[٣]، فإنّه يكشف، أيضًا، عن زمن حكمه؛ فيوم "طخفة" وقع بعد زمن قريب من يوم جبلة، إذ إنّ قتال بني تميم في صفوف جيش "أبي قابوس" يدلّ على انسحابهم من ائتلاف الحيرة القبليّ، ودخولهم في حلف مع بني عامر، وهو ما يشير إليه شعر بشر بن خازم المقتبس آنفًا، وقبل ذلك كانوا يقاتلون تحت لواء جيش اللخميين، أي في يوم جبلة وما سبقه من أحداث.

ومن بين الأشعار التي ظهر فيها "أبو قابوس" شعر ينسب، هذه المرّة، إلى عمرو بن ثعلبة الطائيّ، أحد سادة بني جديلة من بني رومان[٤]، الذين عقدوا حلفًا وثيقًا مع الغساسنة[٥]؛ وفيه

---

(١) ينسب، أحيانًا، لشريح بن الحارث اليربوعيّ، انظر، أبو عبيدة، **نقائض جرير والفرزدق**، ج١: ص٥٥.

(٢) الحموي، **معجم البلدان**،"طخفة".

(٣) فالشاعر يشير إلى تردّى العلاقة بين بني يربوع وأخوة لهم من بني دارم، الذين تحالفوا مع بني عامر بن صعصعة، ودخلوا بذلك تحت لواء آل جفنة، ويبدو أنّ توتّر العلاقة بين فرعي بني حنظلة: بني يربوع وبني دارم كان بسبب "الردافة" (انظر، أبو عبيدة، **نقائض جرير والفرزدق**، ج١: ص٥٣–٥٥).

(٤) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٣٢.

(٥) انظر، الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، ص٢٩٩–٣٠٣.

يحرّض عمرو هذا من يسمّيه "أبا قابوس" على الانتقام من قوم زرارة بن عُدس التميميّ، وذلك لمقتل ابن له، كما تروي المصادر[1]، على يد رجل من بني دارم يدعى سويد بن ربيعة، إذ يقول:

أَبْلِـــــغْ أَبَــــا قَـــــابوسَ أَنَّ   المـــــرءَ لَــــمْ يُخلَــــقْ صِـــبَارَهْ
وَحَـــــوَادِثُ الأَيَّـــــامِ لَا   يَبْقَـــــى لَهَـــــا إلا الحِجَـــــارَهْ
مَـــا إن عَجِـــزَة أُمِّـــهِ   بالـــــسَّفحِ أَسْـــــفَلَ مِـــــن أَوَارَهْ
تَـــــسفِي الرِّيَـــــاحُ خِـــــلَالَ   كَـــــشْحَيْهِ وَقَـــــد سَـــــلَبُوا إِزَارهْ
فَاقْتُــــــــــــلْ زُرَارَةَ لَا أَرَى   فِـــــي الْقَـــــومِ أَمْثَـــــلَ مِـــــنْ زُرارَهْ

من الواضح أنّ الشاعر يخاطب، هنا، ملكًا حليفًا، وبالنظر إلى انتماء بني جديلة التميميين، قوم الشاعر، نجد أنّهم كانوا في حلف مع الحيرة، وقد ظهر ذلك جليًّا في يوم جبلة، إلا إنّهم قطعوا هذا الحلف بعد ذلك اليوم، ودخلوا في حلف وثيق مع الغساسنة، ومادام الشاعر يخاطب "أبا قابوس" كملك حليف لقومه، فهذا يعني أنّهم بدّلوا ولاءهم السياسيّ في عهده، ودخلوا في حمايته، وهذا يعني أنّهم قاموا بذلك التغيير في زمن قريب من الإسلام، وهو ما يعني، أيضًا" أنّ "أبا قابوس" حكم قريبًا من ظهور الإسلام.

وإذا نظرنا إلى شعر عمرو بن معدي كرب الزبيديّ فإنّنا نجد دليلًا واضحًا على الفترة التي حكم فيها "أبو قابوس"/ الحارث بن أبي شمر في الشام، فعمرو يخبرنا، في شعر له، عن انتصار حققه فرسان قومه، قبيلة مذحج اليمنيّة على "أبي قابوس"[2]:

وُتجمِـــــعُ مَـــــذحِجٌ فيُرَئِّـــــسُوني   لأَبْـــــرأتُ المَنَاهِـــــلَ مِـــــن مَعَـــــدِّ
أَؤُمُّ بِهَـــــا أَبَـــــا قَـــــابوسَ حَتَّـــــى   أَحُـــــلَّ عَلَـــــى تَحِيَّتِـــــهِ بِجُنْـــــدِي
فَمَـــا نُهْنِهْـــتُ عَـــن بَطَـــلٍ كَمِـــيٍّ   وَلَا عَـــــن مُقْلَعِـــــطِّ الـــــرَّأْسِ جَعْـــــدِ

---

(١) ابن حبيب، أبو جعفر محمد البغدادي(٢٤٥هـ)، **المنمّق في أخبار قريش**، تصحيح خورشيد أحمد فاروق، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥، ص٢٤٠-٢٤٢.

(٢) عمرو بن معدي كرب الزبيديّ، **الديوان**، ط٢، جمع مطاع الطرابيشي، دمشق: مجمع اللغة العربيّة، ١٩٨٥، ق٢١: ١١، ١٤-١٥.

وبالنظر إلى سيرة عمرو بن معدي كرب، كما يرويها ابن حجر[١]، التي نعرف من خلالها أنّه أسلم، وعاش حتّى شهد يوم القادسيّة سنة ١٥هـ/٦٣٦م، فإنّ "أبا قابوس" الذي يذكره عمرو، في شعره، من واقع المعاصر له، عاش قريبًا من ظهور الإسلام.

كما أنّ حسان بن ثابت الأنصاريّ، يذكره في معرض افتخاره بمن يشترك معهم في النسب من الملوك وأبنائهم[٢]:

أَلَــم تَرَنــا أَولادَ عَمــرِو بــنِ عــامِرٍ لَنَــا شَــرَفٌ يَعلــو عَلــى كُــلِّ مُرتَقــي
رَســا فــي قَــرارِ الأَرضِ ثُــمَّ سَــمَت بِــهِ فُــروعٌ تُــسامي كُــلَّ نَجــمٍ مُحَلَّــقِ
مُلــوكٌ وَأَبنــاءُ المُلــوكِ كَأَنَّنــا سَــواري نُجــومٍ طالِعــاتٍ بِمَــشرِقِ
إِذا غــابَ مِنهــا كَوكَــبٌ لاحَ بَعــدَهُ شِــهابٌ مَتــى مــا يَبــدُ لِــلأَرضِ تُــشرِقِ
لِكُــلِّ نَجيــبٍ مُنجِــبٍ زَخَــرَت بِــهِ مُهَذَّبَــةٌ أَعراقُهــا لَــم تُرَهَّــقِ
كَجَفنَــةَ وَالقَمقــامِ عَمــروُ بــنِ عــامِرٍ وَأَولادِ مــاءِ المُــزنِ وَابنــي مُحَــرَّقِ
وَحارِثَــةَ الغِطريــفِ أَو كَــابِنِ مُنــذِرٍ وَمِثــلِ أَبــي قــابوسَ رَبِّ الخَوَرنَــقِ

في الواقع، شعر حسان هذا يعدّ دليلًا حاسمًا على انتفاء الصلة بين أبي قابوس والنعمان بن المنذر اللخميّ، ذلك أنّ حسان بن ثابت[٣]، يحدد، في شعره السابق، خطّ النسب الذي يفتخر به، بدءًا بعمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء، وانتهاء بـ"أبي قابوس"، وهنا، ينبغي أن نفهم أنّ "أولاد ماء المزن" و"ابني محرّق" و"ابن منذر" إضافة إلى "أبا قابوس"، إنّما يعودون جميعًا في

---

(١) انظر، ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج٤: ص٦٨٦.

(٢) حسّان بن ثابت، **الديوان**، ق٧٧: ١-٣؛ ٦-٧.

(٣) حسان بن ثابت يعود بنسبه إلى عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف (انظر، الأصفهاني، **الأغاني**،ج٤: ص١٠٥)، وهذا يتفق في مجمله مع شعر ينسب، أحيانًا، إلى أبيه ثابت بن المنذر ابن حرام (انظر، النشّابيّ، أبو المجد أسعد بن إبراهيم الإربليّ، **المذاكرة في ألقاب الشعراء**، تحقيق شاكر العاشور، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٨، ص٢٢)، وأحيانًا، إلى جدّه المنذر بن حرام:

وَرِثْنَــا مَــنَ البَهْلُــولِ عَمْــرِو بــنِ عــامرٍ وَحَارِثَــةَ الغطرِيــفِ مَجْــدًا مُــؤَثَّلَا
مَوَارِيــثَ مَــنْ أَبنــاءِ بِنْــتِ ابْــنِ مَالِــكٍ وَبِنْــتِ ابْــنِ إِســمَاعِيلَ، مِــا أنْ تَحَــوَّلَا

(المقدسيّ، مطهر بن طاهر(بعد٣٥٥هـ)، **البدء والتاريخ**، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينيّة، ١٩٨٠، ج٤: ١٢٣)

نسبهم إلى عمرو بن عامر، وهو الجدّ الأول للغساسنة(١)، وبحسب دراسة موثوقة(٢) فمن المرجّح أنّ حسان بن ثابت اتصل بآل جفنة سنة٦١٠م، وأنّه وفد عليهم غير مرة، ولهذا يفاخر بالقرابة التي تربطه بهم.

وإذا كان حسان بن ثابت عاش ردحًا من حياته في الإسلام، وأنّه شاعر النبيّ،   ، ولسان المسلمين الناطق ضدّ خصومهم من المشركين، فهذا يعني أنّ الملوك الذين وفد عليهم ومدحهم قبل إسلامه، إنّما عاشوا في زمن قريب من البعثة النبويّة، وهذا يصدق على"أبي قابوس" الغسانيّ؛ فحسان بن ثابت هو الأقرب زمنًا إليه من كلّ الشعراء الذين سبق ذكرهم، وهذا يعني أنّه عاصره واتّصل به(٣).

إذن، بات من المؤكد أنّ قصائد النابغة التي أنشدها في الحارث بن أبي شمر (أبي قابوس) تعود إلى ما بعد يوم جبلة، وبالتحديد إلى ما بعد منتصف تسعينيات القرن السادس للميلاد، بعد انشقاقه وعشيرته عن ذبيان.

أمّا قصائد النابغة في النعمان بن الحارث الغسانيّ، وهي تمثّل تقريبًا ثلث قصائده في الغساسنة عمومًا، فيغلب عليها طابع الاعتذار، وذلك لدأب المتربصين به في البلاط الغسانيّ

---

(١) الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٣٦. قد يرى البعض انتفاء صلة" أبي قابوس" بهذا النسب، آخذا من نسبة هذا الأخير إلى" الخورنق" في شعر حسان ذريعة لذلك، غير أنّ هذا الإشكال يمكن أن يتبدد؛ إذا ما عرفنا أنّ بعض المصادر تختلف في تحديد إذا ما كان الخورنق قصرًا أم منطقة زراعيّة (انظر: البكريّ، **معجم ما استعجم**، "أنقرة"؛ الحمويّ، **معجم البلدان**،"الخورنق"؛ الحميريّ، محمد بن عبد المنعم(٩٠٠هـ)، **الروض المعطار في أخبار الأقطار**، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة /دار السراج، ١٩٨٠، "النجف")، ويضاف إلى ذلك أنّ النتائج التي توصّل إليه الراميني فيما يتعلّق بـ"الخورنق" و"السدير" جديرة بالاهتمام، حين بيّن أنّ الخورنق والسدير ليسا خاصّين بالعراق وحده (انظر: الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٣٦، ٣٥٧-٣٥٨؛ "محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر، ص٣٣٠-٣٣١).

(٢) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٥.

(٣) السابق، ص٤٥-٤٦.

للإيقاع بينه وبين الملك[١]، وهذه القصائد من نتاج[٢] نهاية القرن السادس الميلاديّ، أو على أبعد تقدير، من نتاج أوائل العقد الأول من القرن السابع الميلاديّ، حين خلف النعمان أباه الحارث بن أبي شمر على الحكم في الشام[٣].

وشعر النابغة يتضمّن إشارة واضحة إلى أنّ النعمان بن الحارث كان على رأس الحكم في الشام في إطلالة القرن السابع الميلاديّ، ففي القصيدة الثانية والعشرين يشير الشاعر إلى فرح القبائل البكريّة: ذهل وقيس وشيبان بخبر وفاة النعمان؛ لأنهم، بذلك، تخلصوا من شرّ غزواته لهم[٤]:

وَرَبِّ بَنـــي البَرشـــاءِ ذُهـــلٍ وَقَيـــسِها وَشَـــيبانَ حَيـــثُ اِســـتَبهَلَتها المَنَاهِـــلُ

في إشارة منه إلى حملات هذا الملك العسكريّة ضدّ القبائل العربيّة في شرقيّ الجزيرة العربيّة (البحرين والعراق)، وهو ما يتفق مع شعر الممزّق العبديّ المقتبس آنفًا، وهو ما يتفق، أيضًا، مع شعر لعبيد بن عبد العزّى السلاميّ، من بني سلامان بن مفرّج، والذي يشير فيه إلى حملات النعمان بن الحارث ضدّ قبائل قيس عيلان وخندف، إذ يقول[٥]:

وَمِنّـــا بَنـــو مـــاءِ الـــسَّماءِ وَمُنـــذِرٌ وَجَفنَـــةُ مِنّـــا وَالقُـــرومُ النَّزايِـــعُ
قَبائِـــلُ مِـــن غَـــسّانَ تَـــسمو بِعـــامِرٍ إِذا اِنتَـــسَبَت وَالأُزدُ بَعـــدُ الجَوامِـــعُ
أَدانَ لَنـــا النُعمـــانُ قَيـــسًا وَخِنـــدَفًا وَلَـــم يَمنَـــع رَبيعَـــةَ مـــانِعُ

(١) انظر، النابغة الذبياني، **الديوان**، ق١: ٣٧–٤١، ق٤: ١–٢، ق٢٧: ١٠–١٣، ق٤٩: ٣.
(٢) وهناك احتمال، بالطبع، أن يكون بعض شعره في النعمان بن الحارث قد قيل حين كان هذا الأخير أعظم المتنفّذين في زمن أبيه، الحارث بن أبي شمر.
(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٣.
(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٢: ١١.
(٥) انظر، ابن المبارك، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، ق٥٠: ٤٤–٤٦.

وهوما يتفق مع ما يؤكده Rothstein [1] من أنّ ملكًا غسانيًّا شنّ غارة مدمّرة على الحيرة سنة ٦٠٠م، كما جاء في بعض الوثائق اللاتينيّة، وهذه الحقيقة التاريخيّة تنسجم مع ما يرجّحه الراميني[2] من أنّ هذا الملك الغسانيّ هو نفسه النعمان بن الحارث الغسانيّ، فقد كان في هذه الفترة على رأس الحكم في الشام، أو على أقل تقدير، كان "ينفّذ مهام حربيّة بالنيابة عن أبيه"، وقد سبق أن أشار نولدكه[3] إلى أنّ النعمان بن الحارث هو الذي قصده المؤرخ "ثيوفلكتوس" حين تحدّث عن غزو قام به عرب الروم على العراق في زمن الصلح أي حوالي سنة٦٠٠م.

أمّا القصائد التي أنشدها النابغة في عمرو بن الحارث فهي تعبّر، في عمومها، عن مرحلة عودة النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، إلى قبيلته، ذبيان، وقد أشار في بعضها إلى المدّة التي قضّاها وقومه في بني عذرة بن سعد، تحت نفوذ آل جفنة، إذ يقول[4]:

أُسائِلُ عَن سُعدى وَقَد مَرَّ بَعدَنا عَلى عَرَصاتِ الدّارِ سَبعٌ كَوامِلُ

وفي موطن آخر يقول[5]:

تَوَهَّمتُ آياتٍ لَها فَعَرَفتُها لِسِتَّةِ أَعوامٍ وَذا العامُ سابِعُ

إذن هي الأعوام السبع التي قضّاها الشاعر بعيدًا عن قبيلته، ذبيان، حيث اتصل خلالها بملوك الغساسنة، ابتداء بالحارث بن أبي شمر، وانتهاء بابنه عمرو.

وهذه القصائد دالة على علاقة متوتّرة بين الشاعر وقبيلته، ذبيان، من جانب، وبين عمرو بن الحارث، من جانب آخر، الأمر الذي يكشف عن السطوة التي مارسها هذا الملك وقائده العسكريّ،

---

(١) مقتبس في، الراميني، أبو قابوس في الشعر القديم، ص٣٥١.
(٢) الراميني، النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة، ص٣٥١.
(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٢.
(٤) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٢: ٣.
(٥) السابق، ق٢: ٣.

النعمان بن الجلاح الكلبيّ، في نزاع الغساسنة مع القبائل العربيّة في نجد، وكذلك القبائل العربيّة في العراق، وهو ما يعكس حالة من الفراغ السياسيّ في هذه المناطق بعد سقوط مملكة الحيرة سنة ٦٠٢/٦٠٤م[١]، كما هو الحال في قصائده ذوات الأرقام: ٣؛ ٩؛ ٢٤؛ ٢٥؛ ٢٦؛ ٣٥؛ ٤٠؛ ٤٦؛ ٥٩؛ ٦٧؛ ٧٣؛ ٧٥.

من جهة أخرى، يمكن الاتكاء على شعر النابغة كمؤشر لتأريخ هذه الفترة، حين كان عمرو ابن الحارث يتسلّم زمام الحكم في الشام. ففي مطلع القصيدة التاسعة، حيث يشير الشاعر إلى أنّه نهى قومه، ذبيان، عن التربّع في وادي "أقر"، الذي كان تحت حمى النعمان بن الحارث[٢]:

لَقَــد نَهَيــتُ بَنــي ذُبيــانَ عَــن أُقُــرٍ وَعَــن تَــرَبُّعِهِم فــي كُــلِّ أَصــفارِ

نجد الشاعر يكشف عن الفترة التي كان فيها بعض بني ذبيان ينتقلون إلى هذا الوادي الخصيب، وهي وقت الربيع[٣]؛ طبعًا سعيًا وراء الماء والكلأ، وكان ذلك في شهر صفر، أي حين كان شهر صفر يأتي في موسم الربيع في ذلك الوقت، وقد تنبّه الراميني[٤] إلى ذلك، مشيرًا إلى أنّ موسم الربيع، في بيت النابغة، يبتدئ عادة في نجد في أواخر كانون الثاني أو أوائل شباط، ويستمرّ حتى أواسط نيسان أو ربّما أواخره، حين يبدأ موسم الجفاف هناك، وبمقابلة التواريخ الهجريّة بالتواريخ الميلادية نجد أنّ شهر صفر كان يأتي في العقد الأول من القرن السابع الميلادي (٦٠١/٦٠٢م

---

(١) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٥٠.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٩: ١.

(٣) التربّع: الإقامة في وقت الربيع (انظر، ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(٧١١هـ)، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١، "ربع").

(٤) الراميني، النابغة الذبياني، ص١٤١.

وسنة ٦٠٨/ ٦٠٩م)[١]. وإذا كان بيت النابغة السابق يشير إلى أن عشائر من ذبيان كانت قد قضّت عددًا من مواسم الربيع في ذي أُقُر، فهذا يحتّم أن تؤرخ قصيدته، التي منها هذا البيت، في أواسط العقد الأول من القرن السابع للميلاد، أو أواخره، وعليه، بات من المؤكد أنّ الملك الغسانيّ الذي وصفه النابغة بـ"اللَيث مُنقَبِضٌ عَلى بَراثِنِه لوثبَةِ الضّاري" هو عمرو بن الحارث، وليس النعمان بن الحارث، كما يُعتقد أحيانًا[٢].

أمّا قصائد النابغة في النعمان بن الجلاح الكلبيّ، القائد العسكريّ لحملات عمرو بن الحارث الغسانيّ على ذبيان وحلفائها، بني أسد، وهي القصائد ذوات الأرقام: ٢٥؛ ٤٠؛ ٧٣، فيمكن القول، بقدر كبير من الثقة، إنّ هذه القصائد هي من نتاج الفترة التي كان عمرو بن الحارث الغسانيّ فيها على رأس الحكم في الشام، ذلك أنّها تتماهى في مضمونها وأسلوبها مع قصائده في عمرو بن الحارث الغسانيّ.

ثالثًا: مرحلة ما بعد اتصال النابغة بالغساسنة.

تدور قصائد النابغة، في هذه المرحلة، حول الاعتداد بالحلف القائم بين بني أسد وذبيان، وهي، في مجملها، تكشف عن المحاولات الرامية لإلغاء هذا الحلف، سواء أكانت هذه المحاولات من قِبل أطراف من ذبيان نفسها، أم من قِبل بني عامر بن صعصعة، كما هو الحال في القصائد ذوات الأرقام: ٥؛ ١١؛ ٢٠، ٢١؛ ٢٣؛ ٣٨؛ ٣٩؛ ٤٧.

---

(١) إنّ أول صفر في موسم الربيع يقع ما بين أوائل نيسان وأوائل أيّار من سنة ٦٠١م، وإنّ آخر صفر في الربيع يقع ما بين أواسط كانون الثاني وأواسط شباط من سنة ٦٠١٩م (انظر، G. S. P. Freemam Grenville, **The Muslim and Christian Calendars**, London, 2nd edition, 1977)

(٢) انظر، مثلًا: الجواليقي، **شرح أدب الكاتب**، ص٢٥١؛ الحمويّ، **معجم البلدان**،"أُقُر"؛ العشماوي، **النابغة الذبياني**، ص٣٩-٤٠.

وأهمّ هذه المحاولات هو ما قام به عيينة بن حصن الفزاريّ لنقض حلف ذبيان (غطفان) مع بني أسد، حين قام بالتصدّي لبني أسد(١):

أَلِكني يا عُيَينَ إِلَيكَ قَولًا   سَأُهديهِ إِلَيكَ إِلَيكَ عَنّي
أَتَخذُلُ ناصِري وَتُعِزُّ عَبسًا   أَيَربوعَ بنَ غَيظٍ لِلمِعَنِّ
إِذا حاوَلتَ في أَسَدٍ فُجورًا   فَإِنّي لَستُ مِنكَ وَلَستَ مِنّي

وفي الأثناء يكشف الشاعر عن تحالف بني أسد وذبيان في يومي النسار والجفار وغيرهما من الأيام(٢):

فَهُم دِرعي الَّتي اِستَلأَمتُ فيها   إِلى يَومِ النِّسارِ وَهُم مِجَنّي
وَهُم وَرَدوا الجِفارَ عَلى تَميمٍ   وَهُم أَصحابُ يَومِ عُكاظَ إِنّي

ينبغي الإشارة، في هذه القصيدة، إلى أمرين مهمين من شأنهما الإسهام في تحديد الإطار الزمني لقصائد النابغة المتعلقة بمحاولات نقض حلف بني أسد وغطفان. أولًا، من المعلوم أنّ رأس القبيلة وسيّدها هو الوحيد المخوّل باتخاذ قرار نقض الحلف وإلغائه، وإشارة النابغة إلى أنّ عيينة بن حصن الفزاريّ هو الذي همّ بنقض الحلف مع بني أسد، تعني أنّ عيينة هذا كان مسوّدًا ليس على ذبيان فحسب، بل على غطفان بأسرها. وتحتفظ المصادر، من جانبها، بما يعزز هذه النتيجة؛ فالبلاذري(٣) يروي أنّ عيينة تولّى قيادة غطفان بناء على وصية لأبيه حصن بن حذيفة الفزاريّ، وهذا ما يؤكده شعر ينسب إلى حصن بن حذيفة نفسه، يقول فيه(٤):

وَلُّوا عُيَينَةَ مِن بَعدي أُمورَكُمُ   وَاِستَيقِنوا أَنَّهُ بَعدي لَكُم حامِ
إِمّا هَلَكتُ فَإِنّي قَد بَنَيتُ لَكُم   عِزَّ الحَياةِ بِما قَدَّمتُ قُدّامي

---

(١) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٣: ٦، ٩، ١٤.
(٢) السابق، ق٢٣: ١٥-١٦.
(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١٧٣-١٧٤.
(٤) السويدي، **شعر قبيلة ذبيان في الجاهلية**، ص٣١٨.

ثانيًا، أشار النابغة إلى يومي النّسار والجفار من بين الأيام التي ساندتهم فيها بنو أسد ضدّ بني عامر بن صعصعة وبني تميم، وهذا يعني أنّ عيينة بن حصن لم يكن مسوّدًا على قومه فيهما، فالأدلة تشير[1] إلى أنّ أباه، حصن بن حذيفة الفزاريّ، هو الذي قاد الأحلاف (غطفان وبني أسد والرّباب وطيء وضبّة) في هذين اليومين، وهو ما يفهم من شعر لزهير بن أبي سلمى[2]:

وَمَــن مِثْــلُ حِــصنٍ فــي الحُــروبِ وَمِثْلُــهُ   لِإنكـــارِ ضَـــيمٍ أَو لِأَمـــرٍ يُحاوِلُـــه
إِذَا حَـــلَّ أَحْيَـــاءُ الأَحَـــالِيفِ حَولَـــهُ   بِـــذي لَجَـــبٍ أَصْـــوَاتُهُ وَصَـــواهِلُه

ويبدو أنّ النابغة نفسه يؤكد معلومات زهير، فيما يخص قيادة حصن بن حذيفة للأحلاف يومي النّسار والجفار، ففي شعر له يتوجه النابغة إلى من يسمّيه "ابن بدر"، حصن بن حذيفة، جاعلًا أهله وناقته فداء له، لما أظهره من بسالة وجرأة في يومي النسار والجفار[3]:

فِــدًى لابــنِ بَــدرٍ نــاقَتي وَنُــسوعُها   وَقَلَّــتْ لَــهُ لا بَــل فِــداءٌ لَــهُ أَهْلِــي
شَــفى وَتَغَلَّــى مِــنْ وَراءِ شِــفَائِها   صُــدورَ رِجــالٍ مِــن حَرارَتِهــا تَغْلِــي
سَــما بِالجِيَــادِ الجُــردِ لا مُتَخَــاذِلًا   وَلا وَاهِنًــا جَلْــدَ القُــوَى مَــرِسَ الحَبْــلِ
فَلَمَّــا اِســتَهَلَّتْ بِالنِّــسارِ سَــحابَةٌ   تُــشَبِّهُها رِجْــلَ الجَــرَادِ مِــنَ النَّبْــلِ
أَبَــوْا أَن يُقِيمــوا لِلرِّمَــاحِ وَوخَّــشَتْ   شَــغَارِ وَأَعْطَــوْا مُنْيَــةً كُــلَّ ذي ذَحْــلِ
فَمــا غَنِمــوا يَــومَ الجِفَــارِ وَمَــا وَنَــت   فَوارِسُــنا إِذ أَبْــصَروا عَــوْرَةَ الرَّجْــلِ

في الواقع، هناك شعر لبشر بن أبي خازم الأسديّ ورد فيه ذكر لهذا التحالف بين بني أسد وذبيان وقبائل أخرى، في هذين اليومين، ضدّ بني دارم التميميين وحلفائهم، بني عامر بن صعصعة، يقول فيه[4]:

---

(١) انظر، شمس الدين، إبراهيم، **مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢، ٨٩-٩١.

(٢) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق٧: ٤٢، ٤٥.

(٣) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٥٠: ١-٦.

(٤) بشر بن أبي خازم الأسدي، **الديوان**، ق٣٩: ١٦-١٨.

وَيَـــومُ النِّــسارِ وَيَـــومُ الجِفــا ... رِ كانـــا عَـــذابًا وَكانـــا غَرامــا
فَأَمّــا تَمـــيمٌ تَمـــيمُ بـــنُ مُـــرٍّ ... فَأَلفـــاهُمُ القَـــومُ رَوبـــى نِيامـــا
وَأَمّـــا بَنـــو عـــامِرٍ بِالنِّـــسارِ ... غَـــداةَ لَقونـــا فَكـــانوا نَعامـــا

وكذلك يشير عبيد بن الأبرص، من جانبه، إلى هزيمة كلّ من بني دارم وبني عامر على يدي بني أسد وذبيان، في هذين اليومين(١):

وَلَقَـــد شَـــبَبنا بِالجِفـــارِ لِـــدارِمٍ ... نـــارًا بِهـــا طَيـــرُ الأَشـــائِمِ يَنعَـــبُ
وَلَقَـــد تَقَـــادَمَ بِالنِّـــسارِ لِعـــامِرٍ ... يَـــومٌ لَهُـــم مِنّـــا هُنـــاكَ عَصَبـــصَبُ

ويوما النّسار والجفار، وفقًا لدراسة حديثة(٢)، وقعا تباعًا بعد زمن قصير من يوم جبلة المشهور في نهاية القرن السادس للميلاد، ومادام النابغة يشير إلى عيينة كسيّد على غطفان فهذا يعني أنّ محاولة نقض الحلف مع بني أسد حدثت بعد أن عاد النابغة وقومه، بنو يربوع بن غيظ، إلى قبيلته الأم، ذبيان، بعد أن سوّوا خلافاتهم معهم، تاركين ولاءهم للغساسنة.

في الحقيقة، لا يوجد في المصادر، ولا في الشعر الجاهليّ، ما يدلّ على أنّ خلافًا وقع بين بني أسد وذبيان/غطفان، بل على النقيض تمامًا، فكلّ الأدلة تشير إلى وجود حلف وثيق بينهما، حتى أنّهما كانتا تسميان بالأحلاف؛ لما بينهما من تناصر وتعاضد(٣)، وهذا ما يؤكّده شعر زهير ابن أبي سلمى المقتبس آنفًا، في معرض حديثه عن شروط الصلح بين بني عبس وذبيان(٤):

فَمَـن مُبلِـغُ الأَحـلافِ عَنّـي رِسـالَةً ... وَذُبيـانَ هَـل أَقـسَمتُمُ كُـلَّ مُقـسَمِ

---

(١) عبيد بن الأبرص، **الديوان**، ق٤: ١٨-١٩.
(٢) الراميني، حجر بن أم قطام، ص١٧٣.
(٣) كحالة، **معجم قبائل العرب**، ج١: ص٨.
(٤) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ٢٦.

وفي ذات السياق، يشير زهير، في موطن آخر، إلى أنّ ما قام به سادة بني مرّة، من دفع للديّات لبني عبس وذبيان، لإنهاء الصراع بين الطرفين، هو في حقيقة الأمر من باب المحافظة على مكانة الأحلاف بين القبائل[(١)]:

تَـداركتُما الأَحـلافَ قَـد ثُـلَّ عَرشُـها وَذُبيـانَ قَـد زَلَّـت بِأَقـدامِها النَّعـلُ

أما محاولات بني عامر بن صعصعة الفاشلة لنقض حلف بني أسد وذبيان فيكشف عنها النابغة في القصائد ذوات الأرقام: ٥؛ ١١؛ ١٢؛ ٢٠؛ ٢١؛ ٣٨؛ ٣٩؛ ٤٧، ومن بين هذه المحاولات محاولة لعامر بن الطفيل، التي سبق الإشارة إليها في ملاحاة شعريّة بينه وبين النابغة.

فالنابغة، حين يردّ على عامر بن الطفيل، يشير إلى سفاهته وطيشه وجهله، مذكّرًا إيّاه بما أصابه في يوم "حِسي"[(٢)]:

فَـإِنْ يَـكُ عَـامِرٌ قَـدْ قَـالَ جَهْـلًا فَـإِنَّ مَظِنَّـةَ الجَهْـلِ الشَّبَابُ
فَكُـنْ كَأَبِيـكَ أَو كَـأَبي بَـراءٍ تُوافِقْـكَ الحُكُومَـةُ وَالصَّوابُ
وَلا تَـذْهَبْ بِحِلمِـكَ طَامِيـاتٌ مِـنَ الخُـيَلاءِ لَـيسَ لَهُـنَّ بَـابُ
فَإِنَّـكَ سَـوْفَ تَحلُـمُ أَو تَنَـاهَى إِذَا مَـا شِـبْتَ أَو شَـابَ الغُـرابُ
فَـإِن تَكُـنِ الفَـوارِسُ يَـومَ حِـسيٍ أَصـابوا مِـن لِقائِـكَ مـا أَصـابوا
فَمَـا إِن كـانَ مِـن نَـسَبٍ بَعيـدٍ وَلَكِـن أَدرَكـوكَ وَهُـم غِـضابُ
فَـوارِسُ مِـن مَنولَـةَ غَيـرُ ميـلٍ وَمُـرَّةَ فَـوقَ جَمعِهِـمُ العُقَـابُ

والظاهر أنّ يوم "حِسي"، الذي يذكره النابغة هنا، هو غير يوم "حِسي" الذي كان بين ذبيان وبني عبس فيما مضى من أيام داحس والغبراء[(٣)]، وما يعزّز هذا الرأي أنّ عامر بن الطفيل لم يكن قد

---

(١) السابق، ق٥: ٣٠.

(٢) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٢٠: ١–٧.

(٣) انظر، مثلًا: ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج٦: ٢٠–٢١؛ ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني الأزديّ(٤٥٦هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل،١٩٨١، ج٢: ص١٧١.

شهد أيام داحس والغبراء منذ بواكيرها[١]، على الأقل، هذا ما يمكن فهمه من البيت الأول من شعر النابغة السابق؛ فعبارة "فَإِنَّ مَظِنَّةَ الجَهْلِ الشَّبَابُ" توحي بأنّ عامرًا هذا كان زمن هذه الملاحاة الشعريّة شابًّا، وهذا يؤكّد عدم معاصرته ليوم "حسي" الذي كان بين ذبيان وبني عبس، فضلًا عن عدم اشتراكه فيه.

من جهة أخرى، فإنّ يوم "حِسي" الثاني، إن جاز تسميته بذلك، وقع عشيّة البعثة النبويّة؛ فالثابت أنّ عامر بن الطفيل أدرك النبي، ، ولكنّه لم يسلم[٢]، وعليه بات من المؤكّد أنّ هذه القصيدة هي من نتاج هذه الفترة، الأمر الذي يصدق على جميع قصائد النابغة التي تدور في الفلك نفسه.

وهكذا، يمكن القول إنّ شعر النابغة إنّما هو من نتاج الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بزمن قليل؛ فجميع الرجال المذكورين في شعره، سواء الذين اتصل بهم أم عاصرهم، هم في الواقع، ممّن ظهروا على مسرح الأحداث في أواخر القرن السادس للميلاد، أو بعد ذلك، فقد ثبت أن ممدوحيه الذين اتصل بهم من ملوك الغساسنة: الحارث بن أبي شمر وولديه النعمان وعمرو حكموا على التوالي من سنة ٥٨٣م إلى سنة ٦١٤م[٣]، أما الرجال الذين عاصرهم، وورد ذكرهم في شعره، فهم: حصن بن حذيفة بن بدر الفزاريّ وابنه عيينة، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة المريّ وأخواه هرم وخارجة، وعمّه عوف بن أبي حارثة المريّ، والحارثان: الحارث بن عوف بن أبي حارثة، والحارث ابن ظالم المريّ، وهاشم بن حرملة، ومالك بن خمار، وحُزيم بن سيّار بن عمرو وأخوه زبّان، وهؤلاء جميعًا من غطفان، وربيعة بن حذار بن مرّة وأخوه بدر، وهما من بني دودان من بني أسد،

(١) كيوم المريقب، ويوم حسي، ويوم اليعمريّة، ويوم الهباءة، ويوم الفروق، وغيرها من أيام داحس والغبراء (انظر، مثلًا، ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٢٠-٢٤).
(٢) انظر: ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج٣: ص٥٨٤.
(٣) نولدكه، **أمراء غسان**، ص٥٧.

ويزيد بن عمرو الصَّعِق وأخوه زرعة، وعامر بن مالك، وأخوه الطفيل، وابن أخيه عامر بن الطفيل، والشاعر المشهور لبيد بن ربيعة، وهؤلاء من بني عامر بن صعصعة.

فحصن بن حذيفة الفزاريّ، كما أشير سابقًا، تولّى قيادة غطفان بعد مقتل والده في يوم الهباءة، في عهد النعمان بن المنذر اللخميّ(١)، وابنه عيينة تولّى قيادة غطفان من بعده(٢)، كما أنّه عاصر النبيّ(٣)، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة المريّ كان ممّن نشط زمن البعثة النبويّة؛ فقد كان أبوه من بين القادة الذين أرسلهم النعمان بن المنذر اللخميّ لقتال بني عامر بن صعصعة في يوم جبلة(٤)، كما أنّه كان معاصرًا لعيينة بن حذيفة الفزاريّ(٥)، وهو ما يصدق على أخويه: هرم وخارجة، وعلى عمّه عوف بن أبي حارثة، وكذلك على ابن عمّه الحارث بن عوف، يضاف إلى ذلك أنّ إحدى بنات هذا الأخير، وتدعى أمامة، قد خطبها النبيّ(٦)، والأمر، أيضًا، لا يختلف بالنسبة للحارث بن ظالم المريّ، فقد سبق الإشارة إلى أنّه عاصر "أبا قابوس"/ الحارث بن أبي شمر الغسانيّ، الذي تولّى الحكم في أواخر القرن السادس للميلاد، أمّا هاشم بن حرملة المريّ فقد أدرك الإسلام، وعاش إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب(٧).

---

(١) ظهر حصن بن حذيفة كزعيم لغطفان غير منازع في يوم جبلة، الذي وقع في أوائل تسعينيات القرن السادس الميلادي (انظر: Ramini, **The Tribe of Tamim and the Origins of the Eally Crisis in the Caliphate**, p39–40).

(٢) فيما يتعلق بشعر حصن بن حذيفة الفزاريّ، حين يشير فيه إلى ضرورة أن يكون عيينة سيدًا على غطفان من بعده (انظر، أعلاه، ص١٥٠).

(٣) فقد شهد فتح مكة ويوم حُنين وحصار الطائف (انظر: ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٤: ص٧٦٧).

(٤) أبو عبيدة، **نقائض جرير والفرزدق**، ج١: ص٩٥.

(٥) السابق، ج٢: ص٣٦٠.

(٦) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٥٢.

(٧) ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٦: ص٥٦٨.

وأمّا مالك بن خمّار فقد شهد يوم جبلة في عهد النعمان بن المنذر اللخميّ، كما أنّ بعض المصادر [1] تذكر مقتله على يد خفاف بن السلميّ، وفي ذلك يقول خفاف[2]:

فَإِن تَكُ خَيلي قَد أُصيبَ صَميمُها فَعَمْدًا عَلى عَينٍ تَيَمَّمتُ مَالِكا
نَصَبْتُ لَهُ عَلْوى وَقَد خانَ صُحبَتي لأبنِيَ مَجدًا أَو لِأَثأَرَ هالِكا
أَقولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يَأطِرُ مَتنَهُ تَأَمَّلْ خُفافًا إنَّنِي أَنا ذَلِكا

وخفاف هذا شهد فتح مكّة، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب[3]، ، وكذلك خزيم وزبّان ولدا سيّار بن عمرو، فإنّ أمرهما غير مختلف عمّن سبق ذكرهم، من كونهما نشطا زمن البعثة، فالمصادر [4] تذكر أنّ زبّان بن سيّار خلّف ابنه منظور على زوجه مليكة بنت خارجة بن سنان المريّ، وفيه نزل قوله تعالى:" وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلًا"[5]، وقد فرّق أبو بكر، ، بينهما، كما أنّه زوّج بناته إلى أبناء صحابة معروفين[6] ويقال إنّه عاش حتى شهد حرب بنات قين، بين بني كلب وبني فزارة، في العصر الأمويّ[7].

وبالنسبة إلى رجلي بني أسد المذكورين في شعر النابغة، وهما ربيعة بن حذار بن مرّة الأسديّ وأخوه بدر، فهما، أيضًا، ممّن نشط زمن البعثة النبويّة، فربيعة ذكره الأعشى بقوله[8]:

وَإِذا أَرَدتَ بِأَرضِ عُكْلٍ نَائِلًا فَاعمِدْ لِبَيتِ رَبيعَةَ بنِ حُذارِ

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص١٣٦.

(٢) ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٢٩-٣٠.

(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١٣: ص٣٠٥.

(٤) ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٦: ص٢٢٠؛ ج٨: ص١٣٤.

(٥) القران الكريم، سورة النساء: آية ٢٢.

(٦) فقد زوجهنّ إلى الحسن بن عليّ، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، والمنذر بن الزبير(انظر، مثلًا، ابن دريد، **الاشتقاق**، ص٢٨٣).

(٧) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٥٨.

(٨) الأعشى، **كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير**، ق٣٧: ١.

والأعشى ينتمي إلى زمن البعثة النبويّة. وتذكر المصادر(١)، أيضًا، أنّ خالد بن مالك النهشليّ والقعقاع بن معبد بن زرارة التميميّ تنافرا إليه، وهذا الرجلان ممّن أدرك الإسلام ووفد على النبيّ، ، يضاف إلى ذلك أنّ بعض الروايات(٢) تجمع بينه وبين كلّ من الزبرقان بن بدر السعديّ، وعمرو بن الأهتم، وهذان صحبا النبيّ(٣)، ، وشاركا في الفتوحات الإسلاميّة.

ورجال بني عامر بن صعصعة لا يختلفون عمّن سبق ذكرهم، فيزيد بن عمرو الصعق، كما تشير المصادر(٤)، عاصر النعمان بن المنذر اللخميّ، وكان بينهما عداء، وقد ظهر هذا العداء في الهجمات التي شنّها يزيد على قوافل النعمان المتجهة إلى سوق عكاظ، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ ابنه معاذ بن يزيد أدرك الإسلام، وشهد حروب الردّة(٥)، وله ابنة تدعى أمامة عاشت إلى زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان(٦). كما أنّ عامر بن الطفيل أدرك النبيّ، ، ووفد عليه(٧)، ولكنّه لم يسلم، أمّا عمّه عامر بن مالك فقد قدم على النبيّ، ، وهو بتبوك، وعرض عليه هديّة، ولنكّه لم يقبلها منه(٨).

في الواقع، تشير جميع الأدلة إلى أنّ الرجال المذكورين في شعر النابغة هم ممّن شهد يوم جبلة أو مقدماته، في أواخر القرن السادس الميلاديّ، وأنّهم عاشوا عشيّة مبعث النبيّ، ، وأنّ كثيرًا منهم شهد انتشار الإسلام في الجزيرة العربيّة.

---

(١) ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٢: ص٢٤٩.

(٢) انظر، مثلًا، الأصفهاني، **الأغاني**، ج٢١: ص١٤٥.

(٣) ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٢: ص٥٥٠، ٦٤٥.

(٤) انظر: ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، ج٦: ص٤١.

(٥) ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٦: ص٣٠١.

(٦) السابق، ج ١: ص٢٦.

(٧) السابق، ج ٣: ص٥٨٤.

(٨) السابق، ج ٣: ص٥٩٩.

وبناء على ما سبق، فإنّ النابغة الذبيانيّ، هو الآخر، ينتمي إلى جيل البعثة النبويّة، ومن المرجّح أن تكون وفاته في آخر العقد الأول من القرن السابع، أو أوائل العقد الثاني من القرن نفسه، وليس بعد ذلك، فقد عاصر سقوط مملكة الحيرة سنة ٦٠٢/٦٠٤م، ولقي حتفه وعمرو بن الحارث الغسانيّ ما يزال على رأس الحكم في الشام[١]، وهو ما يتعارض مع ما ذهب إليه بعض الباحثين[٢]، حين رأوا أنّ النابغة مات قبل أن تضع حرب داحس والغبراء أوزارها، مستدلين على ذلك بأنّ الشاعر لم يقل شعرًا في الصلح الذي تمّ بين بني عبس وذبيان لإنهاء الصراع بين الطرفين، لكنّ هذا الرأي يحتاج إلى إعادة نظر، وخاصة أنّ الشاعر مدح في القصيدة السبعين سادة من بني مرّة بوصفهم كفلاء الصلح، ولهذا تحمّلوا ديّات القتلى من الطرفين؛ حقنًا للدماء، وهو ما يؤكّده شعر زهير بن أبي سلمى[٣]، وعلى ما يبدو أنّ هذه القصيدة لم تكن متاحة للبعض حتى يصدر مثل هذا الحكم، ثمّ على فرض أنّه لا يوجد في ديوان النابغة ما يشير إلى المصالحة بين بني عبس وذبيان، فإنّ ذلك لا يعني، بالضرورة، أنّ الشاعر لم يقل شعرًا في هذه المناسبة، فنحن نعرف أنّ أكثر أشعار الجاهليين لم تصل إلينا، فمن المحتمل جدًا أنّ الشاعر أنشأ شعرًا في هذه المناسبة، ولكنّه ضاع كما ضاعت غيره من الأشعار سواء للنابغة أم لغيره من الشعراء الجاهليين.

على أيّة حال، هناك دليل قويّ على أنّ النابغة شهد نهاية هذه الحرب، فأغلب شعره (قصائده في الغساسنة، وفي بني عامر بن صعصعة) أنشده بعد أنّ تمّ الصلح، أضف إلى ذلك أنّ الخلاف بين بني يربوع بن غيظ، قوم الشاعر، وبين بني مرّة ومن ناصرهم من ذبيان وقع بسبب هذا

---

(١) يرى نولدكه أنّ عمرو بن الحارث حكم حتى سنة ٦١٤م (انظر: نولدكه، **أمراء غسان**، ص٥٧).

(٢) البياتيّ، عادل جاسم، **الشعر في حرب داحس والغبراء**، النجف: مطبعة الآداب، ١٩٧٦، ص٤٠٢.

(٣) حيث يمدح زهير الحارث بن عوف وهرم بن سنان لسعيهما في الحمالة (ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ق١: ١٦-١٨).

الصلح، والذي أفضى إلى تحالف بني مرّة بما يعرف بحلف "المحاش" ضدّ النابغة وقومه، بني يربوع بن غيظ، ومن هنا كانت بداية القطيعة بين الشاعر والحيرة، فضلًا عن قبيلته، ذبيان، واتصاله بالغساسنة، إذن هناك أساس قويّ للاعتقاد بأنّ النابغة حضر نهاية حرب داحس والغبراء، بل وعاش بعد ذلك ما يزيد على عقد من الزمان، كما يوحي شعره الذي يشير فيه إلى عودته إلى قبيلته، ذبيان، بعد أن قضّى سبعة أعوام بعيدًا عنهم، في إشارة منه إلى المدة التي اتصل خلالها بالغساسنة، بعد نفيه وقومه عن القبيلة.

رابعًا: ترتيب القصائد.

الآن، وفي ضوء المناقشة السابقة للمراحل الزمنيّة لشعر النابغة، التي تمّ تأطيرها في ثلاث مراحل أساسية، يمكن إعادة ترتيب قصائد ديوان الشاعر[١]، وهنا، سيكتفى بذكر مطالع قصائد النابغة كما وردت في نسخة ديوانه للمحقق محمد أبو الفضل إبراهيم، مع الإشارة إلى رقم القصيدة حسب ترتيبها الزمنيّ، إضافة إلى الإشارة إلى رقمها حسب ترتيبها في نسخة الديوان في الحاشية.

والترتيب الزمنيّ لقصائد النابغة يجري على النحو الآتي:

أولًا: القصائد التي أنشدها الشاعر قبل اتصاله بالغساسنة.

وتشمل القصائد التي أنشدها في:

أ. مفارقة بني عبس لقبيلة غطفان.

١ (الحادية والسبعون)

لَا تُرْهِبِنِّـــي بِقَـــوْمٍ وَانْظُـــرِي نَفَـــرِي هَـلْ مِثْـلُ وَاحِـدِهِمْ مِـنْ مَعْـشَرٍ رَجُـلُ[٢]

---

(١) سبق الإشارة إلى أنّ الباحث يعتمد في بحثه هذا على نسخة من ديوان النابغة الذبيانيّ للمحقّق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) وقد قالها النابغة في حمل بن بدر الفزاريّ، وأغلب الظنّ أنها من أوائل قصائده التي وصلت إلينا؛ فمن المعروف أنّ مقتل حمل بن بدر كان على أيدي بني عبس، الأمر الذي أشعل نار حرب داحس والغبراء.

٢ (السابعة عشرة)

أَبلِـــغْ بَنِـــي ذُبْيَـــانَ أَنْ لا أَخَـــا لَهُـــمْ بِعَـــبْسٍ إِذَا حَلُّـــوا الـــدِّماخَ فَأَظْلَمـــا

٣ (الرابعة والخمسون)

جَـزَى اللهُ عَبْـسًا فِـي المَـواطِنِ كُلِّهـا جَـزَاءَ الكِـلاَبِ العَاوِيَـاتِ وَقَـدْ فَعَـلْ

٤ (الثانية والسبعون)

أَلا أَبلِـــغ لَـــدَيكَ أَبـــا حُرَيـــثٍ وَعاقِبَـــةُ المَلامَـــةِ لِلمُلـــيمِ

ب. عودة بني عبس لقبيلة غطفان.

وما أسفرت عنه من مصالحة بين بني عبس وذبيان، وانشقاق بني يربوع بن غيظ، رهط النابغة، عن ذبيان، وتردّي العلاقة بين النابغة والحيرة.

٥ (السبعون)

إنَّـــا نُقَـــدِّمُ لِلْفَخَـــارِ ثَلاثَـــةً هَرِمًـــا وَعَوْفًـــا عَمَّـــهُ وَسِـــنَانَا

٦ (السادسة عشرة)

جَمِّـع مِحاشَـكَ يـا يَزيـدُ فَـإِنَّني أَعـدَدتُ يَربوعًـا لَكُـم وَتَميمَـا

٧(الثامنة والعشرون)

ألا أَبلِغـــا ذُبيـــانَ عَنّـــي رِســـالَةً فَقَـد أَصـبَحَت عَـن مَـنهَجِ الحَـقِّ جـائِرَهْ

٨ (الخامسة والخمسون)

صَـبرًا بَغـيضَ بـنِ رَيـثٍ إِنَّهـا رَحِـمٌ حُبِـتُم بِهـا فَأَنـاخَتكُم بِجَعجـاعِ

٩ (السادسة)

بانَـت سُـعادُ وَأَمْـسَى حَبْلُهَـا انِجَـذَما وَاِحتَلَّـتِ الـشَّرْعَ فَـالأَجْزَاعَ مِـنْ إِضَـمَا

١٠ (الثانية والستون)

أَسَـــــائِلَتِي سَـــــفَاهَتَها وَجَهْـــــلًا عَلَـــى الهِجْـــرَانِ أُخْـــتَ بَنِـــي شِهَـــابِ

١١ (الحادية والستون)

إِنَّـــا أُنَـــاسٌ لَاحِقُـــونَ بأَرْضِـــنا فَـــالْحَقْ بِأَرْضِـــكَ خَـــارِجَ بـــنَ سِـــنَانِ

١٢ (الثامنة والستون)

أَبْلِـــغْ بَنِـــي بَـــدْرٍ فَكُـــلُّ صَـــدِيْقِهِمْ لَهُـــمْ أَنْ يُـــسَامُوا المُنْـــدِيَاتِ غِـــضَابُ

١٣ (السادسة والثلاثون)

حَـــدِّثوني بَنِـــي الـــشَقيقَةِ مَـــا يَمـــ ـــــنَعُ فَقعًـــا بِقَرقَـــرٍ أَن يَـــزولَا

١٤ (الثامنة والأربعون)

تَـــسَفَّهُوا جَلَمًـــا عَـــنْ طَفْلَـــةٍ رُؤُدٍ حَتَّـــى تقَمَّمَهَـــا الكَـــرَّازُ ذُو الحَلَـــمِ[١]

١٥ (الثالثة عشرة)

أَمِـــن آلِ مَيَّـــةَ رائِـــحٌ أَو مُغتَـــدِ عَجـــلانَ ذا زادٍ وَغَيـــرَ مُـــزَوَّدِ[٢]

١٦ (التاسعة والعشرون)

وَدِّع أُمامَـــةَ وَالتَوديـــعُ تَعْـــذيرُ وَمـــا وَداعُـــكَ مَـــن قَفَّـــت بِـــهِ العيـــرُ[٣]

١٧ (الثالثة والستون)

وَدِّعْ أُمَامَـــةَ إِنْ أَرَدْتَ رَوَاحَـــا وَطَوَيْـــتَ كَـــشْحًا دُوْنَهـــمْ وَجَنَاحَـــا[٤]

---

(١) أغلب الظنّ أنّها أنشدت في زوج المتجرّدة، بعد أن ساءت علاقة الشاعر بالحيرة.

(٢) وقد قيلت في المتجرّدة.

(٣) الأرجح أنّ النابغة قالها حين فارق قومه ذبيان بسبب "المحاش"، والتحق ببني عذرة في أعالي الحجاز.

(٤) يبدو أنّ هذه القصيدة قيلت في مفارقة الشاعر لأهله بسبب "المحاش"؛ فمضمونها يشبه القصيدة السابقة.

ثانيًا: القصائد التي أنشدها الشاعر في الغساسنة.

وتشمل القصائد التي أنشدها في:

أ. عهد الحارث الأصغر بن أبي شمر.

١٨ (الأولى، الأبيات ٤١-٤٩)

أُنبئِتُ أَنَّ أَبا قابوسَ أَوعَدَني ولا قَرارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ[١]

١٩ (الثانية)

عَفا ذو حُسىً مِن فَرْتَنَى فَالفَوارِعُ فَجَنْبا أَرِيكٍ فَالتِّلاعُ الدَّوافِعُ

٢٠ (الثامنة)

أَتاني أَبَيتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمتَني وَتِلكَ الَّتي أُهْتَمُّ مِنها وَأَنْصَبُ

٢١(السابعة والثلاثون)

أَبْلِغْ لَدَيْكَ أَبا قَابُوسَ مَأْلَكَةً الوَاهِبَ الخَيْلِ والقَيْنَات والنّعَمَا

٢٢(الرابعة والثلاثون)

وَاللهِ وَاللهِ لَنِعمَ الفَتَى الـ أَعْرَجُ لا النِّكْسُ وَلا الخَامِلُ

٢٣ (الثامنة عشرة)

أَلَم أُقسِمِ عَلَيكَ لِتُخبِرَنّي أَمَحمولٌ عَلَى النَّعْشِ الهُمامُ

٢٤(الثانية والثلاثون)

قُلْ لِلهُمامِ وخَيرُ القَولِ أَصدقُهُ وَالدّهرُ يُومِضُ بعدَ الحَالِ بِالحَالِ

٢٥ (السابعة والخمسون)

إنَّ امرءًا يَرجو الخُلُودَ وَقَدْ رَأَى سَريرَ أَبي قَابُوسَ يُغْدى بِهِ عَجَزْ

---

(١) الأرجح أنّ هذه الأبيات قصيدة مستقلة بذاتها، وقد أُلحقت بالمعلقة، فبدا "النعمان" هو نفسه "أبا قابوس".

٢٦ (الخمسون)

فِـــدًى لابـــنِ بَـــدرٍ نـــاقَتي وَنُـــسوعُها   وَقَلَّـــتْ لَـــهُ لا بَـــل فِـــداءٌ لَـــهُ أَهْلِـــي[١]

ب. عهد النعمان بن الحارث الأصغر بن أبي شمر.

٢٧ (الثانية والأربعون)

فِـدًى لِبَنِـي حَـيِّ بـنِ رِعْـلٍ حَمُـولَتِي   غَـدَاةَ قُتَـادِ أَو فِـدًى لَهُـمُ أَهْلِـي[٢]

٢٨ (الرابعة والسبعون)

طَـــوَى كَـــشْحًا خَلِيلُـــكَ وَالجَنَاحَـــا   لِبَـــيْنٍ مِنْـــكَ ثُـــمَّ غَـــدَا صُـــرَاحا[٣]

٢٩ (الستون)

فَأَعْمَلْتُهَـــا وَالكُـــورُ يُنْبِيـــهِ تَامِـــكٌ   لَهَـــا قَـــرَدٌ وَالعَـــنْسُ كَـــالرُّجِّ بَـــادِنُ

٣٠ (الأولى)

يـــا دارَ مَيَّـــةَ بِالعَليـــاءِ فَالـــسَّنَدِ   أَقْـــوَتْ وَطَـــالَ عَلَيها سَـــالِفُ الأَبَـــدِ

٣١ (السابعة والعشرون)

أَمِـــن ظَلّامَـــةَ الـــدِّمَنُ البَـــوالي   بِمُـــرفَضِّ الحُبَـــيِّ إِلَـــى وُعَـــالِ

(١) الأرجح أنّ هذه القصيدة قيلت في حصن بن حذيفة بن بد الفزاريّ الذي قاد ذبيان وحلفاءها في يومي النسار والجفار.

(٢) يبدو أن هذه القصيدة قيلت في يوم الدفينة، حين التقت بنو تميم ببني رعل، من بني سليم، وأغلب الظن أنّ ذلك وقع قريبًا من يومي النسار والجفار، عندما دخلت بنو تميم في حلف مع بني كلاب، من بني عامر بن صعصعة.

(٣) الأرجح أنّ هذه القصيدة قيلت في بني تميم، وتحديدًا في بني فقيم، عندما أرادوا غزو بني رعل، من بني سليم، فأوقع بهم بنو رعل خسائر فادحة، وأغلب الظنّ أنّها أنشدت بين يدي النعمان بن الحارث الغساني.

٣٢ (التاسعة والأربعون)

لَعَمْـرِي لَقَـدْ حَـاذَرْتُ فِـي الغَـزْوِ مُـدْلِجًا   وَفِـي الحَـيِّ عَمَّـا لَـسْتَ عَنْـهُ بِمُـنْجِمِ

٣٣ (الرابعة)

إِنّـي كَـأَنّي لَـدَى النُّعمـانِ خَبَّـرَهُ   بَعـضُ الأُوُدَّ حَـديثًا غَيـرَ مَكـذوبِ

٣٤ (الرابعة عشرة)

لَقَـد قُلـتُ لِلنُّعْمَـانِ يَـوْمَ لَقيتُـهُ   يُريـدُ بَنـي حُـنٍّ بِبُرقَـةِ صَـادِرِ

٣٥ (الثامنة والخمسون)

وَيْـلُ أُمِّ خُلَّـةِ مَاجِـدٍ آخَيْتُـهُ   كَـانَ ابـنَ أَشْـفَةَ غَيْـرَ قِيـلِ البَاطِـلِ(١)

٣٦ (الثالثة والثلاثون)

هَـذا غُـلامٌ حَـسَنٌ وَجهَـهُ   مُـستَقبِلُ الخَيْـرِ سَـريعُ التَّمَـامِ

٣٧ (الحادية والثلاثون)

للهِ عَيْنَـا مَـنْ رَأى أَهْـلَ قُبَّـةٍ   أَضَـرَّ لِمَـنْ عَـادَى وَأَكْثَـرَ نَافِعَـا(٢)

٣٨(التاسعة والستون)

تَخِـفُّ الأَرْضُ إن بِنْـتَ عَنْهَـا   وَيُعْنَـى مَـا حَيِيـتَ بِهَـا ثَقِـيلَا(٣)

٣٩ (الثانية والخمسون)

أَبْقَيْـتَ فِـي العَبْـسِيِّ فَـضْلَا وَنِعْمَـةً   وَمَحْمَـدَةً مِـنَ البَاقِيَـاتِ المَحَامِـدِ(١)

---

(١) يبدو أنّ النابغة قالها في مدح رجل من بني حُنّ، من بني عذرة بن سعد، حين أراد النعمان بن الحارث غزوهم.

(٢) يبدو أنّ هذه القصيدة قيلت في مدح النعمان بن الحارث الغسانيّ، فعلى الأرجح أنّ ابن سلمى الذي يذكره النابغة، هنا، هو نفسه النعمان بن الحارث الذي يذكره حسان بن ثابت (انظر: حسان بن ثابت، **الديوان**، ق٢: ١٤، ق٥: ١٠، ق٧: ٩؛ قارن: نولدكه، **أمراء غسان**، ص٤٧)

(٣) الأرجح أن النابغة قالها في مدح النعمان بن الحارث.

٤٠ (السابعة)

كَتَمتُكَ لَيلًا بِالجَمُومَينِ ساهِرا وَهَمَّينِ هَمًّا مُستَكِنًّا وَظاهِرا

٤١ (التاسعة عشرة)

وَإِن يَرجِعِ النُّعمانُ نَفرَح وَنَبتَهِج وَيَأتِ مَعَدًّا مُلكُها وَرَبيعُها

٤٢ (الثانية والعشرون)

دَعاكَ الهَوَى وَاستَجْهَلَتْكَ المَنازِلُ وَكَيفَ تَصَابي المَرْءَ وَالشَّيبُ شامِلُ

جـ. عهد عمرو بن الحارث الأصغر بن أبي شمر وقائده العسكريّ، النعمان بن الجلاح الكلبيّ.

٤٣ (الثالثة)

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِبِ وَلَيلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

٤٤ (الحادية والخمسون)

لا يَهنِئُ النَّاسَ مَا يَرْعَوْنَ مِن كَلَإٍ وَمَا يَسُوقُونَ مِنْ أَهْلٍ وَمِنْ مَالِ(٢)

٤٥ (الخامسة عشرة)

لا يُبعِدُ اللهُ جِيرانًا تَرَكتُهُمُ مِثلَ المَصابيحِ تَجلو لَيلَةَ الظُّلَمِ

٤٦ (التاسعة)

لَقَد نَهَيتُ بَني ذُبيانَ عَن أُقُرٍ وَعَن تَرَبُّعِهِم في كُلِّ أَصْفارِ

---

(١) يبدو أنّ هذه الأبيات قالها النابغة في مدح النعمان بن الحارث الغسانيّ، عندما وفد على هذا الأخير وفد من العرب، ومن بينهم رجل يسمى "شقيق"، من بني عبس، فمات الرجل عند النعمان، فأرسل إلى أهله بمثل ما حبا الوفد من العطايا.

(٢) من الواضح أنّ النابغة قالها في رثاء أخ له من أمّه "عاتكة"، الذي مات في الشام بعيدًا عن قومه، حين كان النابغة وقومه في كنف الغساسنة.

٤٧ (الخامسة والستون)

عَوجــوا فَحَيُّــوا لِــنُعمٍ دِمنَـــةَ الــدَّارِ   مــــاذا تحُيَــُّــون َمِـــن ْنـُــؤيٍ وَأَحْجَـــارِ[١]

٤٨ (الثالثة والسبعون)

أَصَــاحِ تَــرَى بَرْقًــا أُرِيــكَ وَمِيــضَهُ   يُـــضِيءُ سَـــنَاهُ عَـــنْ رُكَـــامٍ مُنَـــضَّدِ

٤٩ (الثلاثون)

ظَلَلْنَـــا بِبُرْقَـــاءِ اللُّهَـــيْمِ تَلُفُّنَـــا   قَبُـــولٌ نَكَـــادُ مِـــنْ ظَلَالَتِهـــا نُمْـــسِي[٢]

٥٠ (الرابعة والستون)

أَمَـــا لَعَمْـــرِي لَقَـــدْ أَهْـــدَى أَبُـــو حَمَـــقٍ   إِلَـــى كِنَانَـــةَ شَـــرًّا غَيْـــرَ مُنْـــصَرِمِ[٣]

٥١ (العاشرة)

أَلا مَـــــن مُبلِـــــغٌ عَنّـــــي خُزَيمًـــــا   وَزَبّـــانِ الَّـــذي لَـــم يَـــرعَ صِـــهري

٥٢ (الخامسة والعشرون)

أَهاجَــكَ مِــن سُــعداكَ مَغنــى المَعاهِــدِ   بِرَوضَـــةِ نُعمِـــيٍّ فَـــذاتِ الأَسَـــاوِدِ

٥٣ (الحادية والأربعون)

لَقَــدْ لَحِقَــتْ بِــأُولَى الخَيْــلِ تَحْمِلُنِــي   كَبْـــدَاءُ لَا شَـــنَجٌ وَلَا طَنَـــبُ[٤]

---

(١) يبدو أنّ هذه القصيدة قيلت في غزوة لعمرو بن الحارث على "ذي أُقر"، فالأرجح أنّها أنشدت بعد القصيدة السابقة؛ فالقصيدتان تتشابهان في الوزن والموضوع.

(٢) يبدو أنّ الشاعر قالها يصف ما أصاب قومه من القتل والأسر، لمّا التقوا مع بني كنانة، وعلى الأرجح أنّ ذلك وقع خلال غارات عمرو بن الحارث الغسانيّ وقائده العسكريّ، النعمان بن الجلاح، على قوم النابغة؛ فقد كانت كتائب من قضاعة في جيش عمرو بن الحارث، ترتدي دروعًا من الحديد، كما يفهم من شعر آخر للنابغة (النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٩: ١٠-١١، ق٢٦: ٢٥-٢٧)

(٣) يبدو أنّ قيلت في وصف حماقة بعض بني كنانة، وذلك عندما أرادوا التمرد على جيش عمرو بن الحارث، بعد أن كانوا جزءًا منه، والواضح أنّ هذا التأنيب كان ردًّا على ما قدّموه من مساعدة لجيش عمرو بن الحارث بقيادة النعمان بن الجلاح في غزوه لأحياء من ذبيان في "أُقُر".

(٤) الأرجح أنّ الشاعر قالها حين أسرع إلى عمرو بن الحارث؛ يريد إطلاق سراح الأسرى والسبايا من قومه.

٥٤ (السادسة والخمسون)

تَطَـــاوَحُ أَمْـــرَ عَنْجَـــدَةَ المَنَايَـــا فمـــا أدري أتنجـــد أم تغـــور[١]

٥٥ (السادسة والستون)

وَقَائِلَـــةٍ مِـــنْ أَمَّهَـــا وَاهْتَـــدَى لَهَـــا زِيَـــادُ بـــنُ عَمْـــرٍو أَمَّهَـــا وَاهْتَـــدَى لَهَـــا[٢]

٥٦ (الأربعون)

شَـــكَرْتُ لَـــكَ النُّعْمَـــى فَأَثْنَيـــتُ جَاهِـــدًا وَعَطَّلْـــتُ أَعْـــرَاضَ العُبَيـــدِ بـــنِ عَـــامِرِ

٥٧ (الرابعة والعشرون)

أَتارِكَـــــةٌ تَـــــدَلَّلَهَا قَطَـــامِ وَضَـــنًّا بِالتَحِيَّـــةِ وَالكَـــلامِ

٥٨ (الثالثة والأربعون)

تَـشْكُو العَـضَارِيطُ مِـنْ عَـوْذَى وَمِـنْ عَمَـمٍ أَجْـنَ المِيَـاهِ وَقَـدْ جَـاوَزْنَ أُوْرَالَا[٣]

٥٩ (السادسة والعشرون)

أَهاجَـكَ مِـن أَسـماءَ رَسـمُ المَنـازِلِ بِرَوضَـةِ نُعمِـيٍّ فَـذاتِ الأَجـاوِلِ

٦٠ (التاسعة والخمسون)

إِنِّـي أَظُـنُّ ابـنَ هِنـدٍ غَيْـرَ تَـارِكِكُمْ بِـالقُرْنَتَيْنِ وَلَمَّـا تَفْـزَعِ الـنَّعَمُ

---

(١) يبدو أنّه قاله حين وقعت ابنة عمّه "عنجدة" في الأسر، في غارة لابن الجلاح على ذبيان.

(٢) الأرجح أنّها قيلت في وقعة بين ذبيان وطيء، في زمن عمرو بن الحارث الغسانيّ، فبنو جديلة، أحد فرعي طيء (انظر، الراميني، الارتباط السياسيّ لشعر بشر بن أبي خازم، ص٢٩٩-٣٠٣)، كانوا على علاقة قويّة مع الغساسنة، في زمن عمرو بن الحارث، ويبدو أنّ ذلك كان متزامنًا مع غارات عمرو وقائده على ذبيان.

(٣) يبدو أن هذه القصيدة قيلت في إحدى غزوات عمرو بن الحارث الغسانيّ على الأراضي الواقعة تحت النفوذ الحيرة، فـ"عوذى" و"عمم" وكذلك "بنو مسعود" كلها قبائل لخميّة.

٦١(السابعة والستون)

إنْ يَــــسْلَمِ الحَــــارثُ الحَــــرَّابُ لا تَعْتَرِفُـــوا جَيْــشًا مُغِيــرًا عَلَــى ثَهْــلَانَ أَو خَطَــر

٦٢ (الخامسة والثلاثون)

مَــــنْ مَبلِــغٌ عَمــــرَو بــــنَ هِنــــدٍ آيَــــةً وَمِــــنَ النَّــــصِيحةِ كَثْــــرةُ الإعْــــذَارِ

٦٣ (السادسة والأربعون)

لَقَــد تلَفَّــفَ لــــي عَمــــرٌو عَلَــى حَنَــقٍ عــــن قــــول عَرْجَلَــــةٍ لَيْــسُوا بِأَخْيَــار

٦٤ (الخامسة والسبعون)

نَــأَت بِــسُعادَ عَنــكَ نَــوىً شَــظونُ فَبَانَــــت وَالفُـــؤادُ بِهـــا رَهـــينُ

ثالثًا: القصائد التي أنشدها الشاعر بعد اتصاله بالغساسنة.

وتشمل القصائد التي أنشدها في:

أ. رثاء حصن بن حذيفة الفزاري.

٦٥ (الثالثة والخمسون)

يَقولــونَ حِــصنٌ ثُــمَّ تَــأبى نُفوسُــهُم وَكَيـــفَ بِحِــصْنٍ وَالجِبـــالُ جُمُـــوحُ(١)

ب. عودة الشاعر إلى قبيلته الأم، ذبيان.

٦٦ (الخامسة والأربعون)

تُــذَكِّرُنِي أَطْــلَالَ هِنْــدٍ مَــعَ الهَــوَى دَعَــــائِمُ مِنْهَــــا قَــــائِمٌ وَمُنَــــزَّعُ(٢)

جـ. التأكيد على أهميّة حلف بني أسد وغطفان/ ذبيان.

٦٧ (الثالثة والعشرون)

غَـــشيتُ مَنــــازِلًا بِعُرَيتِنــــاتٍ فَـــأَعْلَى الجِـــزْعِ لِلحَـــيّ المُـــبِنِّ

---

(١) الأرجح أنّه قالها قبل أن يتسلم عيينة بن حصن قيادة غطفان خلفًا لوالده ، ويفكر عيينة بنقض حلفهم مع بني أسد ، أما قبل هذا الوقت فقد كان أبوه شديد الصلة ببني أسد، حتى أنّه تولّى زمام المبادرة لشنّ غارات، مع حلفائه الأسديين، على أراض واقعة تحت النفوذ الغسانيّ (انظر: النابغة الذبياني، **الديوان**، ق٤، ق٩).

(٢) يبدو أنّ هذه القصيدة قيلت بعد عودة النابغة إلى قومه، ذبيان.

٦٨ (الحادية عشرة)

قالَــت بَنــو عـــامِرٍ خـــالوا بَنـــي أَسَــدٍ يــا بُــؤسَ لِلجَهـــلِ ضَـــرّارًا لِأَقـــوامِ

٦٩ (الخامسة)

نُبِئْـــتُ زُرعَـــةَ وَالــسَّفاهَةُ كَاسْــمِها يُهـــدي إِلَـــيَّ غَرائِـــبَ الأَشْـــعَارِ

٧٠ (التاسعة والثلاثون)

أَلَا يَـــا لَيْتَنِـــي وَالمَـــرْءُ مَيْـــتُ وَمَـــا يُغْنِـــي عَـــنِ الحَـــدَثَانِ لَيْـــتُ

٧١ (السابعة والأربعون)

أَرَى البُنَانَـــةَ أَقْـــوَتْ بَعْـــدَ سَـــاكِنِهَا فَـــذَا سُـــدَيْرٍ وَأَقْـــوَى مِـــنْهُمُ أَقُـــرُ

٧٢ (الثانية عشرة)

ليهَنِـــئ بنَـــي ذبُيـــانَ أَنَّ بِلادَهُـــم خَلَـت لَهُـمُ مِـن كُـلِّ مَـوْلًى وَتـابِعُ

٧٣ (العشرون)

فَـــإِنْ يَـــكُ عَـــامِرٌ قَـــدْ قَـــالَ جَهْـــلًا فَـــإِنَّ مَظِنَّـــةَ الجَهْـــلِ الـــشَّبَابُ

٧٤(الحادية والعشرون)

لَعَمْـــرُكَ مَـــا خَـــشِيْتُ عَلَـــى يَزِيـــدٍ مِـــنَ الفَخْـــرِ المُـــضَلِّلِ مَـــا أَتَـــانِي

٧٥ (الثامنة والثلاثون)

أَلَا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنِّـــي لَبِيـــدًا أَبَـــا الـــدَّرْدَاءِ جَحْفَلَـــةَ الأَتَـــانِ

٧٦ (الرابعة والأربعون)

عَلِقْـــتَ بِـــذِكرِ المالِكيَّـــةِ بعْـــدَما عَـــلاكَ مَـــشيبٌ فـــي قَـــذَالٍ ومَفْـــرِقِ(١)

---

(١) الأرجح أنّ هذه القصيدة من أواخر الأشعار التي وصلت إلينا من شعر النابغة، فهو يشير في البيت الأول إلى انتشار الشيب في مفرق رأسه وخلفها، وهو دلالة على كبر سنّه، وربّما المقصود دنوّ أجله.

الخاتمة.

ربّما أصبح لدينا، الآن، فهم أفضل للخلفيّة السياسيّة والقبليّة لشعر النابغة الذبيانيّ، فمن خلال الكشف عن الهويّة الحقيقيّة لكلّ من "أبي قابوس" و"النعمان" و"عمرو بن هند" المذكورين في شعره، فإنّ البحث الحالي يؤكّد أنّ ما أنشده الشاعر في الغساسنة يحتلّ مساحة أوسع ممّا كان يعتقد، فقد تبيّن أن عدد القصائد التي أنشدها النابغة فيهم يزيد عن ثلاثين قصيدة، وأنّ عدد أبياتها يفوق نصف ما أنشده من أبيات في العموم، وهي حصيلة شعره السياسيّ، الأمر الذي تتطلّب إعادة النظر في توقيت هذه القصائد، وفي دلالتها، بعد تبيّن أنّها تعود إلى زمن متأخر من القرن السادس للميلاد، وتحديدًا إلى ما بعد يوم جبلة المشهور، وأنّها، في العموم، تعبّر عن علاقة متوترة بين الشاعر والغساسنة، وليس عن علاقة حميمة.

أمّا ما يخصّ الجانب القبليّ في شعر النابغة، فقد أشار البحث إلى ثلاثة موضوعات رئيسيّة تناولها الشاعر في هذا الجانب، وهي: لجوؤ بني عبس في بني عامر بن صعصعة، ولجوؤ بني يربوع بن غيظ، قوم النابغة، في بني عذرة بن سعد، والتأكيد على أهميّة حلف بني أسد وذبيان. في الواقع، يشير هذا البحث إلى أنّ جميع الأحداث القبليّة، في شعر النابغة، هي ذات ارتباط حقيقيّ بحرب داحس والغبراء. وأنّ الشعر القبليّ في ديوان النابغة يشكّل مساحة لا يستهان بها، إذ تجاوزت مساحته ربع قصائد الديوان تقريبًا، الأمر الذي يشير إلى أنّ الروح القبليّة لدى الشاعر كانت هي المحرّك الرئيسيّ لهذا الشعر، وهذا، أيضًا، ما يصدق على شعره الذي أنشده في الغساسنة، وإن كان الاتجاه السياسيّ هو العنصر الأبرز فيه، إلا إنّه في حقيقته يمثّل الروح القبليّة للشاعر.

أمّا فيما يتعلّق بتوقيت قصائد النابغة، فإنّ الباحث يرى أنّ شعر النابغة هو من نتاج الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بزمن قليل، فقد تبيّن أنّ جميع الأحداث، في شعر النابغة، كانت قريبة

من يوم جبلة، الذي وقع في أوائل تسعينيّات القرن السادس للميلاد، كما أنّ جميع الرجال المذكورين في شعره هم ممّن عاشوا قريبًا من زمن وقوع هذا اليوم، قبله أو بعده، وأنّ كثيرًا منهم له صحبة مع النبيّ، ، وشهد انتشار الإسلام في الجزيرة العربيّة. الأمر الذي يشير إلى أنّ النابغة عاش حتى زمن قريب من البعثة النبويّة الشريفة. والمحصلة أنّ شعر النابغة يمتدّ على مساحة زمنيّة لا تتجاوز ثلاثة عقود على أبعد تقدير، إن لم يكن أقل من ذلك.

وفي ضوء النتائج السابقة، يرى الباحث ضرورة إعادة النظر في كثير من قصائد النابغة، وخاصة قصائده في الغساسنة، والتي فُهمت خطأ أنّها قيلت في اللخميين، الأمر الذي يحتّم إعادة النظر في النتائج والأحكام التي بُنيت على ذلك، وهو ما يحقّق فهما أفضل ليس لارتباطات النابغة السياسيّة والقبليّة فحسب، بل لارتباطات كثير من الشعراء الجاهليين الذين عاصره.

قائمة الأعمال المقتبسة

العربيّة

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن(٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

الأصفهاني، أبو الفرج(٣٥٦هـ)، **الأغاني**، ط٣، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨.

الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب(٢١٦هـ)، **ديوان الأصمعيّات**، ط٢، تحقيق محمد نبيل الطريفي، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٥.

الأعشى، ميمون بن قيس بن جندل، **كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير**، نبانة (برلين): مطبعة آذلف هلز هوستن، ١٩٢٧.

أمين، فوزي محمد، **قراءة جديدة في شعر النابغة الذبياني**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩.

أوس بن حجر التميميّ، **الديوان**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠.

البريّ، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاريّ التلمسانيّ(٦٤٥هـ)، **الجوهرة في نسب النبيّ وأصحابه العشرة**، تنقيح وتعليق محمد التونجيّ، الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٨٣.

بشر بن أبي خازم الأسدي، **الديوان**، تقديم مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.

البطليوسي، أبو بكر عاصم بن أيوب(٤٩٤هـ)، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، تحقيق ناصيف سليمان عواد، بيروت: مكتبة درغام (المعهد الألماني للأبحاث الشرقية)، ٢٠٠٨.

البغدادي، عبد القادر بن عمر(١٠٩٣هـ)، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، ط٤، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٧.

ابن بكار، الزبير(٢٠٦هـ)، **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٢.

البكريّ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز(٤٨٧هـ)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ط٣، تحقيق مصطفى السقا، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر(٢٧٩هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكّار ورياض زركلي، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦.

البيّاتي، عادل جاسم، **الشعر في حرب داحس والغبراء**، النجف: مطبعة الآداب، ١٩٧٦.

البيطار، محمد شفيق، **ديوان زهير بن جناب الكلبيّ**، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩.

البيهقيّ، إبراهيم بن محمد، **المحاسن والمساوئ**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠.

التوضيح والبيان-عن شعر نابغة ذبيان، القاهرة: مطبعة الجمالية، ١٩١٠.

ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني(٢٩١هـ)، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ط٣، تحقيق فخر الدين قباوة، دمشق: مكتبة هارون الرشيد للتوزيع، ٢٠٠٨.

جاد المولى بك، محمد أحمد، وعلي البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، **أيام العرب في الجاهلية**، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(٢٥٥هـ)، **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٠.

الجبور، يحيى، **شعر عمر بن لجأ التميميّ**، ط٣، الكويت: دار القلم، ١٩٨٣.

الجمحيّ، محمد بن سلام(٢٣١هـ)، **طبقات فحول الشعراء**، شرح محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة مدني، ١٩٩٠.

الجواليقي، موهوب (٥٤٠هـ)، **شرح أدب الكاتب**، تحقيق طيبة حمد بودي، الكويت: جامعة الكويت، ١٩٩٥.

حاتم الطائي، **الديوان**(شرح أبي صالح بن مدرك الطائي)، تقديم حنا نصر الحتي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.

الحارث بن حلزة، **الديوان**، جمع وتحقيق إميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١.

ابن حبيب، أبو جعفر محمد البغدادي(٢٤٥هـ)، **المحبر**، اعتناء إيلزه ليختين شتيتر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٥.

---، **المنمّق في أخبار قريش**، تصحيح خورشيد أحمد فاروق، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥.

حتّى، فيلب، أدرود جرجي، جبرائيل حبور، **تاريخ العرب**، ط٧، بيروت: دار تمندر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦

ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلانيّ(٨٥٢هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١.

حسّان بن ثابت، **الديوان**، تحقيق وليد عرفات، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٦.

حسين، طه ، **في الأدب الجاهلي**، ط٣، القاهرة: مطبعة فاروق، ١٩٣٣.

أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيساروري(٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**، اعتناء أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، الرياض: دار طيبة، ٢٠٠٦.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد(٤٥٦هـ)، **جمهرة أنساب العرب**، ط٦، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢.

الحطيئة، **الديوان**، ط٢، اعتناء حمدو طماس، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥.

الحليّ، هبة الله محمد بن نما بن علي بن حمدون(ق٦هـ)، **المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسدية**، تحقيق صالح درادكة ومحمد عبد القادر خريسات، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨٤.

الحمويّ، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله(٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧.

الحميريّ، محمد بن عبد المنعم(٩٠٠هـ)، **الروض المعطار في أخبار الأقطار**، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة /دار السراج، ١٩٨٠.

أبو حيّان، محمد بن يوسف الأندلسي(٧٤٥هـ)، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وغيرهما، بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠١.

الخزاعي، أبو علي دعبل بن علي بن رزين(٢٤٦هـ)، **وصايا الملوك**، تحقيق نزار أباظة، بيروت، دار صادر، ١٩٩٧.

الخزرجي، علي بن الحسين(٨١٢هـ)، **العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة**، اعتناء محمد بسيوني عسل، الفجالة (مصر): مطبعة الهلال، ١٩١١.

الخطيب التبريزي، زكريا بن يحيى بن علي(٥٠٢هـ)، **شرح ديوان عنترة**، تقديم مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١.

ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن(٣٢١هـ)، **الاشتقاق**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١.

الذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(٧٤٨هـ)، **سير أعلام النّبلاء**، ط١١، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦.

الراميني، عرسان حسين، "الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم،" **دراسات**، مجلد٣٦، عدد٢، ٢٠٠٩.

---، "حجر بن أم قطام: قراءة تاريخية في ديوان عبيد بن الأبرص،" **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، مجلد ٧، عدد٤، ٢٠١١.

---، "عمرو بن هند في الشعر الجاهلي،" **أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات**، مجلد ١٧، عدد٢، ١٩٩٩.

---، "أبو قابوس في الشعر القديم،" **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، مجلد٨، عدد٤، ٢٠١٢.

---، ""محرق" بين مقولات المؤرخين ومعطيات الشعر،" **مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب**، مجلد٦، عدد٢، ٢٠٠٩.

---، "النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة،" **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، عدد٨٥، ٢٠٠٤.

ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني الأزديّ(٤٥٦هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ١٩٨١.

الزركليّ، خير الدين بن محمود بن محمد بن عليّ بن فارس(١٣٩٦هـ)، **الأعلام**، ط١٥، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، **الأمكنة والمياه والجبال**، تحقيق إبراهيم السامرائيّ، بغداد: مطبعة السعدون، ١٩٦٨.

---، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، تحقيق عبد الأمير مهنا، بيروت: مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ١٩٩٢.

زهير بن جناب الكلبيّ، **الديوان**، صنعة محمد شفيق البيطار، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩.

السمعانيّ، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (٥٦٢هـ)، **الأنساب**، ط٢،تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٩٨٠.

السويدي، سلامة عبد الله، **شعر قبيلة ذبيان في الجاهلية**، الدوحة: جامعة قطر، ١٩٨٧.

ابن السيد البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد (٥٢١هـ)، **كتاب شرح أبيات الجمل**، تحقيق عبد الله الناصير، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٠.

السّيرافي، أبو محمد يوسف بن أبي سعيد(٣٨٥هـ)، **شرح أبيات سيبويه**، تحقيق محمد علي سلطاني، دمشق: دار العصماء، ٢٠١٠.

الشطيّ، عبد الفتاح عبد المحسن، **شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

شمس الدين، إبراهيم، **مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢.

الشنتمري، الأعلم(٤٧٦هـ)، **شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل** ، تقديم حنّا نصر الحتّي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣.

شيخو، لويس، **النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهلية**، ط٢، بيروت: دار المشرق، ١٩٨٩.

الضبيّ، أبو العباس المفضل بن محمد(١٦٨هـ)، **أمثال العرب**، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٣.

الضبيّ، المفضل بن سلمة بن عاصم(٢٩١هـ)، **الفاخر في الأمثال**، اعتناء محمد عثمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١١.

ضيف، شوقي، **العصر الجاهلي**، ط٢٤، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٤.

الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير(٣١٠هـ)، **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، ط٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢.

عامر بن الطفيل، **الديوان**، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي(٣٢٨هـ)، **العقد الفريد**، تحقيق محمد قميحة، القاهرة: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

عبيد بن الأبرص، **الديوان**، شرح أشرف أحمد عدرة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيميّ البصريّ(٢٠٩هـ)، **نقائض جرير والفرزدق**، وضع الحواشي خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.

عدي بن الرقاع العامليّ(٩٥هـ)، **الديوان**، تحقيق نوري حمود القيسي وحاتم صالح الضامن، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧.

عدي بن زيد العبادي، **الديوان**، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والتوزيع، ١٩٦٥.

عروة بن الورد والسموأل، **الديوان**، بيروت: دار صادر، (د.ت).

العسكريّ، أبو أحمد الحسن بن عبد الله(٣٨٢هـ)، **المصون في الأدب**، ط٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤.

العشماوي، محمد زكي، **النابغة الذبياني- مع دراسة للقصيدة العربية**، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤.

علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط٤، بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١.

عمرو بن معدي كرب الزبيديّ، **الديوان**، ط٢، جمع مطاع الطرابيشي، دمشق: مجمع اللغة العربيّة، ١٩٨٥.

أبو الفضل، أحمد بن أبي طاهر(٢٨٠هـ)، **بلاغات النساء -طرائف كلامهن وملح نوادرهنّ وأخبار ذوات الرأي منهنّ وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام**، شرح أحمد الألفي، القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، ١٩٠٨.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري(٢٧٦هـ)، **الشعر والشعراء**، ط٢، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨.

---،**عيون الأخبار**، شرح يوسف علي الطويل، بيروت: دار الكتب العلمية،(د.ت).

---، **المعاني الكبير في أبيات المعاني**، تصحيح سالم الكرنكوي، بيروت: دار النهضة الحديثة، (مصور عن طبعة حيدر آباد ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م).

القلقشنديّ، أبو العباس أحمد بن علي(٨٢١هـ)، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزّمان**، ط٢، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٨٢.

كحالة، عمر، **معجم القبائل العربية** القديمة والحديثة، ط٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

الكلبيّ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب(٢٠٤هـ)، **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق ناجي حسن، بيروت/ دمشق: عالم الكتب/ دار اليقظة العربيّة، ١٩٨٨.

لبيد بن ربيعة العامريّ، **الديوان** (شرح الطيوسي)، تقديم حنا نصر الحتي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣.

ابن المبارك، محمد بن ميمون(٥٩٧هـ)، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، تحقيق محمد نبيل طريفي، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩.

المثقب العبديّ، **الديوان**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية(جامعة الدول العربية)، ١٩٧١.

المرتضى، أبو القاسم علي بن الطاهر(٤٣٦هـ)، **أمالي السّيد المرتضى**، تصحيح محمد بدر الدين النعسانيّ الحلبيّ، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٧.

المرزبانيّ، أبو عبيد الله محمد بن عمران(٣٨٤هـ)، **معجم الشعراء**، ط٢، تصحيح ف. كونكو، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.

المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن(٤٢١هـ)، **شرح ديوان الحماسة**، نشر أحمد أمين عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٨.

المفضليات (شرح أبي القاسم بن محمدالأنباري)، تحقيق تشارلز ليال، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعية، ١٩٢٠.

المقدسيّ، مطهر بن طاهر(بعد٣٥٥هـ)، **البدء والتاريخ**، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينيّة، ١٩٨٠.

ابن منبه، وهب، **التيجان في ملوك حمير**، صنعاء: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٩٢٨.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(٧١١هـ)، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد(٥١٨هـ)، **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت: دار المعرفة، (د.ت).

النابغة الجعديّ، **الديوان**، جمع وتحقيق واضح الصمد، بيروت: دار صادر، ١٩٩٨.

النابغة الذبياني، **الديوان**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥.

---، **الديوان**، ط٥، اعتناء وشرح حمدو طماس، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥.

النشّابيّ، أبو المجد أسعد بن إبراهيم الإربليّ، **المذاكرة في ألقاب الشعراء**، تحقيق شاكر العاشور بغداد: وزارة الثقافة والإعلام (سلسلة خزانة التراث)، ١٩٨٨.

نولدكه، ثيودور، **أمراء غسان**، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق، بيروت: المطبعة الكاثولوكية، ١٩٣٣.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل(٣٦٥هـ)، **كتاب جمهرة الأمثال**، ضبط أحمد عبد السلام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

الهمداني، أبو محمد الحسن بن يعقوب (٣٣٤هـ)، **صفة جزيرة العرب**، ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٤.

الأجنبيّة

The Encyclopaedia of Islam, New Edithion, Leiden, E. J. Brill 1965.

G. S. P. Freemam Grenville, **The Muslim and Christian Calendars**, London, 2nd edition, 1977.

Rabin, Chaim, **Ancient West-Arabian**, London, Taylor's Foreign Press, 1951.

Ramini, **The Tribe of Tamim and the Origins of the Eally Crisis in the Caliphate**, Ph, D. thesis, Cambridge University, 1989.

Shahid, Irfan, **Byzantium and the Arabs in the sixth century**, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, Washington, D.C,1989.

http://www.sfari.com/photo/data/3/7667/jpg

Abstract

Abu Hamad, Abdal-Aziz Fawzi Al-abed, The Historical Framework of al-Nabigha al-Dhubyani’s Poetry, Master Thesis, University of Yarmouk, 2013 (Supervisor: D. Irsan Husein al-Ramini).

This research aims to determine the historical context of al-Nabigha al-Dhubyani's poetry, through testing his political and tribal connections. In the political side it handles the nature of the relationship between the poet the himself and late chassanid kings, specially, Harith Al-Asqhar Bin Abi Shamar and his two sons: Numan and Amr. In the tribal side it handles the internal, this research handles the important events in regard to the history of Dhubyan tribe whether external events related to relations with Bani Abas, Bani Asad and Bani Amer Bin Sa'saha or internal events related to the relation of Bani Yarboug bin Ghaith, The people of Al-Nabigha, with the most influential among the whole tribe of Dhubyan. Both Al-Nabigha' poetry and the pre-Islamic one contain information and clues that help trace the chronological sequence of events, therefore will equip us with the necessary tools needed, to attempt to organize the poems of the poet cryogenically, this is found in the last chapter of this research.

Keywords: al-Nabigha al-Dhubyani, Pre-Islamic Poetry, Arab History befor Islam, Arabian Tribes.